

سلسلة مراكز الحضارة

القاهرة

مدينتها الفنون والتجارة

جاستون فييت

ترجمة الدكتور مصطفى العبادي



القاهرة
مدينة الفن والتجارة

نشر بالاشتراك مع
مؤسسة فرنكلين للطباعة والنشر
بيروت — نيويورك
١٩٦٨

جاستون فييت

القاهرة
مدينة الفن والتجارة

ترجمة الدكتور مصطفى العبادي

مكتبة لبنان

هذه الترجمة مرخص بها وقد قامت
مؤسسة فرنكلين للطباعة والنشر
بشراء حق الترجمة من صاحب هذا الحق

This is an authorized translation of **CAIRO CITY OF
ART AND COMMERCE** by Gaston Wiet. Copy-
right 1964 by the University of Oklahoma Press,
Publishing Division of the University. Published by
University of Oklahoma Press, Norman, Oklahoma.

المسهمون في هذا الكتاب

جاستون فييت

(المؤلف) مستشرق فرنسي ، ولد عام ١٨٨٧ . كان مديرا لدار الآثار العربية بالقاهرة (١٩٢٤ - ١٩٤٤) ، وانتخب عضوا بالمجمع اللغوي بالقاهرة (١٩٣٠) . وهو الآن استاذ شرف للغة العربية في الكوليج دي فرانس . له مؤلفات كثيرة في التاريخ الاسلامي والفنون الاسلامية ، منها كتابان في تاريخ مصر الاسلامي ، وعدة كتب في وصف محتويات متحف الفنون الاسلامية . حقق الجزء الاول من كتاب « الخطط » للمقريري ، وترجم كتاب « البلدان » لليعقوبي ، و « مختصر الادريسي » ، وشارك في دائرة المعارف الاسلامية ، كما انه صنف بمعاونة لويس هوتكور كتابا ضخما عن جوامع القاهرة . ومن احدث مؤلفاته كتاب « عظمة الاسلام » .

الدكتور مصطفى العبادي

(المترجم) نال درجة الليسانس من قسم التاريخ بجامعة الاسكندرية عام ١٩٥١ ، ونال درجة الدكتوراه في التاريخ اليوناني الروماني من جامعة كامبردج عام ١٩٦٠ . ودرس بعد ذلك في جامعة الاسكندرية ، ومنذ ١٩٦٦ - ١٩٦٧ وهو يشغل منصب استاذ مساعد في جامعة بيروت العربية . له كتاب : « مصر من الاسكندر الى الفتح العربي » .

وقد رأى الدكتور العبادي عند ترجمة هذا الكتاب ان يثبت فيه هوامش بمصادر النصوص العربية ، بعد ان ردها الى اصولها ، نظرا لان المؤلف الأصلي لم يتضمن مثل هذه الهوامش باعتباره من كتب الثقافة العامة .

المقدمة

« بغبطة ادخل هذه المدينة الفريدة »
اوجين فرومنتان

ان هدفي هو دراسة تطور العواصم الاسلامية لمصر ، وبصفة خاصة مدينة القاهرة . وسوف ابدأ بالفتح العربي الذي ادى الى اختلاط واسع الانتشار بين الشعوب في قارتين ، وانتهي باكتشاف الطريق حول رأس الرجاء الصالح ، فهو حدث لم يسبق له مثيل في تاريخ التجارة العالمية ، ادى بطريقة حاسمة الى اضعاف دور مصر الدولي الحيوي .

لقد كتب هذا الكتاب لجمهور ذي ميول مختلفة ؛ وان التصدي لوضع مؤلف عن القاهرة ، مهما كانت الظروف ، لهو عمل لا يخلو من مخاطرة ؛ اذ لعلها المدينة الاسلامية التي حيرت المؤرخين اكثر من غيرها . فهناك كتب كثيرة في جميع اللغات تتناول تاريخ المدينة وآثارها وسكانها . ولهذا ، فان من المشكوك فيه أن هذا الكتاب ، الذي يأتي بعد كثير غيره ، يمكن أن يوصف بالأصالة . ولعل أصالة هذا العمل تقع في التعبير بكلمات جديدة عن الاعجاب بحضارة لا ادعي لنفسى فضل اكتشاف خصائصها . فسوف افيد من أعمال من سبقوني ، مضيفا اليها جهدي الشخصي ، وانه لمن المستحيل الا اكرر ما سبق أن قالوه . على أن الهدف الذي

أسعى اليه أمر ليس من السهل تحقيقه . فهناك كلام كثير اليوم عن الدراسة الشاملة للشعوب ؛ وفي هذا المجال ، نجد القائمين بالدراسات الشرقية متخلفين عن الركب ، حتى أنهم يجدون صعوبة في دراسة الأوصاف الظاهرة لشخصيات كبرى . واني لآمل أن أقدم عرضا دقيقا للعادات والتقاليد ، وأن أجعل الماضي يعيش من جديد ؛ ولكن لا زالت هناك وثائق مفقودة أو لم يتم نشرها ودراستها .

ليس للقاهرة من ذبوع الشهرة ما لمراكز الحضارة في مصر القديمة ، والجنوح الى التعالي بالاضافة الى الاكتشافات الأثرية مثل مقبرة توت عنخ آمون لم تساعد على تغيير هذه النظرة . ومع ذلك ، فان هذه المدينة تحتل مركزا مرموقا في تاريخ الفن ، وذلك بفضل الأعمال العمرانية التي ازدهرت في ربوعها ازدهارا باهرا . ولا يزال بالمدينة أحياء تتميز بطابعها الذي يسمح للخيال بأن يعود بنا الى العصور الوسطى ؛ فالأبنية تحرك ذكريات كثيرة من الماضي . فهي تردّ الى مخيلاتنا أحداث السنين الخوالي . انها تقف بمثابة شهود تمنعنا من أن نقلل من شأن تاريخ القاهرة ، فنرتكب بذلك اثم تزيفه . ففيها ، كما في غيرها ، تردد الأحجار الحانا من المجد السالف . ونحن انفسنا يجب أن ننظر خلال المئات من الدروب الضيقة لنرى تلك الاماكن المقدسة المتواضعة التي تخيم عليها مسحة من الكآبة الحلوة . فعلى طول الطريق ، من الاسوار الشمالية للمدينة الفاطمية الى حدود المدينة الجنوبية ،

يصاحبنا نغم متناسق بخاتمة مهيبة ، حيث نسمع لحننا
لنشيد رفيع فخم ، حين تواجه أسوار مسجد السلطان حسن
أعيننا في تحد قوي .

وحين نصعد الى قمة القلعة ، بعيدا عن الزحام وضوضاء
الطريق ، ننظر تحتنا الى « آلاف من الابنية البيضاء المتداعية ،
والآثار ، والجبانات ، وعدد لا يحصى من القباب والمآذن
الدقيقة المزركشة » ، فتبدو وكأنها غابة من القلاع « تتجه الى
السماء » ، مرتفعة في كل مكان فوق مجموعات من المكعبات .

كانت القاهرة العظمى ، كما يسميها الرحالة من الاوروبيين ،
عاصمة سياسية منذ بدء وجودها . ونظرا لكونها مركزا
شيعيا ، فمن المرجح ان المدينة كانت مكروهة ، كما كانت
هناك محاولة لمنع انتشار نفوذها بنوع من السياج الوقائي .
وكان للمدينة فوق ذلك منافسون في ذلك الوقت ، ولو أن
هذه المنافسة اقتضرت ، من ناحية ، على بغداد ، العاصمة
القديمة للدولة الاسلامية والتي حلت محل دمشق ، ومن
ناحية أخرى ، على مدينة قرطبة التي كانت عاصمة لحضارة
فريدة . وتحت حكم السلاطين المملوكيين ، أصبحت القاهرة
بمثابة عاصمة عالمية ، مع بقائها مركزا اسلاميا ، كما أصبحت
وجهة انظار الاوروبيين بسبب الرخاء التجاري الذي نعمت
به .

جاستون فييت

نوي-سيرسان

١٣ تموز (يوليه) ١٩٦٤

١ العواصم الإسلامية الأولى

ان دراسة القاهرة في الفترة السابقة لقيامها التاريخي
تعين علينا تناول مشكلة موقع العواصم الاسلامية لمصر . وقد
كانت هذه العواصم في اول الامر مدنا اقليمية هامة قبل ان
تصبح عواصم بالمعنى الصحيح .

كانت هناك عند الفتح العربي ، قبل كل شيء ، مدينة
الاسكندرية ، ولكنها لم تناسب العرب الذين كان عليهم ان يبقوا
على اتصال بالمدينة أولا ، ثم بدمشق ثانيا ؛ وبعد ذلك اصبحت
بغداد مصدر السلطة في الدولة العربية .

نمت المدينة الاولى ، الفسطاط ، التي كانت مركزا اداريا
وعسكريا ، حول حصن بابلي بيزنطي . وحسب قصة طريفة ،
قيلت على انها حقيقة تاريخية في الشرق وفي الغرب على حد
سواء ، فان المدينة نمت تدريجا حول فسطاط (خيمة) القائد ،
الذي عششت عليه وافرخت يمامة برية (١) . ولقد اخذت هذه

(١) انظر النجوم الزاهرة لابن تغري بردي ١ : ٦٤ (ط .
القاهرة ، ١٩٦٣) ؛ وفي الخطط للمقريري ١ : ٢٩٦
(ط . بولاق ، ١٢٧٠) : « امر بنزع فسطاطه ، فاذا
فيه يمام قد فرخ » .

القصة مأخذ الصدق الى ان اكتشفت بردية مكتوب عليها
باللغتين اليونانية والعربية اظهرت العلاقة بين الكلمة العربية
« الفسطاط » والكلمة اليونانية phossaton ، ومعناها :
المعسكر الذي يحيط به خندق (١) . ولم يختلط المسلمون ،
باعتبارهم القوة المحاربة ، مع السكان الاصليين . ولاغراض
الامن ، ظل المسلمون في مكان واحد ، وقسموا الى جماعات
حسب قبائلهم ، وذلك ليكونوا مجموعة متماسكة في الفسطاط
وضواحيها على الأقل . وسرعان ما اتخذت الفسطاط مظهر
المدينة ، بجامعة الكبير الذي لزم توسيعه في الحال ،
وبأسواقها التي أحاطت بالجامع .

ولقد أجمل أحد المؤرخين العرب في براعة وصف نمو
القاهرة فيما بعد ، مثل قيام العواصم ناحية الشمال ، على
النحو التالي :

وقدم عمرو بن العاص رضي الله عنه بجيوش
المسلمين الى مصر وفتح الحصن واختط مدينة فسطاط
مصر ، فصارت دار الامارة من حينئذ بالفسطاط ، الى
أن زالت دولة بني أمية وقدمت عساكر بني العباس الى
مصر ، وبنوا في ظاهر الفسطاط المعسكر . فصار الامراء

(١) انظر مصر في فجر الاسلام للدكتورة سيدة اسماعيل
كاشف : ٢٤٤ (القاهرة ، ١٩٤٧) ؛ والكلمة باللاتينية
اصلا هي : fossatum .

من حينئذ تارة ينزلون في العسكر وتارة في الفسطاط .
الى أن بنى أحمد بن طولون القصر والميدان وأنشأ القطائع
بجانب العسكر ، فصارت القطائع منازل الطولونية الى
أن زالت دولتهم . فسكن الأمراء بعد زوال دولة بني
طولون بالعسكر الى أن قدم جوهر القائد من بلاد المغرب
بعساكر المعز لدين الله ، وبنى القاهرة المعزية . فصارت
القاهرة من حينئذ دار الخلافة ، ومقر الامامة ، ومنزل
الملك ، الى أن انقضت الدولة الفاطمية على يد السلطان
صلاح الدين يوسف بن أيوب . فلما استبد بعدهم بأمر
سلطنة مصر ، بنى قلعة الجبل هذه ومات ، فسكنها من
بعده الملك الكامل محمد بن العادل أبي بكر بن أيوب .
واقتردى به من ملك مصر من بعده من أولاده ، الى أن
انقرضوا على يد مماليكهم البحرية ، وملكوا مصر من
بعدهم ، فاستقروا بقلعة الجبل الى يومنا هذا (١) .

لقد أقيمت هذه المدن المختلفة لأغراض عسكرية . ونظرا
لأنه لم يكن هناك خطر من جانب عدو خارجي ، فإنه من
الأصح أن نقول أن هذه المدن بنيت بغرض حماية رئيس الدولة
ضد الثورات . وليست هذه الحالة فريدة في العالم
الاسلامي .

من الناحية السياسية والفنية ، يبدأ التاريخ الحقيقي لمصر

(١) الخطط ٢ : ٢٠١ .

الاسلامية المستقلة بابن طولون . فحين وجد هذا الامر أن
العسكر غير آمنة ، رغب في أن تكون له عاصمة وقصر ومسجد
لتخلد ذكراه . ومع أن الأسرة الطولونية لم تعمر طويلا ، الا
انه يحق لنا أن نتحدث عن الدولة الطولونية والفن الطولوني .

وقد اتخذ ابن طولون مدينة سامرا ، وهي المدينة الرافية
التي نشأ فيها ، مثالا له ، فخطط في داخل محيط دائري
رسما للقطائع التي ستمنح للضباط والموظفين والافراد ،
كما رسم مخططا للمسجد الجامع والأسواق التي ستحيط به .
وكانت صفوف الأسواق ممتدة وتنقسم حسب التخصص
التجاري ؛ وقد استخدمت هذه الطريقة ذاتها في تقسيم
جماعات السكان المختلفة . وهكذا بنيت المدينة الجديدة
للجيش والادارة والتجارة التي لا غنى عنها للحياة اليومية
في الدولة . وقد خصصت مساحة كبيرة الى الشرق من
المدينة ، بالقرب من سفوح جبل المقطم ، لركوب الخيل
والسباق . وكانت التدريبات والعروض العسكرية تقام
هناك ايضا .

وكان عرض الجيش الطولوني على هذه الساحة مشهورا في
جميع ارجاء العالم الاسلامي في ذلك العصر ، ويقارن الكتاب
بينه وبين الجمعة ببغداد ، التي كانت تقام بحضور
ال خليفة . وقد اتخذ خمارويه ، ابن أحمد بن طولون ، في
حرسه الخاص ، أفرادا أشداء أقوياء ، لوحظ في اختيارهم

الطول والضخامة . كما كانت لديه قوة من الزنوج ، يمرون في العرض ، تلف رؤوسهم عمامات سوداء وتغطي صدورهم دروع حديدية تلبس فوقها قمصان سوداء ، فكانوا أشبه بمحيط أسود متدافع ، بتأثير لون بشرتهم وملابسهم .

وبدا ظهور البذخ في مصر في أيام هذا الأمير الأخير . فانه زين القصر ووسعه ، وأضاف اليه حديقة صناعية بأشجار مفضضة ومذهبة ، على طريقة أهل العراق التي أعجب بها رسل بيزنطة ايما اعجاب . كما ضمت هذه الحديقة أيضا نباتات زكية الرائحة ، وأشجارا من أندر الأنواع . وكانت هناك حديقة للحيوان تربي فيها الخيول المنتقاة ، والجمال ، والنمور ، والفهود ، والأفيال ، والزرافات . وكان خمارويه قد استأنس سبعا لم يبرح جانبه قط ، وأحاط نفسه بعدد ضخم من الحسنات الصغيرات ، اللاتي قضى معهن فيما يبدو أكثر أيام حياته .

وعمل في داره مجلسا برواقه سماه بيت الذهب وجعل فيه على مقدار قامة ونصف صورا في حيطانه بارزة من خشب معمول على صورته وصورة حظاياه والمغنيات اللاتي تغنيه ... وجعل على رؤوسهن الإكالييل من الذهب الخالص الأبريز الرزين والكودان المرصعة بأصناف الجواهر وفي آذانها الأجراس الثقيل

الوزن المحكمة الصنعة (١) .

بيد أن كل شيء قد اختفى ، بعد أن قضت عليه أحقاد
الخلافة العباسية بالدمار ، ولكن تلك الاحقاد لم تجرؤ على أن
تهاجم المسجد الجديد . وهذا البناء الذي هو من تصور ابن
طولون « يمثل لنا روحا تتميز بالخشونة والطموح والاباء » .
هنا يشعر الانسان بعمق العاطفة الدينية ، كما يتأثر بالبساطة
الرائعة في التصميم ، تلك البساطة التي لم تمنع المهندس
من أن يباين بين الضوء الباهر في الصحن والظل في الأروقة ،
وان يزيد من حدة التباين بتضخيم الاعمدة . وفي داخل
المسجد ، في وسط ساحة يبعث طهرها على التفكير العميق ،
يجد الانسان نفسه وقد انغمس في جو من التأمل الديني
الذي يوحى به اتساق الخطوط ، والعمق الغامض للأروقة ،
وارتفاع العقود الشاهق ، الذي خفف من صرامتها ما بها من
نوافذ ، ثم زاد من رقتها نتوءات الزخرفة للجوامات الوردية
التي تتوج أعالي الجدران . ان الاجزاء القليلة من الزخارف
على الجص تجعل الانسان يفكر في الفنانين وفيما يبدو في
عملهم من حرج ظاهر متعمد ؛ لقد وضعوا أساسا تخطيطيا
لا تستطيع الأجيال المقبلة الا أن تجمّله .

أما مأذنة المسجد ، فقد أعيد بناؤها في القرن الثالث

(١) الخطط ١ : ٣١٦ .

عشر ، ولكنها شكلت حتما على نمط المأذنة القديمة التي تذكرنا - كنموذجها الأصلي في مسجد سامرا - بهياكل النار في العبادة الزرادشتية . ويفسر الشكل الغريب للمأذنة قصة طريفة يوردها مؤرخ (١) معاصر للأمير تقول ان أحمد بن طولون ، الذي احتفظ دائما بسمت صارم اثناء مقابلاته ، أخذ قطعة من الورق ذات يوم ولفها حول اصبعه ، مظهرا طرف الاصبع من نهايتها ، فنظر الحاضرون بعضهم الى بعض في شيء من العجب ، محاولين تفسير عمل الأمير . وحين لاحظ الأمير استغرابهم ، قال مداعبا : « تبني المنارة التي للتأذين هكذا » .

واقضى اثر الدولة الطولونية في استقلالها الاخشيدون ، الذين اقاموا حكومة مستقلة قبل وصول الفاطميين الى مصر مباشرة . وليس هنا مجال الاهتمام بالجوانب السياسية ، ولكن لا بد من الإشارة الى حقيقتين حضاريتين على جانب كبير من الأهمية . لقد عاش الرحالة والمؤرخ المسعودي في مصر في ذلك الوقت ، وتحدث عن الرخاء الاقتصادي في البلاد في كتابه الذي ألفه اثناء اقامته هناك ، فقال (٢) :

يحمل اليها من جميع الممالك المحيطة بهذين البحرين

(١) الخطط ٢ : ٢٦٨ ، وزبدة كشف الممالك لخليل الظاهري : ٣٠ (ط . باريس ، ١٨٩٤) .

(٢) التنبيه والاشراف للمسعودي : ١٩ (ط . القاهرة) .

(بحر الروم وبحر الصين) من أنواع الأمتعة والطرائف
والتحف من الطيب والأفاويه والعقاقير والجواهر
والرقيق وغير ذلك من صنوف المأكـل والمشارب
والملابس . فجميع البلدان تحمل اليها وتفرغ فيها .

ويجب أن نذكر بصفة خاصة أن الأمراء الاخشيديين
شجعوا موهبة التنبي ، ذلك العملاق بين شعراء العربية ،
الذي يتميز شعره في المناسبات بنفحات ملحمية جارفة .
واننا لنجد في شعره القوة الخارقة على التصور ، والسيطرة
 المطلقة على جميع مصادر وامكانيات فنه ، سواء فيما يتعلق
بالإيقاع او بالمهارة في استخدام الكلمات . وبالرغم من احترافه
المدح ، الا أن عبقريته الفذة أنقلته من الاسفاف . وما من
شك انه يرجع اليه بعض الفضل في ان الاجيال اللاحقة لا تزال
تذكر الاخشيديين بشيء من الاجلال .

ولقد اتخذت هاتان الدولتان المستقلتان اتجاها جديدا
تجاه الأقلية المسيحية ، ولعل السبب في ذلك هو الرغبة في
كسب الراي العام في وجه الخلافة في بغداد . ويكفي أن نورد
هنا الوصف التالي الذي اوردده المسعودي والذي يرجع الى
عام ٩٤١ م ؛ قال (١) :

(١) مروج الذهب للمسعودي ١ : ٣٤٣ (ط . الشيخ محمد
محبي الدين عبد الحميد) ؛ وانظر ايضا الخطط
١ : ٢٦٥ .

ولقد حضرت سنة ثلاثين وثلاثمائة ليلة الفطاس
بمصر ، والاخشيد محمد بن طفج في داره المعروفة
بالمختارة في الجزيرة (الروضة) . . . ، وقد أمر فأسرج
من جانب الجزيرة وجانب الفسطاط ألف مشعل ، غير ما
أسرج أهل مصر من المشاعل والشمع . وقد حضر النيل
في تلك الليلة آلاف من الناس من المسلمين والنصارى ،
منهم في الزوارق ، ومنهم في الدور الدانية من النيل ،
ومنهم على الشطوط ، لا يتناكرون الحضور ، ويحضرون
كل ما يمكنهم اظهاره من المأكّل والمشارب والملابس
وآلات الذهب والفضة والجواهر والملاهي والعزف
والقصف ؛ وهي أحسن ليلة تكون بمصر ، وأشملها
سرورا ، ولا تغلق فيها الدروب . ويفطس أكثرهم في
النيل ، ويزعمون أن ذلك أمان من المرض ومبرئ
للداء .

تتميز النظم السياسية الاسلامية بالمركزية . ولهذا ، فانه
يمكن ارجاع النجاح في العمل المزدوج الذي قام به السادة
الجدد - وهو صبغ البلاد بالصبغتين الاسلامية والعربية -
الى العاصمة في مصر ، تحت توجيهات الخلافة بطبيعة
الحال .

ولقد عرض وليام مارسيه بوضوح لموقف المسلمين الأولين
من مشكلات التعليم ، فقال :

ان اهداف التعليم في المجتمع الاسلامي تهتم ، او
لعلها تختلط ، بالرغبة في تمكين كل شخص من أن يؤدي
واجباته الدينية ، وتدعيم عقيدة المؤمنين ، ونشر الاسلام
بين الكفار . ويعتبر من واجبات الحكام الأساسية العمل
بين رعاياهم على نشر المعرفة النافعة بين كل من يعتنق
الاسلام .

وان نظرة سريعة الى الخطوات التي أدت الى نشر الاسلام
بين الأقباط تظهر أن المسيحيين أصبحوا اقلية في القرن
التاسع الميلادي ، أي بعد مائتي سنة من الفتح العربي ؛ وكان
هذا يعتبر حينئذ نصرا سريعا . ففي القسطنطينية - وهو ما
يهمنا بصفة خاصة - تم التعريب بسرعة ايضا ، وكسادت
العربية في أقل من ثلاثة قرون أن تزيل تماما منافستها اللغة
القبطية . وأهم وثيقة لدينا في هذا الصدد هي مقدمة
ساويروس الأشمونى لكتابه « تاريخ بطاركة الاسكندرية » ،
والذي كتب في نهاية القرن العاشر الميلادي ، حيث يقول (١) :
فاستعنت بمن أعلم استحقاقهم من الاخوة المسيحيين
وسألتهم مساعدتي على نقل ما وجدناه منها بالقلم
القبطي واليوناني الى القلم العربي الذي هو اليوم معروف
عند أهل هذا الزمان باقليم ديار مصر لعدم اللسان
القبطي واليوناني من أكثرهم .

(١) تاريخ بطاركة الكنيسة القبطية بالاسكندرية ، لساويروس
ابن المقفع الأشمونى History of the Patriarchs of
the Coptic Church of Alexandria, Patrologia Orientalis,
Tome I, p. 17 (115).

وكان المسجد منذ البداية مركزا للتعليم . وهو أمر طبيعي ،
لأن الغاية من التعليم هي اعداد متخصصين فسي القرآن
والحديث . ويعني هذا معرفة النصوص الدينية عن ظهر
قلب ، وترديدها دون ارتكاب أخطاء في تذكرها ، ودون أخطاء
نحوية . وكان الفرد يستطيع عن هذا الطريق أن يصبح مسلما
صحيحا وداعية يتصف بالجد والعزيمة . وكان العالم في
الدراسات القرآنية لا غنى عنه في جميع المساجد . ويقول
ابن جبر (١) :

وتعليم الصبيان للقرآن بهذه البلاد الشرقية كلها إنما
هو تلقين ، ويعلمون الخط في الأشعار وغيرها ، تنزيها
لكتاب الله عز وجل عن ابتذال الصبيان له بالاثبات
والحور . وقد يكون في أكثر البلاد الملقن على حدة
رالمكتب على حدة فينفصل من التلقين إلى التكتيب .

وهناك نوع من التعليم الخاص ، عن طريق تخصيص مبلغ
من المال تدفع منه مكافأة لكل شخص يحاضر جالسا فسي
مسجد ومستندا إلى أحد الأعمدة . كما قامت الجمعيات
الخيرية بمساعدة الأيتام الذين وجد أنهم يفيدون من التربية
الدينية . ومنذ القرن السابع ، ظهر في الفسطاط عدد من
المحدثين اللامعين . وقام إلى جانب هؤلاء العلماء الأجلاء طائفة

(١) رحلة ابن جبر : ٢٤٥ (ط . بيروت) ، و ٢٧٢
(ط . اوروبة) .

من الخطباء الشعبيين ذوي المقدرة ، ممن استمدوا مادتهم من قصائد الهجاء القديمة .

وهكذا اتجه المنهاج التعليمي نحو الاعتماد على الذاكرة . ومنذ البداية ، لعبت الكتابة دورا ضئيلا ، وكان لهذه الحقيقة الهامة تأثير كبير على النظم التعليمية لعدة قرون . كانت هذه هي الطريقة التي اتبعها مرتلو القرآن وقراؤه منذ أقدم العصور الإسلامية . وعلى أي حال ، كان الطفل يتعلم القراءة والكتابة ، وما هما بالأمر الهين . وبعد ذلك ، كان الدارس يحفظ القرآن عن ظهر قلب ، ويرتله حسب قواعد دقيقة معينة في علم القراءات .

لهذا ، كان القرآن هو الأساس الذي تقوم عليه تربية الرجل المسلم وتعليمه . فكان التلاميذ يبدأون بقراءة النص كاملا ؛ وبعد ذلك يطلب اليهم أن يستظهروا منه أكبر قدر يستطيعونه . وبعد تحليل النص بأكمله تحليلا نحويا ، يكلف الأساتذة التلاميذ بنسخه بشكله التقليدي . وخلال هذه العملية ، يقوم الأساتذة بتفسير النص . ولم يكن استظهار القرآن مجرد دليل على الثقافة فحسب ، ولكنه كان يميز الرجل العالم بين قرنائه . وقد حرص المؤرخون على أن يحفظوا للأجيال التالية أسماء أولئك الذين وهبوا أنفسهم لهذه الرياضة الذهنية .

ومما لا شك فيه كذلك ، أن غرضا آخر من أغراض التعليم كان الحرص منذ البداية على حفظ الحديث . وكان البرنامج

يتكون من قسمين : القسم الاجباري ويختص بتعليم القرآن والتربية الدينية والقراءة والكتابة ؛ والقسم الاختياري ويشتمل على تاريخ ما قبل الاسلام وسيرة الرسول والصحابة والشعر والنحو والانشاء والمفردات والحساب والخط . لهذا ، تعددت اساليب تنشيط الذاكرة ، اذ لا نعرف في غير هذا الأدب تلك الثروة من الشعر التعليمي التي تقدم للطالب دراسات في الفلك والرياضيات والتاريخ ، وفي القانون على وجه الخصوص . « ولم يضعف الاعتقاد في المبدأ القائل بأن نقل المعرفة عن طريق الرواية هو وحده الصحيح » الا بحلول القرن الثامن واكتشاف الورق .

ولم تسمح بعض كتابات المتزمتين بالتعليم الابتدائي للأطفال في المساجد ، خوفا من ان يلوثوا الجدران . واقترحوا ان تقام الفصول في الدكاكين التي تقع على الطريق أو على جوانب الاسواق . وقد اقيمت معظم الفصول في أماكن ضيقة جدا ، باستثناء تلك التي كانت تعقد في الهواء الطلق . ويمكننا ان نقدم صورة لما كانت عليه المدرسة الابتدائية فسي العصور الوسطى حسب ما لدينا من اوصاف حديثة . كان جميع التلاميذ يجتمعون في مكان واحد ، وينشدون ويتعلمون ما يقرر عليهم من الدروس بصوت عال . ويمكننا ان نتصور الصوت الذي كان يسمع في الفصل ؛ وحتى يتمكن المدرسون من تحمله ، كان عليهم ان يعتادوا عليه تماما . وإلى جانب الترتيل عند انشاد الدروس أو قراءتها ، كما كان يحدث في

جميع البلاد ، كان الأطفال يهزون نصف أجسامهم العلوي الى الأمام والخلف . هذه الحركة الدائبة ، بالإضافة الى الصوت النشاز المنبعث من مجموع تلك الأصوات ، جعلت منظر المدارس العربية يبدو غريبا . وكان الأطفال الذين لا يقومون بواجباتهم أو يسيئون السلوك أمام أساتذتهم يعاقبون بشدة . فكان التلميذ المذنب يلقي على ظهره على الأرض ، بينما يرفع المساعد رجليه عاليا ريثما يثبت الشيخ قدميه في « الفلقة » ، وهي اداة شبيهة ببعض أدوات التعذيب التي استخدمت منذ العصر البيزنطي وحتى الأزمنة الحديثة . وعند ذلك يضرب الشيخ قدمي الضحية بفصن رفيع من الجريد . وقد كان ينظر الى مهنة المعلم باحتقار ، فشاع التعبير القائل « أحقق من معلم » . ولم تقتصر هذه النظرة على الحضارة العربية .

أما التعليم في المرحلة الأعلى فكان يتم في المساجد . فمنظر الطلبة وقد جلسوا على شكل حلقة حول الأستاذ ، الذي كان يجلس مستندا الى أحد أعمدة المسجد ، يمثل لنا صورة مألوفة لا زلنا نراها الى وقتنا هذا . وكان التلاميذ ، سواء في التعليم الأولي ، أو في حلقات المساجد ، أو في المدارس الإسلامية فيما بعد ، يجلسون على حصر مبسوطة على الأرض . ولقد لقي أساتذة المراحل العليا العنت الشديد في حفظ النظام أثناء دروسهم . فقد كان هناك سيل مستمر من الأسئلة من الطلبة الذين لا يحجمون عن طلب الايضاحات والشروح . وقد شكوا بعض الأساتذة من ذلك بمرارة . ولعل

هذا الوصف الحديث يصدق أيضا على الفصول في جميع العصور :

ويمكن للمرء ان يرى عمامة الأستاذ ، وقد جلس القرفصاء على جلد كبش ، وأمام قدميه العاريتين منديل وزوج من النعال . وكان يجلس حول العمود الذي يستند اليه ثلاثة صفوف من المستمعين ، يشبهون بجلستهم فروع القلادة . وكان هؤلاء أيضا حفاة الأقدام ، قد وضعوا نعالهم أمامهم بعناية ، كما يفعل بعض الباعة في الأسواق .

وكان لزاما على الطالب أثناء تلقيه التعليم الديني ، أن يتعلم اللغة العربية باتقان ، حتى يمكنه أن يفهم كتاب الله فهما صحيحا . وما كانت هذه الدراسة اللغوية ممكنة الا عن طريق دراسة متعمقة للشعر العربي .

ويمكننا الآن أن نفهم حماسة الرحالة الفارسي ناصر خسرو ، في منتصف القرن الحادي عشر الميلادي ، عندما وصف نتيجة الرسالة التعليمية لمسجد القسطنطين الكبير على هذا النحو بقوله (١) .

(١) سفرنامه لناصر خسرو : ٥٩ (ترجمة الدكتور يحيى الخشاب) .

يقيم بهذا المسجد المدرسون والمقرئون . وهو مكان
اجتماع سكان المدينة الكبيرة ، ولا يقل من فيه ، في أي
وقت ، عن خمسة آلاف ، من طلاب العلم ، والغرباء ،
والكتاب الذين يحررون الصكوك والعقود وغيرها .

في الوقت الذي كتبت فيه هذه الكلمات ، كانت الشيعة
هي المذهب الرسمي للدولة في مصر . وإذا ما تذكرنا أن
الاسكندرية كانت منذ القرون الأولى للعصر المسيحي مركزا
نشطاً للهرطقة ، فإنه يهمننا أن نلاحظ أنه منذ وصول العرب ،
تجنبت البلاد بصفة عامة الانقسامات الدينية والسياسية التي
مزقت شمل العراق وفارس وشمال افريقية . ومما لا شك
فيه ، أن بعض الأفراد دافعوا عن النظريات المنشقة ؛ ولكن
مصر - التي ظلت خارج نطاق صراع الخوارج وجميع ما
تخلف عنهم من فرق - لم تبد اهتماما بقضايا الجبر والاختيار،
وكادت أن تتجنب تماما حركات الاضطهاد التي تعرض لها
المعتزلة .

ولعل من المفيد في هذا المجال أن نذكر أن فقيه الاسلام
الكبير الامام الشافعي قضى الأعوام الأخيرة من حياته في
مصر ، حيث دفن . وان الدور الذي قام به في تنمية التشريع
الاسلامي لبائع الأهمية ، ولا يمكن أن نفيه حقه ، لأنه كان
بحق واضع أساس التنظيم العلمي في حقل التشريع الديني .
فقد أوجد مذهباً متكاملًا بطريقة علمية . ويجب أن نذكر أنه

كان هناك اتجاهان في ذلك الوقت : اتجاه اهل الحديث ، الذين يمكن أن يطلق عليهم اسم أصحاب المدرسة التاريخية ، والذين يبنون القانون الأخلاقي برمته تقريبا على الحديث، دون تحريم للقياس والرأي الشخصي تحريما مطلقا عند الحاجة ، واتجاه اهل الرأي ، الذين يمكن أن يطلق عليهم اسم أصحاب المذهب العقلي - في شيء من الاحتراس - وهؤلاء يبدأون موقفهم أيضا باحترام كبير للحديث ، ولكن نظرا لأنهم شعروا بقلّة المادة الموثوق منها ، فقد فتحوا الباب للاجتهاد الشخصي.

وقد عمل الشافعي على التوفيق بين الاتجاهين . فنحن مدينون له بالتعريف والتطبيق الدقيق لمصادر التشريع الأربعة ، وهي القرآن والحديث والاجماع والقياس . وترجع اصلته الى أنه جعل الاجماع يمتد ليشمل الجماعة بأسرها . وقد منح ذلك قوة قانونية لتقليد معترف به من الجميع . ومن ثم نشأ القول القائل بعدم خطأ الجماعة ، التي يحددها الشافعيون باجماع أصحاب الرأي في زمن معين .

ومهما كان الأمر ، فان الفسطاط - قبل انشاء القاهرة - لم تكن بأي حال مركزا لنشاط أدبي أو ديني يمكن أن يقارن في الأهمية بينه وبين مدن مثل بغداد والبصرة والكوفة .

ونختم هذه الحقبة بذكر شخصية تاريخية يصعب التعريف بها ، وهي ذو النون الذي يدعيه كل من المتصوفة والكيمايين

والقبليين . وتتسم بعض فقرات من كتاباته - وهي حكم
وأمثال وقصص - بطابع صوفي . وقد ترك لنا هذا التعريف
لألوهية الله بقوله : « وكل ما تصور في وهمك ، فالله بخلاف
ذلك » (١) .

(١) الرسالة القشيرية للامام ابي القاسم عبد الكريم
القشيري : ٤ (ط . القاهرة ، ١٩٤٠) .

٢ قاهرة الفاطميين

لم تتعد عاصمة ابن طولون مرتبة المدينة الاقليمية . وقد كان لهذه الحقيقة تأثيرها النسبي على الغضب المدمر الذي بدا من قائد الجيوش العباسية عند سقوط الاسرة . أما القاهرة ، فقد كتب لها ان تتمتع بمجد أبقي .

كان حكام مصر قد بدأوا يتجهون شمالا ، حتى قبل دولة الفاطميين . فنجد ان آخر الأخشيديين أنشأ حديقة كافور بعيدا عن موقع العسكر والفسطاط . وقد بنيت هذه الحديقة الكبيرة - التي حافظ الفاطميون على جزء منها - على مستوى المسجد الاقمر ذاته ، وكان يحدها الخليج . وكان حكام القاهرة يصلون الى هذا المكان - الذي اصبحت حديقتهم الخاصة - عن طريق سرداب تحت الأرض .

القاهرة مدينة جديدة انشئت حيث لم يوجد شيء من قبل ، وعلى موقع اختير مقدما اختيارا محددا ، على سهل رملي . وحسب الرسم الذي كان الخليفة نفسه قد صممه في شمال افريقية ، قام جوهر ، قائد الجيوش الفاطمية ، في الليلة الأولى من وصوله الى الفسطاط ، بتخطيط موقع اسوار القاهرة شمالي القلعة القديمة ، كما وضع أساس القصر

الملكي . وكما حدث عند تأسيس بغداد ، قبل ذلك بزمان طويل ، حين حدد أقدر الخبراء الوقت الذي تكون فيه النجوم فآل خير لمثل هذا العمل ، اتخذت اجراءات مماثلة عند تأسيس القاهرة .

... ان جوهرًا ، لما قصد اقامة السور وبناء القاهرة (١) ، جمع المنجمين وأمرهم أن يختاروا طالعا لحفر الأساس وطالعا لرمي حجارتهم ؛ فجعلوا بدائر السور قوائم من خشب ، وبين القائمة والقائمة جبل فيه أجراس ، وأفهموا البنائين ساعة تحريك الأجراس ان يرموا ما في أيديهم من اللبن والحجارة ، ووقف المنجمون لتحرير هذه الساعة وأخذ الطالع . فاتفق وقوف غراب على خشبة من تلك الخشب ، فتحركت الأجراس ، وظن الموكلون بالبناء أن المنجمين حركوها فألقوا ما بأيديهم من الطين والحجارة في الأساس ؛ فصاح المنجمون : لا لا ، القاهر في الطالع ! ومضى ذلك وفاتهم ما قصدوه . وكان غرض جوهر أن يختاروا للبناء طالعا لا يخرج البلد عن نسلهم أبدا . فوقع أن المريخ كان في الطالع ، وهو يسمى عند المنجمين القاهر ... ولهذا سميت المدينة القاهرة .

(١) النجوم الزاهرة ١: ٤١٠ ؛ وراجع أيضا الخطط ١ : ٣٧٧ .

تأسست مدينة القاهرة في يوم ٦ تموز (يوليه) سنة ٩٦٩ ، وعينت الأحياء لمختلف الجند بعد ذلك بستة أشهر . وامتدت المدينة الجديدة من المأذنة الجنوبية لمسجد الحاكم الى باب زويلة . وحدودها الشرقية هي حدود القاهرة الحديثة ذاتها ؛ أما من ناحية الغرب ، فلم تتعد القناة . وقد بنى القصر الملكي مع المدينة في وقت واحد ، وامتدت واجهته الغربية من المسجد الأحمر حتى مدرسة الملك الصالح أيوب . ووضع أول حجر في الجامع الأزهر في يوم ٤ نيسان (ابريل) سنة ٩٧٠ ، وتم بناؤه يوم ٢٢ حزيران (يونيه) سنة ٩٧٢ .

وهكذا ولدت مدينة ، ستصبح فيما بعد هدفا لعداوة مريرة من جانب أهل السنة ، وذلك بسبب ميولها الدينية المخالفة لهم . وفي الواقع ، كان وصول الفاطميين الى السلطة في مصر انقلابا غير عادي . فمنذ استيلائهم على السلطة في شمال افريقية ، أصبحوا منافسين للعباسيين في بغداد . وبعد ذلك بقليل ، في سنة ٩٢٩ ، حذا الأمير الأموي في قرطبة حذو الفاطميين أنفسهم في الاتجاه الى الرأي العام ، واعتبر أن من حقه أيضا اتخاذ لقب خليفة . وقرر في رسالته الى الناس « وعلمنا أن التماذي على ترك الواجب لنا من ذلك حق لنا اضعناه ، واسم ثابت اسقطناه » (١) . هذا العصر يمكن أن

(١) نص الكتاب الذي تلقب فيه عبد الرحمن الثالث بألقاب الخلافة سنة ٣١٦ هـ (٩٢٩ م) في كتاب :

Una Cronica Anonima de Abd Al-Rahman III al Nasir, ed. par Levi-Provençal Y Emilio Garcia Gomez, Madrid-Granada, 1950, p.79.

يسمى عصر « الانقسام الأكبر » نظرا لتعدد الخلافات . وهذه التسمية صحيحة ، لانه اذا كان الخلفاء في بغداد وقرطبة يتمسكون بادعاء أنهم قد تمت مبايعتهم بواسطة جماعة يصعب تحديدها من اهل الرأي ، فان الخليفة الفاطمي او الامام يقيم حقه على دعوى خاصة . فتوليهِ الخلافة لا يعتمد على أمور عادية مثل رأي الجماعة ، وانما هو معين بحكم نسبه المقدس ، وهو منزّه عن الخطأ .

وبنيت البيوت لرجال الجيش وأسزهم ، كما أنشئت حوانيت تجارية خاصة لخدمتهم . وبينما ارتفعت الأسوار وأخذ أساس القصور والجامع الأزهر الكبير في العلو ، كان جنود جوهر يبنون البيوت ، وكان المعسكر يتحول الى مدينة . وعندما قسمت الأرض داخل الأسوار بين فرق الجيش المختلفة ، أبتنت كل فرقة لنفسها خطة وأطلقت عليها اسمها او اسم قائدها . وكانت القاهرة في ذلك الوقت تنقسم الى قسمين متساويين تقريبا بواسطة قصبة كبيرة تمتد بازاء الخليج ، الذي كان يجري غربا . وتخرج شوارع القسمين الرئيسيين في المدينة من جانبي القصبة (١) .

ووجدت غربي القناة حدائق امتدت الى ضفاف النيل .

(١) المعنى في الخطط ١ : ٣٦٠ ، ٣٧١ ، ٣٧٥ ؛ وانظر كتاب : القاهرة : تاريخها وآثارها لعبد الرحمن زكي : ١٠ (ط . القاهرة ، ١٩٦٦) .

وكثيرا ما كنت ترى فيها اعدادا كبيرة من المتعطلين او المتنزهين
ممن يطلبون اللهو والتسلية . وعندما تبلغ مياه النيل اقصى
ارتفاعها ، يقصد الخليفة احدى القاعات التي تقام في السهل ،
حيث تقام مهرجانات شعبية كبرى .

في هذه المدينة الاقليمية العسكرية ، لم تكن العناية بالطرق
امرا عسيرا . وكانت القرب المائية المصنوعة من جلود الماعز
والتي كانت تنقل على ظهور الجمال او البغال تغطى حتى لا
يصيب ما يتساقط منها المارة . وبالإضافة الى ذلك ، كان
لزاما على كل صاحب متجر ان يحتفظ امام حانوته بوعاء
كبير ممتلئ بالماء ليساعد به في اطفاء النيران . وهناك امر
صدر عن الخليفة الحاكم لا يخلو من طرافة . فقد اصدر امرا
في جميع أرجاء المدينة بأن تضاء الحوانيت والبوابات والميادين
والطرق العامة والحارات المسدودة . ثم أخذ الناس يبالفون
في استخدام المصابيح في الشوارع والأزقة . فكانت الاضواء
تظل مشتعلة طوال الليل في الأسواق المسقوفة والمكشوفة
في القاهرة وفي مصر القديمة ، يتزاحم عليها المشترون . كما
انفقت أموال كثيرة في حفلات الأكل والشراب والطرب .
وسرعان ما ضاق الخليفة الحاكم - الذي لا تحتاج نزواته
الى مزيد من الاشارة - فأصدر امرا مشددا بحظر التجول
ليلا .

ولقد أمضى رحالة فارسي بعض الوقت في القاهرة
وامتدحها أجمل المدح بهذا الوصف (١) :

(١) سفرنامه : ٤٧ - ٥٠ .

... وهكذا بنيت هذه المدينة التي قل نظيرها .
وقد قدرت أن في القاهرة ما لا يقل عن عشرين ألف
دكان ، كلها ملك السلطان ،... والأربطة والحمامات
والأبنية العامة الأخرى كثيرة لا يحدها الحصر ، وكلها
ملك السلطان ، إذ ليس لاحد أن يملك عقارا أو بيتا غير
المنازل وما يكون قد بناه الفرد لنفسه . وسمعت أن
للسلطان عشرين ألف بيت (١) في القاهرة ومصر ، وأنه
يؤجرها ويحصل أجرتها كل شهر . ويستطيع المستأجر
أن يستأجر منزلا أو يتركه بمحض إرادته فلا يجبر
شخص على شيء .

... وليس للمدينة قلعة ، ولكن أبنيتها أقوى وأكثر
ارتفاعا من القلعة ، وكل قصر حصن . ومعظم العمارات
تتألف من خمس أو ست طبقات . . . وفي المدينة
بساتين وأشجار بين القصور تسقى من ماء الآبار . . .
وكانت البيوت من النظافة والبهاء بحيث تقول انها بنيت
من الجواهر الثمينة لا من الجص والآجر والحجارة .
وهي بعيدة عن بعضها : فلا تنمو أشجار بيت على سور
بيت آخر .

... ويجلب ماء الشرب من النيل ، ينقله السقاؤون
على الجمال . . . ويقال ان في القاهرة ومصر اثنين
وخمسين ألف جمل يحمل عليها السقاؤون الروايا

(١) هناك اختلاف بين الرقم الذي يذكره المؤلف ورقم ترجمة
الخشاب ، وقد آثرنا اثبات الأول .

(القرب) ، وهؤلاء عدا من يحمل الماء على ظهره من
القدر النحاسية أو القرب الصغيرة ، وذلك في الحارات
الضيقة التي لا تسير فيها الجمال .

... ويقع قصر السلطان في وسط القاهرة ، وهو
طلق من جميع الجهات ، ولا يتصل به أي بناء ، وكل
ما حوله فضاء ، ويحرسه كل ليلة ألف رجل ، خمسمائة
راجل وخمسمائة فارس .

وكانت حراسة القصر ليلا تقتزن بعرض مهيب . فبعد
الأذان لصلاة العشاء يقوم الامام بالصلاة ، ويتقدم احد الامراء
الى سلم القصر ؛ وعند انتهاء الصلاة ، يصدر أمره لفرقة من
قارعي الطبول ونافخي الابواق ان يعزفوا ، كما تعزف آلات
أخرى قطعاً موسيقية جميلة لمدة ساعة تقريبا . ثم يترك القصر
ضابط معين خصيصاً لهذا الامر ، فيلوح برمحه ، ويقذف
بها اولاً الى الأرض عند المدخل ، ثم يلتقطها ويغلق الباب
ويسير حول القصر سبع مرات . وبعد أن يتم جولاته ، يقيم
العسس الليلي وأفراد الحراسة . وكانت تنصب سلسلة في
أضيق مكان من الميدان الذي يسمى بين القصرين . وابتداء
من هذه اللحظة ، يوقف المرور في الميدان حتى نوبة البوق
عند الفجر : عند ذلك ، ترفع السلسلة ويستأنف المرور .

ويستمر دليلنا الفارسي فيقول (١) :

(١) سفرنامه : ٤٨ - ٤٩ .

ويبدو هذا القصر من خارج المدينة كأنه جبل ، لكثرة ما فيه من الأبنية المرتفعة . وهو لا يرى من داخل المدينة لارتفاع اسواره وهذا القصر يتكون من اثني عشر بناء . وله عشرة أبواب فوق الأرض ، فضلا عن أبواب أخرى تحتها وتحت الأرض باب يخرج منه السلطان راكبا ، وهذا الباب على سرداب يؤدي الى قصر آخر خارج المدينة . ولهذا السرداب الذي يصل بين القصرين سقف محكم . وجدران القصر من الحجر المنحوت بدقة ، تقول انها قدّت من صخر واحد .

ولندخل القصر مع دليلنا ناصر خسرو (١) :

حين دخلت من باب السراي رايت عمارات وصفقا وايوانات . . . كان هناك اثنا عشر جناحا ، أبنيتها مربعة ، وكلها متصلة بعضها ببعض . وكلما دخلت جناحا منها وجدته أحسن من سابقه ، . . . وكان (بأحد هذه الاجنحة) تخت يشغل عرضه بتمامه . . . وهو مغطى بالذهب من جهاته الثلاث ، وعليه صور المصطاد والميدان وغيرهما ؛ كما أن عليه كتابة جميلة . وكل ما في هذا الحرم من الفرش والطرح من الديباج الرومي والبوقلمون ، نسجت على قدر كل موضع تشغله .

(١) المصدر نفسه : ٦٣ - ٦٤ .

وحول التخت درابزين من الذهب المشبك ، يفوق حد الوصف . ومن خلف التخت ، بجانب الحائط ، درجات من الفضة وقد رايت على المائدة شجرة اعدت للزينة ، تشبه شجرة الترنج ، كل غصونها وأوراقها وثمارها مصنوعة من السكر . ومن تحتها ألف صورة وتمثال مصنوعة كلها من السكر أيضا .

وهناك تقرير يستحق اهتمامنا كتبه وليام الصوري عن زيارة سفراء الفرنجة للقاهرة سنة ١١٦٧ م . ذلك أن الرسل - الذين قادهم الوزير شاور بنفسه - اخذوا أولا الى قصر رائع الجمال ، عظيم الزخرفة . وهناك رافقهم عدد كبير من الحرس ، يسرون امامهم ، ويحملون سيوفهم مسلولة . وبعد أن اقتيدوا خلال ممرات طويلة ضيقة تعلوها اقبية ، حيث لم يمكنهم رؤية شيء بسبب الظلمة التامة ، وجد الرسل انفسهم في مكان مضيء ، وراوا سلسلة من الأبواب . وكان عند كل باب حراس عديدون . وعند اقتراب شاور ، كانوا يقفون في الحال ويؤدون له التحية في اجلال . بعد ذلك ، وصل الرسل الى فناء خارجي تحيط به أروقة فخمة ذات عمد . وقد رصف الفناء بأسره بالرخام الملون المحلى بذهب خالص ثمين ، كما غطيت الدعامات السقفية كلها بالذهب ، مما جعل المكان غاية في الجمال والامتناع للنظر ، حتى أن اكثر الناس انشغال بال كان يتوقف ليحملك فيه . وفي وسط الفناء نافورة تنبعث منها المياه الصافية عن طريق أنابيب

ذهبية وفضية الى قنوات واحواض مرصوفة بالرخام ؛ وكنا نرى في كل مكان طيوراً سابحات من أشكال شتى ، ذات ألوان نادرة ، ومن أجمل الأنواع التي جذبت من جميع أقطار الشرق . وكان كل من رآها يعجب بها ويقول ان طبيعة ناضرة قد أبدعتها . وقد اختلفت طبائع الطيور ؛ فمنها من لزم النافورات ، ومنها من بقي بعيداً عنها . وكان يقدم لكل طائر الغذاء المناسب له . هنا ، مضت جماعة الحراس الاولى التي كانت قد رافقت المحاربين الفرنجة ، وحل محلهم في الحال قوم أكثر أهمية ، ممن كانوا على علاقة وثيقة بالخليفة ، فقاد هؤلاء الأدلاء الجدد الرسل خلال أروقة أكثر جمالاً ، وخلال حديقة فاقت سابقتها فخامة وروعة . وهناك رأوا مجموعات من الحيوانات غاية في الغرابة ، بحيث أن أي شخص يصفها سوف يتهم بالكذب ، كما يستحيل على أي فنان رسمها حتى في أحلامه . وبعد أن مروا خلال مزيد كثير من الأبواب وعبروا مزيداً كثيراً من الممرات ، وبعد أن رأوا أشياء جديدة مما بهرهم أكثر من ذي قبل ، وصلوا أخيراً الى القصر الكبير حيث يقيم الخليفة . وهو أكثر بدخاً من أي شيء رأوه حتى الآن . وكانت الساحات تعج بالجند المسلحين من العرب ، وقد تقلدوا أسلحة متألثة من الذهب والفضة ، وبدأ عليهم الاعتزاز بالكنوز التي يحرسونها . ثم أدخل رؤساء الفرنجة الى غرفة فسيحة تنقسم الى قسمين بواسطة ستارة تمتد من حائط الى آخر ، قد نسجت عليها صور حيوانات وطيور وأشخاص ، وترصعها الأحجار من الياقوت والزمرد وآلاف من الأحجار الكريمة .

ولم يكن هناك أحد في هذه الغرفة ؛ ومع ذلك ، فما ان دخل شاوور ، حتى سجد على الأرض كأنه يصلي ، ثم وقف وسجد مرة أخرى ، وألقى سيفه الذي كان يتدلى من عنقه ؛ ومرة ثالثة ، سجد على الأرض وبقي على هذه الصورة في خضوع تام . وفجأة ، وفي لمح البرق ، رفعت حياثل الستارة المفضضة المذهبة مثل الحجاب ، وكانت تحجب الجزء الأمامي من الغرفة ، وظهر الخليفة الطفل أمام الأعين المبهورة من الرسل اللاتين . وكان وجه هذا الأمير الغامض مغطى تماما بحجاب . وكان يجلس على عرش من الذهب مرصع بالجواهر والحجارة الكريمة .

ويجدر بنا أن نقف برهة لنتمعن في الأخشاب المحفورة التي وصلتنا من هذه القصور . فهذا الحفر الذي استحق شهرته العظيمة يقدم لنا مناظر متتابعة على نحو غير متوقع : من مناظر الصيد ، وحفلات الموسيقى والرقص ، ومجالس الشراب . ولم يهمل الفنانون الذين تخيلوا هذه المناظر ما تحتاج إليه من توازن وتخطيط منظم . وبعض الأجزاء تصور أيضا مجموعات من الحيوانات يواجه بعضها بعضا ، بعضها ساكن في أوضاع هادئة جميلة ، ولكن أكثرها صور وكأنه ينبض بالحركة . والطابع العام هو الاطراد ، مع زخرفة متعاقبة من أشكال هندسية هلالية وسداسية مستطيلة . ويستمر هذا التباين في التوزيع مع التناسق في الأشكال الهندسية التي تتكرر بطريقة منتظمة عن يمين وشمال المنظر

الأوسط . وقد رتبت الزخرفة على مستويين : صور بشرية صغيرة ، وصور حيوانات وطيور تظهر أمام خلفية من الاشكال اللولبية والأوراق الثلاثية ، وهي أقل بروزا في الحفر . ويحد كل منظر اطار مزدوج المناظر . وحين ننظر اليها في مجموعها ، نجدها تمثل الجوانب المختلفة لحياة الملك . وتعتبر أعمال الحفر الخشبية هذه ، باتزانها المقصود ، من بين روائع فن رسم الظل (السيلوويت) . وحيث أن تصوير ثنيات الملابس تصويرا متقنا كان أمرا عسيرا ، فيجب علينا أن نشير بالبساطة في التصميم التي مارسها هؤلاء الفنانون ل اظهار خطوات الرقص بحيوية دافقة . وقد تمكن الفنانون الذين قاموا بعمل هذه المحفورات أن يخرجوا لنا صورا تشيع فيها البهجة ، وتكاد تنبض بالجمال الحسي . فالتصور الفني فيها حاد وثوري .

وتقدم لنا هذه الأوصاف تعبيرا بليغا يمكننا من ادراك ما كانت عليه حياة الخلفاء الفاطميين من البذخ . فقد ضمت قصورهم خزائن كثيرة استخدمت كمخازن او اماكن لحفظ الأشياء النادرة . ومما ذكره الكتاب العرب في هذا الشأن ما يأتي(١) : خزانة الكسوة ، حيث حفظت جميع انواع الثياب والبز التي كان الخلفاء يوزعونها بسخاء على كبار رجال

(١) انظر الخطط ١ : ٤٠٨ وما بعدها .

الحاشية على نحو أضر بمالية الدولة ؛ وخزانة الجواهر والطيب والطرائف ؛ حيث حفظت مجموعات من الجواهر والأحجار الكريمة وأشياء مختلفة من البلور والصيني والمرايا واطقم الشطرنج المصنوعة من الأبنوس والعاج والفضة والذهب والصحاف الذهبية للأكل ، بالإضافة الى كمية هائلة من الطيب والعطور النادرة ؛ وخزانة الفرش والامتعة ، وهي مخصصة لحفظ السجاد والاقمشة المطرزة بالذهب والفضة وغير المطرزة من المخرمة على اشكال الطيور والفيلة المصورة بسائر أنواع الصور شيء كثير ، وكذلك الستور الحريري المنسوجة بالذهب منها صور الدول وملوكها والمشاهير فيها ، كما ضمت أيضا خياما ضخمة كانت تستخدم في الرحلات - وباختصار جميع المفروشات التي يمتلكها الخليفة ؛ وخزائن السلاح ، حيث وجدت شتى أنواع الأسلحة من السيوف والرماح والدروع والخوذ والتخافيف والقسي والسهام والنصول ؛ وخزائن السروج ولجم الخيل ؛ وخزانة الشرب ؛ وخزانة غريبة للتوابل وأنواع شتى من البهارات والشمع والعسل والسكر المكرر والحلويات المسكرة وزيت السمسم وزيت الزيتون ؛ وخزانة البنود التي ضمت الرايات والأعلام وساريات من الذهب والفضة ، وقد استخدمت أيضا كسجن للضباط وكبار رجال الدولة ؛ وأخيرا دار الفطرة ، وكانت تعمل فيها الفطائر والحلوى .

وتمثل لنا القصور والأعمال الفنية البيئة المناسبة لحياة

المرح واللامبالاة التي كانت سائدة في القاهرة . واننا لنعرف تفصيلا ترتيب الأعياد التي احتفل بها في الدولة الفاطمية ، ومنها أعياد كانت مجرد مناسبات لتوزيع الطعام والمال على الفقراء ، واقامة الموائد ، وتقديم المنح لموظفي الدولة . وكثيرا ما تلاحقت هذه الفرص للعطاء ؛ اذ بالاضافة الى احتفالات المسلمين السنيين الذين اعترف بهم الفاطميون ، وجدت مهرجانات الشيعة ، واعياد المسيحيين ، وايام اخرى للمرح الفتها وثبتتها التقاليد الشعبية للبلاد ، مثل المهرجانات الصاخبة لوفاء النيل .

لم يكن الفاطميون اول من كرم الأعياد المسيحية بحضورهم . ومع ذلك ، فان الرعاية التي حظي بها المسيحيون ، باستثناء بعض الحالات النادرة ، نمت بوصول الفاطميين . ولا ينبغي ان ننسى ان التجارة والزراعة كان اكثرها فسي اسدي المسيحيين . ونستطيع ان ندرك أيضا ان العقائد الاسماعيلية التي روج لها في مصر نفرت كثيرين من جماهير المسلمين . واتباعا لسياسة حفظ التوازن ، حاول وزراء الفاطميين بطبيعة الحال ان يكتسبوا من المسيحيين التأييد الذي فقدوه عند غيرهم . ويجب ان نضيف أخيرا ، أن كثيرا من المناصب الادارية كان يشغلها مسيحيون .

وفيما يتعلق ببعض النفقات العامة في هذا المجال ، فقد ورد مثلا في ميزانية سنة ١١٢٣ م . الأبواب الآتية : نفقات

الاعياد الاسلامية والمحلية ، ونفقات حاشية القصر ، ونفقات استقبال السفراء ، ومنح الشعراء . ولدينا في الواقع معلومات تفصيلية عن احتفالات هذه الفترة من القرن الثاني عشر الميلادي ، وما تضمنته من ولائم سخية في القصر ومنح من الخليفة .

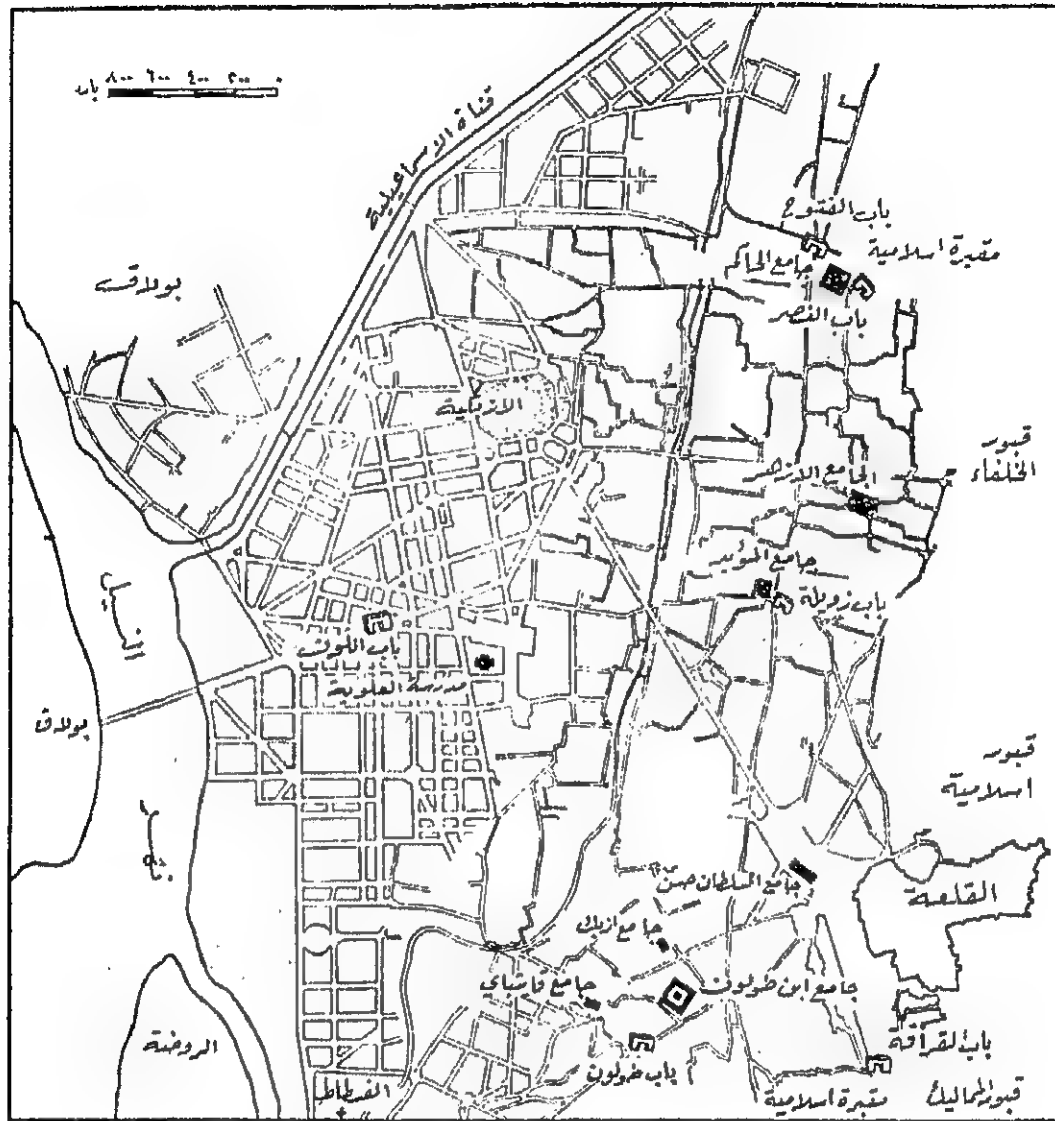
وحسب التقاليد المرعية ، كان السلطان يقدم احتفالين في كل سنة ، وذلك في الأعياد العامة . وكان يدعو اليهما كبار الموظفين والشعب . وكان يحضر الموائد التي يدعو اليها رجال القصر ، اما موائد الشعب ، فكانت تقام في المباني العامة . وكانت مطابخ السلطان الخاصة موجودة خارج القصر ، وكان يعمل بها دائما خمسون خادما . ويصل القصر بالمطابخ ممر تحت الأرض . وهناك خبر طريف آخر وهو : أن أربعة عشر جملا كانت تحمل الجليد كل يوم من لبنان الى مخازن الاطعمة في قصر الخليفة . وكان لكبار الضباط والأعيان نصيب معين من هذا الجليد . وكان بعضه يعطى الى اهل المدينة عند الطلب لعلاج المرضى .

ان هؤلاء الحكام ، الذين كان لهم ولع شديد بالاستعراضات ومظاهر الأبهة ، لم يعد احد يذكرهم برغبتهم المحمومة في أن يسودوا العالم . ولكنهم كانوا بناء حضارة رفيعة . ونظرا لحبهم للبذخ في شتى مظاهره - في المباني التي خلفوها لنا ، والاعمال الفنية التي أحاطوا بها أنفسهم ، والأقمشة الفخمة

للابسهم ورياش قصورهم ، أظهر خلفاء مصر أنهم قوم ذوو طباع رقيقة وعقول نبيلة خلافة .

كان للقاهرة في أول أمرها سور من اللبن . وقد ظل الأمر كذلك حتى نهاية القرن الحادي عشر الميلادي ، حين أقام الوزير بدر الجمالي مكان السور الهزيل أسوارا قوية متينة من الحجر . وتقوم هذه الأسوار دليلا على استخدام فن معماري متقن يختلف تماما عن فن بناء المساجد السابقة . والأبواب الضخمة الثلاثة التي بقيت حتى اليوم ، باب زويلة في الجنوب وباب النصر وباب الفتوح في الشمال ، قسام بينها - ان نحن صدقنا ما يقوله الكتاب العرب - اخوة ثلاثة جاؤوا من شمال العراق . وهي تشبه البوابات الرومانية ، وخاصة منها باب النصر ، بمربعاتها الظاهرة من الحجر الرائع ، وبنائها ، وحلية أسفل الأفرز فيها . وكان يحدد الأسوار من ناحية الغرب طريق مزدوج لدورة الحراس ؛ أما الداخل ، فكان مسقوفا ومزودا بفتحات جانبية واسعة ليقوم الحراس بالمراقبة ورمي السهام منها . وفي هذه الأسوار هناك عقود نصف دائرية ومعقودة ومصطبة واقبية ذات دعائم . وأما الفتحات التي في أعلاها ، فهي تنتهي بقطعة حجرية منحوتة نحتا جميلا على شكل مخروط ناقص . وفي الطابق الأول الذي يعلو قسمي الباب ، توجد غرفة لرماء السهام مزودة بفتحات .

ولقد اعجب كثيرا رحالة القرون الماضية بهذه الأعمال



القاهرة : الشوارع والأحياء الرئيسية

العظيمة . وقد وصف أحدهم باب الفتوح بقوله انه :

لم يسبق له أن رأى شيئاً بهذا الجمال وبهذا القدم
وبهذا الكمال . ويزين الباب أساسا برجان ، ليسا تامي
الاستدارة ، وانما هما اقرب الى الشكل البيضاوي .
وقد بلغ اتقان الصناعة فيهما الى درجة انهما يبدوان
وكأنهما مصنوعان من قطعة واحدة من الحجر .

ولكن أصوات هذه الأسوار ظلت صامتة ، فلم يعلن أحد
قط ممن وقفوا يراقبون خلف الفتحات اقتراب العدو ، ولم
تستخدم قط بواباتها الانزلاقية ، ولا صب الزيت المغلسي
والرصاص المصهور على رؤوس المهاجمين ، ولا أرهبت الأسوار
الفقراء الذين بنوا اكواخهم منذ زمن مبكر على جانب الأسوار .

ولم يبق من المدينة الفاطمية بأسرها سوى بقايا الطريق
الرئيسي الذي يمتد من الشمال الى الجنوب ، وعدد من
الأزقة ، ومعالم رائعة مثل الجامع الأزهر والمسجد الأحمر
ومسجد الخليفة الحاكم .

ويعتبر الجامع الأزهر أروع أمجاد الدولة الفاطمية ، وقد
ظل (الى زمن قريب) في شبه عزلة عن العالم ، موليا
ظهره نحو حقائق الحياة اليومية . وهو أشبه بخلية نحل
من العمل والورع معا . وحيث انه قد تم توسيع البناء بمرور
الزمن ، فقد أصبح بمثابة متحف للعمارة والزخرفة الاسلامية .

وهو يضم عددا ضخما من العقود والأعمدة من شتى الاساليب المتباينة . وما كان باستطاعة مؤسسه أن يتوقع الاضافات الضخمة التي أفسدت الخطة الأصلية المعدة له وأخلت بوحدة الاسلوب . ولهذا أصبح البناء معقدا ، ويجب أخذه على هذا الأساس . وقد قدر له أن يكون مدرسة دينية ومعهدا عظيما . وهو نتيجة لجهود مجتمعة لعدد من الأجيال من الامراء الذين سعوا الى توسيعه واثرائه معا .

والجامع الأزهر ، في الأصل ، من نوع المسجد التقليدي ذي الاروقة . واهم تعديل أدخل على البناء مستورد من شمال افريقية ، وهو زيادة عرض الصحن الرئيس للمسجد ، بحيث أصبح أشبه بطريق لاحتفال رسمي . وقد اعتقد بعض الدارسين أن هذا الطراز مشتق من خطة المعبد لشعب بدوي ؛ ولكن هناك تفسيرا أفضل . ذلك أن التصميم يتفق وعقيدة بسيطة وعبادة خالية من التعقيد . وتواجهنا هذه النقطة بصورة أوضح في مصر ، حيث كانت المعابد القديمة فيما مضى تشتمل على قدس الأقداس في مكان معتم غامض ، لا يسمح لأحد ، الا للملوك والخاصة من رجال الدين ، أن يدخلوه أو أن يتأملوا في جلال الاله فيه . وان بعض العقود التي تتكون في الغابات الغربية الرائعة تذكرنا بالآنية الهائلة في الكاتدرائية ؛ وبالطريقة نفسها ، نلاحظ رابطة شبه بين الانطباع العام لمسجد مليء بالأعمدة وغطوة من النخيل ، التي أحيانا ما تكون متسقة التنظيم الى حد بعيد . ومثل المسجد ،

فان غوطة النخيل « غابة خالية من الغموض ، كما أن صرامة سيقان النخيل الجامدة تنتشر في الريح ، دون أن تخفي معاله » . وهناك وجه آخر يطالعنا للمقارنة بين الكنيسة والمسجد . فالكنيسة تصعد للسماء بينائها وإبراجها وأبراج اجراسها . ولقد رأى ميشليه ان الدعامات الطائرة أشبه بعصي تساعد الكنيسة في صعودها . والمسجد ينتشر ثابتا على الأرض ، مثل رمز للسكينة والايمان والشجاعة المطمئنة ، ويعوزه ذلك المشهد من الخضوع والأمل الذي تمثله الكنيسة .

واقام الفاطميون أيضا مسجدا جديدا ، بمثابة تحية وتذكار ، فوق القبور الحقيقية أو المزغومة لكبار العلويين الذين يستحقون تكريما خاصا . وقد آثروا اظهار اجلالهم للعقيدة التي ضحى لها شهداء العلويين . وهكذا انتشر تقديس الأولياء بسرعة فائقة . ولم يقتصر الأمر على أئمة أهل الورع من عصور الاسلام الذهبية ، بل شمل أيضا انبياء العهد القديم . ولدينا من العصر التالي مباشرة كتب لارشاد الحجاج تحتوي على قوائم دقيقة بأسماء الأولياء الصالحين . واحضر الى القاهرة رأس الحسين بن علي ، شهيد كربلاء ، وكذلك رأس زين العابدين . ويورد ابن جبر(١) سجلا بالأضرحة التي كانت تزار في زمانه . وبالرغم من ازدهار المذهب السني ،

(١) رحلة ابن جبر : ٢١ - ٢٥ (ط . بيروت) .

فقد ظلت الأضرحة الشيعية هدفا للتقديس الشعبي . وهكذا ،
فمدينة القاهرة مدينة بأكثر أوليائها لحكومة شيعية .

ورغم أننا نعجب بحضارة الفاطميين ، فلا ينبغي أن نخدعنا
المباني والأعمال الفنية التي لقيت منهم رعاية مؤكدة . وأنه
لزام علينا أن نقوم بدراسة للحياة الأدبية والعلمية ، وأن تقدم
وصفا حضاريا مركزا للعالم الاسلامي . ففي الشق الشرقي
من الدولة الاسلامية ، في ظل الدولة السامانية ، ازدهرت
حلقة من الكتاب ، منهم الرودكي والبلعمي المؤرخ ، الذين
يضيفون بريقا على اللغة الفارسية لأول مرة . وبسطت دولة
بني حمدان بحلب حمايتها على الفارابي الفيلسوف والمتنبي
الشاعر ومنافسه أبي فراس . وفي فارس ، كتب الهمداني
والحريري مقاماتهما الشهيرة ، وهي أقاصيص مليئة بالثوادر
الشعبية الطريفة ، بينما ارتفع في سورية صوت الشاعر
الضير أبي العلاء المعري بالتشاؤم واليأس . ولا ينبغي أن
ننسى أنه ساد في القرن الحادي عشر عمالقة الأدب من أمثال
الفردوسي ، مبدع الملحمة الفارسية ، وابن سينا ، والبيروني ،
وهم اكبر علماء عصرهم . ولقد اختفت الدولة الفاطمية في
سنة ١١٧١ م دون أن تقدم مساهمة ذات قيمة في مجالي
الأدب والعلم . فلم تنتج منافسا للغزالي وعمر الخيام في
الشرق ، أو لابن زهر وابن رشد في المغرب والاندلس في
المغرب .

وفي القرون السابقة ، كان خيرة علماء اللغة العربية في

العراق قد استطاعوا ان يجمعوا تراث حكمة الأقدمين عن طريق ترجمة كتبهم المناسبة . وفي الوقت الذي استولى فيه الفاطميون على حكم مصر ، كانت الجهود الكبرى للمترجمين قد انتهت ، واكمل قاموس المصطلحات العلمية . ولهذا ، اتجه اهتمامهم الى أن يجعلوا من عاصمة مصر ، التي أصبحت منافسا سياسيا لبغداد وقرطبة ، مركزا حضاريا يفوق في ظنهم العواصم السابقة . ولننظر الآن كيف نفذوا خططهم .

فابن كلس - وهو يهودي اعتنق الاسلام وأظهر تفاخره به - أسس حلقة للدراسات الدينية العليا في الجامع الأزهر سنة ٩٨٨ م . وما لبث ان عُين للتدريس فيه خمسة وثلاثون استاذا للشريعة .

واتخذ الأزهر من معاهد العراق مثالا يحتذيه ، ما عدا في العقيدة التي ظلت شيعية ؛ وأصبح جامعة تدرس فيها ، بالإضافة الى العلوم الاسلامية المحضة ، الدراسات المتوارثة عن العالم القديم مثل الرياضيات والفلك والمساحة والعلوم الطبيعية والأحياء والطب والنحو والشعر والفنون وفروع الفلسفة المختلفة .

وأصبح البحث العلمي ممكنا بفضل مكتبة أقامها الخلفاء في القصر الكبير . وكانت هذه المكتبة تتكون من أربعين غرفة مشتملة على عدد هائل من الكتب في شتى فروع المعرفة .

وكانت أكبر مكتبة في العالم الاسلامي ، ويمكن اعتبارها احدى عجائب الدنيا . واشتملت المكتبة على عدد كبير من الخزائن ، صفت حول كل غرفة ، ويفصل بينها حواجز ، وفي كل منها باب متين يقفل بأقفال ومزالق . وكانت تضم مائة ألف جزء مجلد أو مخطوط في الشريعة حسب المذاهب المختلفة ، ومجموعات في الحديث ، ودراسات في النحو والفلك والكيمياء ؛ بالإضافة الى الحوليات ، وسير عدد كبير من الأمراء . وكانت هناك عدة نسخ من كل كتاب . وكانت ملصقة بباب كل خزانة ورقة مسجل عليها اسماء المخطوطات الموجودة بداخلها .

وحفظت نسخ من القرآن في غرفة خاصة ، وكانت تنسخ باليد بواسطة النساخ المشهورين . وكانت المجموعة تتكون من ٢٤٠٠ نسخة في غاية الجمال ، محلاة بالذهب والفضة وزخارف أخرى .

وقد اختفت هذه المجموعة الثمينة بطريقة تبعث على الأسى . اذ بيعت المخطوطات الجميلة حتى يمكن دفع رواتب الجنود ، وما تبقى بعد ذلك من كتب عند سقوط الدولة بيع بالمزاد العلني وتبعثر .

الى جانب هذا العمل العلمي المحض ، عقد الفاطميون حلقة للدراسات الدينية في احدى حجرات القصر . فكان المذهب

الشيعة هو موضوع الدرس ، كما نعتقد أن حضور هذه الدراسات كان إجباريا لجماعات معينة من الأفراد . وكذلك عقدت حلقات خاصة للنساء .

ويورد لنا مؤرخ عربي(١) معلومات تفصيلية في هذا المجال اذ يقول :

وفي يوم السبت هذا - يعني العاشر من جمادى الآخرة سنة خمس وتسعين وثلثمائة (الموافق ٢٤ آذار (مارس) سنة ١٠٠٥) ، فتحت الدار الملقبة بدار الحكمة بالقاهرة . وجلس فيها الفقهاء ، وحملت الكتب اليها من خزائن القصور . ودخل الناس اليها ، ونسخ كل من التمس نسخ شيء مما فيها ما التمسه ؛ وكذلك من رأى قراءة شيء مما فيها . وجلس فيها القراء والمنجمون وأصحاب النحو واللغة والأطباء ، بعد أن فرشت هذه الدار وزخرفت وعلقت على جميع أبوابها وممراتها الستور، وأقيم قوام وخدام وفراشون وغيرهم وسموا بخدمتها . وحصل في هذه الدار من خزائن أمير المؤمنين الحاكم بأمر الله من الكتب التي أمر بحملها اليها من سائر العلوم والآداب والخطوط المنسوبة ما لم ير مثله مجتمعا لاحد قط من الملوك . وأباح ذلك كله

(١) الخطط ١ : ٤٥٨ .

لسائر الناس على طبقاتهم ، ممن يؤثر قراءة الكتب والنظر فيها . . . وحضرها الناس على طبقاتهم ، فمنهم من يحضر لقراءة الكتب ، ومنهم من يحضر للنسخ ، ومنهم من يحضر للتعليم . وجعل فيها ما يحتاج الناس اليه من الحبر والأقلام والورق والمحابر . وفي سنة ثلاث وأربعمائة (الموافقة ١٠١٣ ميلادية) ، أحضر جماعة من دار العلم من أهل الحساب والمنطق ، وجماعة من الفقهاء ، وجماعة من الأطباء ، الى حضرة الحاكم بأمر الله . وكانت كل طائفة تحضر على انفراد للمناظرة بين يديه . ثم خلع على الجميع ووصلهم .

وكما سبق أن رأينا لم يظهر بين الشعراء او الكتاب شخصية كبرى ذات مكانة أدبية عالية . ولا ينبغي أن ننخدع بـ «الأدباء والعلماء والشعراء العديدين الذين كان يرعاهم الخليفة» ، ممن يتحدث عنهم ناصر خسرو .

وقد لقيت العلوم رعاية خاصة ، لأن كثيرا من العلماء الممتازين يمثلون مصر في تلك النهضة العلمية التي شارك فيها - في منافسة حادة - جميع عواصم العالم الاسلامي .

فابن يونس واحد من أعظم الفلكيين الذين كتبوا باللغة العربية . وكان المرصد الواقع على التل المشرف على مدينة القاهرة هو المكان الذي قام فيه بأبحاثه ، التي سجل نتائجها

في « الجداول الحاكمة » ، وقد اهداها للخليفة الحاكم .
وهو أول من اكتشف نظرية في حساب المثلثات الكروية ،
كانت ذات نفع كبير للفلكيين قبل اكتشاف علم اللوجاريتمات .
ذلك أن نظريته تستخدم الجمع بدلا من عملية الضرب المعقدة
لوظائف حساب المثلثات التي تحسب بكسر الستين . و أظهر
مقدرة بالغة في حل عدد من المشكلات في الفلك الكونسي
باستخدام البروز القائم الزوايا الواقع عند الأفق من القبة
السماوية وعند خطوط الطول .

وكذلك ابن الهيثم ، الذي عرف في أوروبا في العصور
الوسطى باسم Alhazen ، والذي عاش في الفترة ذاتها ،
كان عالما من الطبقة الأولى في تاريخ العلم . ولا يعدل وفرة
انتاجه سوى تعدد مجالات معرفته ؛ فقد كتب في الموازين ،
وتكوين العالم ، وبعد المجرة ، وقوس قزح ، وتحديد القبلة ،
والتف في الموسيقى ، والمرآيا المحدبة والمقعرة ، وضوء الشمس ،
والمربعات السحرية . وكان قد استقدم من العراق الى مصر
لحل مشكلة عملية ، ولكنه اخفق في حلها ، وهي تتعلق
باستخدام مياه النيل لأغراض الري دون التأثير بمنسوب
الماء . وفي الواقع ، كان من الضروري ، من أجل تحقيق ذلك ،
أن يقوم بالتطبيق العملي للعلم في مصر ، وأن يقوم بدراسات
حول الآلات الرافعة . ولكن أكثر أعمال ابن الهيثم أصالة
هي « رسالة في البصريات » ، التي ملأت بظهورها ثغرة في
العلم عند العرب . وكانت هناك ترجمة لكتاب اقليدس عن

البصريات ، الذي قام بشرحه الفيلسوف الكندي . وما من شك أنه كان لرسالة ابن الهيثم في « البصريات » تأثير حاسم على علماء الطبيعة من الاوروبيين . ففي هذا الكتاب نجد لأول مرة وصفا لآلة التصوير camera obscura .

أما عمار بن علي ، فهو أكثر أطباء العيون أصالة بين العرب ، وقد استقر في مصر بعد أن تنقل طويلا في الشرق . وقد أهدى الى الحاكم كتابه في أمراض العيون . ورغم أنه لم يخترع طريقة الازالة في عمليات ماء العين cataract ، إلا أنه وصل بطريقة الامتصاص حد الكمال ، وقد استخدم فيها ابرة مجوفة . ولكن هذه الطريقة اعتبرت خطيرة وضعيفة المفعول .

وقد خلف لنا ابن رضوان - طبيب الخليفة الحاكم - كتابا غريبا عن علم المناخ . وهو معروف بصفة خاصة بسبب اختلافه مع زميله المسيحي ابن بطلان من شمال سورية (١) . ويدور الخلاف بينهما حول درجة حرارة الفرخ والفروج

(١) خمس رسائل لابن بطلان البغدادي وابن رضوان المصري (جامعة القاهرة ، ١٩٣٧) ؛ الرسالة الاولى في ان الفرخ احر من الفروج ، وتقدمها : ٣٤ وما بعدها ؛ الرسالة الثانية في ان المتعلم من افواه الرجال افضل واسهل من المتعلم من الصحف اذا ما كان قبولهما واحدا ، وهي لابن بطلان : ٥٠ وما بعدها .

وأيهما أحر . ولكن الجدل ازداد جدية حين بدأ العالمان في استخدام التهم ، بدافع الاعتزاز بمكانتهما - كما يحدث غالبا في مثل هذه الحالات . فأكد ابن بطلان ضرورة تلقي العلم على استاذ في اعداد الأطباء ، في حين رأى ابن رضوان العصامي انه يمكن اكتساب المعرفة اللازمة كلها من الكتب . وقد حافظ كل منهما على فكرة التقدم العلمي التي حدد معالمها في القرن السابق الفيلسوف والطبيب الرازي . وان هذين العالمين اللذين يمثلان الاتجاه للأخذ بالمناقشات الحرة في العالم العربي يستحقان منا كل تشريف ؛ اذ سرعان ما قيدت المدرسة - وهي المدرسة الدينية والوحيدة - الفكر الاسلامي بمستوى اقل من ذلك بكثير . تلك كانت في الشرق الأدنى آخر طفرة في الدراسات الفلسفية والعلمية بصفة اخص ، وفي رصد الظواهر الطبيعية والحركات الأرضية ، تحت تأثير الفكر الشيعي .



اضرت سنوات القحط السبع من حكم المستنصر بالفسطاط اكثر من القاهرة . فقدت المدينة الاولى سكانها ، وسرعان ما أصاب الخراب بيوتها . وما من شك ان القاهرة قد أصيبت ايضا وهجر بعض أحيائها . وأصبحت الفسطاط خرابا مهجورا تتداعى وراء جدرانها . وكم من رجل مات بغير وريث . ولذلك أمر الوزير بدر الجمالي ، ذو السطوة والسلطان حينذاك ، بأن يقوم القادرون بالبناء في القاهرة او في جنوبها مباشرة . والزم هؤلاء بأن يستخدموا حجارة ومواد اخذت

من بقايا الفسطاط . وقد نفذت هذه النصيحة أو بالأحرى هذا الأمر ، واستخدم كثيرون تلك المواد لبناء بيوتهم في القاهرة .

وبعد ذلك ، في عهد الخليفة الأمر بالله ، أقيمت مبان كثيرة بين القاهرة والفسطاط . فكان موظفو الحكومة يعودون الى منازلهم من العمل في القاهرة الى مصر القديمة خلال شوارع مكتظة تضيئها المصابيح . وقد جدد الوزير المأمون الأمر بمنع الملاك في هذه المنطقة من البناء ، او بيع أراضيهم لأفراد يلزمون بالبناء ، الا اذا استخدموا هذه المواد المتخلفة من المباني القديمة . وكانت الدولة ، في حالة عصيان الأمر ، تصدر الأرض من ملاكها . وقد أدى ذلك الى بعث نوع من الرخاء في المنطقة الواقعة بين باب زويلة وضريح السيدة نفيسة .

وبالإضافة الى ذلك ، فقد أدت إعادة تكوين فرق الجيش التي قام بها بدر الجمالي الى أزمة في الاسكان . ولم تمكن إقامة الوحدات الجديدة داخل حدود المدينة ذاتها . فبنيت لهم منازل خارج الأسوار تجاه الجنوب ، وأقيمت لهم أسواق تفي بحاجاتهم اليومية . ووجد في هذه الأسواق تجار الأقمشة والعقاقير والقصابون . وكان ذلك شيئاً جديداً ، لأن ناصر خسرو كتب قبل ذلك بعدة سنين (١) « بين القاهرة والفسطاط تغطي المياه الوادي بأجمعه ... ، عدا حديقة

(١) سفرنامه : ٥١ .

السلطان لأنها على مرتفع » . وكانت بركة الفيل لا تزال موجودة شرقي الترعة التي كانت تصب فيها عند فيضان النيل .

وأصبحت هذه المنطقة بأسرها عندئذ حيا واحدا كبيرا انتشروا وراء حدود المدينتين . ويقول ابن رضوان (١) :

والمدينة الكبرى اليوم بأرض مصر ذات أربعة أجزاء :
الفسطاط والقاهرة والجزيرة (الروضة) والجزيرة ...
والجبل المقطم في شرقيها وبينها وبين مقابر المدينة ...
وأعظم أجزائها هو الفسطاط ، يلي الفسطاط من الغرب النيل . وعلى شط النيل الغربي أشجار طوال وقصار ... وأزقة الفسطاط وشوارعها ضيقة وأبنيتها عالية .

وينبغي أن نأخذ في اعتبارنا جغرافية المكان عند وصف الفسطاط والقاهرة ، التي كان قد تم تشييدها حين كتب ابن حوقل ما يأتي (٢) :

والفسطاط مدينة حسنة ، ينقسم النيل لدهسها قسمين ، فيعدي من الفسطاط الى عدوة أولى ، فيها

(١) راجع نص ابن رضوان في الخطط ١ : ٣٣٩ .

(٢) صورة الارض لابن حوقل : ١٣٧ (ط . بيروت) .

أبنية حسنة ومساكن جليلة تعرف بالجزيرة (وكانت تسمى الروضة) ، ويعبر اليها بجسر فيه نحو ثلاثين سفينة . ويعبر من هذه الجزيرة على جسر آخر الى القسم الثاني كالجسر الأول الى ابنية جليلة ومساكن على الشط الثالث تعرف بالجيزة . والفسطاط مدينة كبيرة نحو ثلث بغداد ، ومقدارها فرسخ ، على غاية العمارة والخصب والطيبة واللذة ، ذات رحاب في محالها وأسواق ومتاجر فخام وممالك جسام ، الى ظاهر أنيق وهواء رقيق وبساتين نضرة ومتنزهات على مر الأيام خضرة .

وبالفسطاط قبائل وخطط للعرب تنسب اليها محالهم كالكوفاة والبصرة ، الا أنها أقل من ذلك في وقتنا هذا وقد باد أكثرها بظاهر المعافر ، وهي سبخة الأرض غير نقية التربة . والدار تكون بها طبقات سبع وست وخمس طبقات ، وربما سكن في الدار المائتان من الناس ومعظم بنيانهم من الطوب وأكثر سفلى دورهم غير مسكون

وكان خارج مصر (الفسطاط) أبنية بناها أحمد ابن طولون مساحتها ميل في مثله ، يسكنها جنده تعرف بالقطائع وقد خربت في وقتنا هذا .

وقد استحدث المغاربة بظاهر مصر مدينة سمتها

القاهرة : استحدثها جوهر صاحب أهل المغرب عند دخوله الى مصر لجيشه وشمله وحاشيته . وقد ضمت من المحال والاسواق وحوت من أسباب القنية والارتفاق بالحمامات والفنادق الى قصور مشيدة ونعم عتيدة : وقد أحرق بها سور منيع رفيع يزيد على ثلاثة أضعاف ما بني بها ، وهي خالية كأنها تركت مجالا للسائمة عند حصول خوف . وبها ديوان مصر ومسجد جامع حسن نظيف غزير القوام والمؤذنين .

اما عند المقدسي (١) ، في نهاية القرن العاشر الميلادي ، فالفسطاط هو مصر ، قد اتسع بقعته ، وكثر ناسه ، وتنضر اقليمه ، واشتهر اسمه وجل قدره ، فهو مصر مصر وناسخ بغداد . . . حسن الأسواق والمعاش الى حماماته المنتهى . . . أهل من نيسابور ، وأجل من البصرة ، وأكبر من دمشق . به أطعمة لطيفة ، وإدامات نظيفة ، وحلاوات رخيصة . والفسطاط مدينة على النيل ممتدة ، ويقطع اليه مراكب الجزيرة والروم ، تجارته عجيبة ومعاشه مفيدة وأمواله كثيرة . . . قامت به مناظر اللهو والتسلية .

والطبيب ابن رضوان (٢) نقد لاذع فيما يتعلق بالحالة

(١) احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم للمقدسي : ١٩٧ (ط . ليدن) .

(٢) راجع نص ابن رضوان في الخطط ١ : ٣٣٩ - ٣٤٠ .

الصحية في المدينة ، منه قوله :

ومن شأن أهل الفسطاط أن يرموا ما يموت في دورهم من السنائر والكلاب ونحوها من الحيوان الذي يخالط الناس في شوارعهم وأزقتهم ، فتعفن وتخالط عفونتها الهواء . ومن شأنهم أيضا أن يرموا في النيل الذي يشربون منه فضول صواناتهم وجيفها ، وخرارات كنفهم تصب فيه . وربما انقطع جري الماء فيشربون هذه العفونة باختلاطها بالماء . وفي خلال الفسطاط مستودعات عظيمة يصعد منها في الهواء دخان مفرط . وهي أيضا كثيرة الغبار لسخانة أرضها ، حتى أنك ترى الهواء في أيام الصيف كدرا يأخذ بالنفس ، ويتسخ الثوب النظيف في اليوم الواحد . وإذا مر الإنسان في حاجة لم يرجع الا وقد اجتمع في وجهه ولحيته غبار كثير . ويعلوها في العشيات خاصة في أيام الصيف بخار كدر أسود وأغبى ، سيما إذا كان الهواء سليما من الرياح الا أن أهل الفسطاط لهذه الحال ، وأنسهم بها يعوق عنهم أكثر شرها .

ولعل من الحكمة أن نوازن بين هذه الملاحظة الفنية المضطربة وبين هذه النظرة الحماسية للرحالة الفارسي المعاصر ناصر خسرو الذي سبق لنا أن درسنا أقواله (١) :

(١) سفرنامه : ٥٨ .

وتبدو مصر كأنها جبل ، حين ينظر اليها من بعيد .
وبمصر بيوت مكونة من أربع عشرة طبقة ، وبيوت من
سبع طبقات ... وسمعت من تاجر ثقة أن بمصر دورا
كثيرة فيها حجرات للاستغلال أي للإيجار . وهناك
اسواق وشوارع تضاء فيها القناديل دائما ، لأن الضوء
لا يصل اليها .

... وعلى الجانب الشمالي (لمسجد عمرو بن
العاص) سوق يسمى سوق القناديل لا يعرف سوق
مثله في أي بلد ، وفيه كل ما في العالم من طرائف .
ورأيت هناك الأدوات التي تصنع من الصدف كالأوعية
والأمشاط ومقابض السكاكين وغيرها . ورأيت كذلك
معلمين مهرة ينحتون بلورا غاية في الجمال ... ورأيت
انياب الفيل ، أحضرت من زنجبار ... كما أحضر جلد
بقر من الحبشة يشبه جلد النمر ، ويعملون منه النعال .
وقد جلبوا من الحبشة طائرا اليفا كبيرا ، له نقط بيضاء
وعلى رأسه تاج مثل الطاووس .

ويصنعون بمصر الخزف من كل نوع ، وهو لطيف
وشفاف بحيث اذا وضعت يدك عليه من الخارج ظهرت
من الداخل ، وتصنع منه الكؤوس والأقداح والأطباق
وغیرها ، وهم يلونونها بحيث تشبه البوقلمون فتظهر
بلون مختلف في كل جهة تكون بها ، ويصنعون بمصر
قوارير كالزبرجد في الصفاء وبيعوتها بالوزن .

ومدينة مصر ممتدة على شاطئ النيل الذي عليه القصور والمناظر الكثيرة ، اذا احتاجوا الى الماء رفعوه بالحبال من النيل . أما ماء المدينة فيحضره السقاؤون من النيل ايضا . يحمله بعضهم على الابل وبعضهم على كتفه وتفرغ السلع من القوارب عند أبواب البقالين . وبسبب الازدحام في الشوارع ، يستحيل على دواب الحمل أن تنقل هذه البضائع .

وأمام مصر جزيرة ، وسط النيل ، كان عليها مدينة في وقت ما ، والجزيرة غربي المدينة . . . وهي صخرة وسط النهر ، تقسمه قسمين ، كل منهما في اتساع جيحون ، ولكن أكثر هدوءا وبطئا في جريانه . وثبت بين الجزيرة والمدينة جسر من ست وثلاثين سفينة . ويقع جزء من مدينة مصر على جانب النيل الآخر ، ويسمونه الجيزة ، ولكن ليس بها جسر ، ولذا يعبر الناس بالزوارق أو بالمعابر .

وتجار مصر يصدقون في كل ما يبيعون . . . ويعطي التجار في مصر ، من بقالين وعطارين وبائعي خردوات ، الأوعية اللازمة لما يبيعون ، من زجاج أو خزف أو ورق ، حتى لا يحتاج المشتري أن يحمل معه وعاء .

. . . ويركب أهل السوق وأصحاب الدكاكين الحمر

المسرجة في ذهابهم وإيابهم من البيوت الى السوق .
وفي كل حي على رأس الشوارع حمر كثيرة عليها براذع
مزينة ، يركبها من يريد نظير أجر زهيد . وقيل انه
يوجد خمسون ألف بهيمة مسرجة تزين كل يوم
وتكرى . ولا يركب الخيل الا الجند والعسكر ؛ فلا
يركبها التجار أو القرويون أو أصحاب الحرف ، ويركبها
العلماء .

... ورايت أموالا يملكها بعض المصريين لو ذكرتها
أو وصفتها لما صدقني الناس ، فاني لا أستطيع أن احدد
أموالهم أو أحصرها .

وأخيرا ، يدل كتاب الادريسي الجغرافي (١) - الذي كتب
في منتصف القرن التالي - ان تأسيس القاهرة لم يؤثر في
ازدهار الفسطاط ؛ بل لعل العكس هو الصحيح :

وهي الآن مدينة كبيرة على غاية من العمارة والخصب
والطيب والحسن ؛ فسيحة الطرقات ، متقنة البناءات ،
قائمة الأسواق ، نافقة التجارات ، متصلة العمارات ،
نامية الزراعات . لأهلها هم سامية ، ونفوس تقية

(١) المغرب وارض السودان ومصر والاندلس للادريسي :
١٤٢ - ١٤٣ (ط. لندن) .

عالية ، وأموال مبسوطة نامية ، وأمتعة راقية . لا تشغل نفوسهم بهم ، ولا تعقد قلوبهم على غم ، لكثرة أمنهم ، ورفاهة عيشهم ، وانبساط العدل والحماية فيهم ومصر بالجملة عامرة بالناس ، نافعة بضروب المطاعم والمشارب وحسن الملابس . وفي أهلها رفاهة وظرف شامل وحلاوة .

ولكن أصاب المدينة خراب شديد لبعض الوقت على يدي الوزير الفاطمي شاور في سنة ١١٦٨ ، حين حاصرتها جيوش الفرنجة . فأراد أن يجمع قواته للدفاع عن القاهرة (١) :

فنادى شاور بمصر أن لا يقيم بها أحد ، وأزعج الناس في النقلة منها ، فتركوا أموالهم وأثقالهم ، ونجوا بأنفسهم وأولادهم . وقد ماج الناس واضطربوا كأنما خرجوا من قبورهم الى المحشر ، لا يعبا والد بولده ، ولا يلتفت أخ الى أخيه ، وبلغ كراء الدابة من مصر الى القاهرة بضعة عشر دينارا ، وكراء الجمل الى ثلاثين دينارا . ونزلوا بالقاهرة في المساجد والحمامات والأزقة وعلى الطرقات . فصاروا مطروحين بعيالهم وأولادهم ، وقد سلبوا سائر أموالهم ، وينتظرون هجوم العدو على القاهرة بالسيف وبعث شاور الى مصر بعشرين

(١) الخطط ١ : ٣٣٨ - ٣٣٩ .

ألف قارورة نفط وعشرة آلاف مشعل نار ، فرق ذلك
فيها ، فارتفع لهب النار ودخان الحريق الى السماء ،
فصار منظرا مهولا . فاستمرت النار تأتي على مساكن
مصر . . . لتمام أربعة وخمسين يوما ، والنهابة من
العبيد ورجال الاسطول وغيرهم بهذه المنازل في طلب
الخبايا . . . فمن حينئذ خربت مصر الفسطاط هذا
الخراب الذي هو الآن كيما ن مصر .

صَلَّاحُ الدِّينِ

٣

أخذ صلاح الدين يبحث عن مكان حصين لاقامته بعد أن قضى على دولة الفاطميين . ويقال ان السبب الذي دعاه الى اختيار مكان القلعة ، انه علق اللحم بالقاهرة فتغير بعد يوم وليلة ، فعلق لحم حيوان آخر في موضع القلعة فلم يتغير الا بعد يومين وليلتين . ولذلك أمر ببناء قلعة على بروز في جبل المقطم ، يكون ما يشبه شبه الجزيرة . ودمرت المساجد والقبور الموجودة في المنطقة ، كما هدمت الأهرام الصغيرة في الجزيرة ، ونعرف انها كانت كثيرة العدد . ونقل ما تخلف عنها من حجارة ، واستخدم في بناء قلعة القاهرة . وكان السلطان يهدف الى بناء سور واحد يضم القاهرة والفسطاط والقلعة ، ولكنه توفي قبل اتمام السور والقلعة . وابتدا العمل في بناء القلعة سنة ١١٧٦ م (٥٧٢ هـ) ، وانتهى في سنة ١٢٠٧ م (٦١٤ هـ) ؛ اما السور ، فلم يتم أبدا . وقد خلاص المقرئزي الى الاعتقاد بأن السبب في بنائها ان صلاح الدين لما ازال الدولة الفاطمية من مصر ، واستبد بالامر ، لم يزل يخاف على نفسه من شيعة الخلفاء الفاطميين بمصر ، الذين كان يسانداهم النصارى ، فاحب ان يجعل لنفسه معقلا كما فعل اصحاب العسكر والقطائع بالقاهرة ، وانه اراد ان يترك مساكن من حكموا قبله ليؤسس الدولة الجديدة في موقع

يليق بها بعيدا عن احياء السكنى . وهذا شأن الملوك ما زالوا
يطمسون آثار من قبلهم ويميتون ذكر اعدائهم . فقد هدموا
بذلك السبب اكثر المدن والحصون . وكذلك كانوا ايام العجم
في جاهلية العرب ، وهم على ذلك في ايام الاسلام (١) .

وبذلك يكون صلاح الدين قد غير في شخصية المدينة
الفاطمية ، التي كانت كحصن ، فجعلها مكانا يستطيع العامة
وسائر السكان ان يبنوا بيوتهم فيه . وقلل من حجم قصر
ال خليفة ، فهدم منه جزءا ، وحول جزءا آخر الى مساكن
خاصة .

وما زالت القلعة شاهدا على عظمة عصر صلاح الدين ،
رغم ان السلطان لم يسكنها أبدا . وهي تقدم دليلا ملموسا
على شخصية فذة ، ورجل سابق لزمانه وارقى من معاصريه ،
سواء في ذلك اخوانه في الدين أو أعداؤه ، الذين راوا فيه
انسانا يغلب عليه الاعتدال وشعور الولاء ، مبرا تماما من
الانانية والدوافع الشخصية - وبعبارة مختصرة - رجلا فذا .

وحين بنيت القلعة في القاهرة ، وقفت كتحد بلا فائدة امام
السكان المسلمين ، الذين لم يشقوا عصا الطاعة في العاصمة ؛
أما في الريف ، فقد وقعت بعض الاضطرابات حينما تعسفت
معهم سلطات الضرائب .

(١) . معنى الفقرة في الخطط ٢ : ٢٠٣ و ١ : ٣٤٨ .

وعلى أي حال ، فإن بناء القلعة يعتبر بمثابة وضع حد
للماضي ، بل فاصل حاد ، لأنها مثلت احتمال تغير في العادات
وقلب للبناء الاجتماعي . فبحكم موقعها الظاهر فقط ، كانت
القلعة تصدم الشعور العام على نحو مثير للنفس . فظلت
مراكز الحكومة محجوبة وراء الاسوار ، محمية ضد الثورات
الممكنة . وكان مبعث الخوف في أول الأمر شعب يرفض
الخضوع ؛ ولكن بعد تكوين جيوش من المرتزقة ، ظهرت الرغبة
في منعهم من الاختلاط الشديد مع الأهالي . وسوف نرى
أخيرا أنه في عصر سلاطين المماليك ، أصبحت هناك حاجة
إلى حماية الفريق الحاكم ضد المنشقين العديدين في أي
وقت . وما إن بنيت القلعة ، حتى أخذت مدينة القاهرة في
التوسع عن طريق هدم جزء من أسوار الفاطميين ، أو كما
حدث في المنطقة الشمالية ، عن طريق بناء بيوت جديدة
عليها .

كانت مدينة ابن طولون مسكنا للأمير ؛ ويمكن إطلاق هذا
التعبير ذاته على القاهرة الفاطمية . ولم يصبح لمصر عاصمة
حقيقية إلا بوصول صلاح الدين . فمجد القاهرة - دون
التقليل من عمل الفاطميين - يبدأ من عصر الأيوبيين . فالرحالة
الأندلسي ابن جبير يعرف المدن ، ويعرف أن بعضها لا يستحق
اسم المدينة . وقد صرح بذلك عند الحديث عن بلدة قتي
شمال العراق بهذه العبارة (١) : « وأما المدينة ، فللبداوة بها

(١) رحلة ابن جبير : ٢١٩ (ط . بيروت) .

اعتناء ، والحضارة عنها استغناء ، لا سور يحصنها ، ولا دور
أنيقة البناء تحسنها ، قد ضحيت في صحرائها كأنها عوذة
لبطحائها » .

ولذلك لم يخل قوله من شيء من الاعتزاز عندما وصف
موقع بناء القلعة في ذروة نشاطها سنة ١١٨٣ م (٥٧٨هـ)
بهذه الكلمات (١) :

وشاهدنا أيضا بنيان القلعة وهو حصن يتصل
بالقاهرة حصين المنعة ، يريد السلطان ان يتخذ موضع
سكناء ، ويمد سوره حتى ينتظم بالمدينتين مصر
والقاهرة . والمسخرون في هذا البنيان ، والمتولون
لجميع امتهاناته ومؤنثه العظيمة ، كنشر الرخام، ونحت
الصخور العظام ، وحفر الخندق المحدث بسور الحصن
المذكور ، وهو خندق ينقر بالمعاول نقرا في الصخر ،
عجبا من العجائب الباقية الآثار ، العلوج الأسارى من
الروم ، وعددهم لا يحصى كثرة ، ولا سبيل ان يمتهن
في ذلك البنيان احد سواهم .

وأبدى الطبيب عبد اللطيف البغدادي عجبه من مساكن
الطبقة الوسطى في المدينة ، وأورد لنا بعض المعلومات القيمة
بشأنها والتي يمكن أن تفسر ظاهرة ان الغرف الموجودة في

(١) المصدر نفسه : ٢٥ (ط. بيروت) ، و ٥١ (ط. اوروبة) .

طابق واحد لم تكن في مستوى واحد أبدا (١) :

واذا ارادوا بناء ربيع أو دار ملكية أو قيسارية ،
استحضر المهندس وفوض اليه العمل . فيعمد الى
العرصة ، وهي تل تراب أو نحوه ، فيقسمها في ذهنه
ويرتبها بحسب ما يقترح عليه ، ثم يعمد الى جزء جزء
من تلك العرصه ، فيعمره ويكمّله بحيث ينتفع به على
انفراد ويسكن . ثم يعمد الى جزء آخر ، ولا يزال كذلك
حتى تكمل الجملة بكمال الاجزاء من غير خلل ولا
استدراك . واما ابنيّتهم ففيها هندسة بارعة وترتيب
في الغاية حتى انه قلما يتركون مكانا غفلا خاليا عن
مصلحة . ودورهم فيح ، وغالب سكناهم في الاعالي ،
ويجعلون منافذ منازلهم تلقاء الشمال والرياح الطيبة .
وقلما تجد منزلا الا وفيه باذاهنج وباذاهنجاتهم كبار
واسعة ، للريح عليها تسلط ، ويحكمونها غاية الاحكام .

ومنذ العصر الأيوبي ، اتبعت مدينة القاهرة قواعد محددة

(١) الافادة والاعتبار في الامور المشاهدة والحوادث المغاينة
بارض مصر لعبد اللطيف البغدادي : ٣٩ (ط . القاهرة) ؛
وانظر ايضا النص العربي والترجمة الانجليزية في كتاب

The Eastern Key, by Kamal Haffuth Zand, John
A. and Ivy E. Videan, London, 1965, pp.179 = 44
l ff and 177 = 44 r ff.

فيما يتعلق بنموها الناتج عن الزيادة في عدد سكانها . فمن ناحية الجنوب ، نجد أن القاهرة تتجه نحو الاتصال بالفسطاط ، التي أصبحت العاصمة الجديدة في حاجة اليها كميناء على النيل . أما ما بين المدينتين ، فستستمر الحدائق الجميلة حتى بداية القرن الرابع عشر . ومن ناحية الغرب ، تنمو المدينة نحو ضفاف النيل وتتعدى الخليج بحيث ان جزيرة بولاق تصبح الواجهة الجديدة على النهر وتنافس الفسطاط كميناء تجاري . وهكذا ، سوف لا يضر نمو القاهرة بمدينة الفسطاط القديمة ، أو يسبب اضمحلالها ، وانما سيغير وظيفتها .

وقد كتب ابن جبير في ذلك الوقت يقول (١) :

وبمدينة مصر (الفسطاط) آثار من الخراب الذي أحدثه الاحراق الحادث بها وقت الفتنة عند انتساح دولة العبيديين (الفاطميين) ، وذلك سنة أربع وستين وخمس مائة (١١٦٩ م) . وأكثرها الآن مستجد والبنيان بها متصل . وهي مدينة كبيرة .

هذا هو ما ورد في وصف رحالة أندلسي في طريقه الى الحج ، وسوف نستمر الآن بإيراد وصف ذكره رحالة أندلسي ايضا ، هو ابن سعيد الذي يتميز وصفه بالحيوية والتعنيقات

(١) رحلة ابن جبير : ٢٩ (ط . بيروت) ، و ٥٤ (ط . اوروبة) .

اللاذعة . فأول ما تلحظه عينه هو قذارة المدينة القديمة
فيقول (١) :

ولا ينزل فيها مطر الا في النادر ، وترابها ينتن
الأرجل ، وهو قبيح اللون ، تستكدر منه أرجاؤها ،
ويسوء بسببه هواؤها . ولها أسواق ضخمة الا أنها
ضيقة ، ومبانيها بالقصب والطوب طبقة على طبقة .

واضاف ابن سعيد (٢) :

لما استقررت بالقاهرة تشوقت الى معاينة الفسطاط ،
فسار معي اليها أحد أصحاب القرية ، فرأيت عند باب
زويلة من الحمير المعدة لركوب من يسير الى الفسطاط
جملة عظيمة ، لا عهد لي بمثلها في بلد . فركب منها
حمارا ، وأشار الي ان اركب حمارا آخر ، فأنت من ذلك
جريا على عادة ما خلفته في بلاد المغرب ، فأخبرني أنه
غير معيب على اعيان مصر ، وعانيت الفقهاء وأصحاب
البزة والشارة الظاهرة يركبونها ، فركبت . وعندما
استويت راكبا ، أشار المكاري الى الحمار ، فطار بي ،

(١) راجع رحلة ابن سعيد في نفح الطيب للمقري ٣ : ١٠٢
وما بعدها (ط . القاهرة ، ١٩٤٩) .

(٢) راجع الخطط ١ : ٣٦٦ ؛ وراجع ايضا رحلة ابن سعيد
في نفح الطيب ٣ : ١٠٣ - ١٠٦ .

وآثار من الغبار الأسود ما أعمى عيني ، ودنس ثيابي ،
وعاينت ما كرهته ، ولقطة معرفتي بركوب الحمار وشدة
عدوه على قانون لم أعهده ، وقلة رفق المكاري ، وقعت
في تلك الظلمة الماثرة من ذلك العجاج

فدفعني إلى المكاري أجرته ، وقلت له : احسانك ان
تتركني أمشي على رجلي . ومشيت إلى أن بلغتها .
وقدرت الطريق بين الفسطاط والقاهرة وحققته بعد
ذلك نحو ميلين . ولما أقبلت على الفسطاط أدبرت عني
المسرة ، وتأملت أسوارا مثلمة سوداء وآفاقا مغبرة .
ودخلت من بابها وهو دون غلق يفضي إلى خراب
معمور بمبان مشتتة الوضع ، غير مستقيمة الشوارع ،
وقد بنيت من الطوب الأدكن والقصب والنخيل طبقة
فوق طبقة . وحول أبوابها من التراب الأسود والازبال
ما يقبض نفس النظيف ، ويغض طرف الظريف . فسرت
وأنا معاين لاستصحاب تلك الحال ، إلى أن صرت في
أسواقها الضيقة ، فقاويت من ازدحام الناس فيها
لحوائج السوق والروايا التي على الجمال ما لا تفي به
إلا مشاهدته ومقاساته ، إلى أن انتهيت إلى المسجد
الجامع ، فعاينت من ضيق الأسواق التي حوله ما ذكرت
به ضده في جامع اشبيلية وجامع مراكش ، ثم دخلت
إليه فعاينت جامعا كبيرا قديم البناء ، غير مزخرف ،
ولا محتفل في حصره التي تدور مع بعض حيطاته .

وتنبسط فيه . وأبصرت العامة رجالا ونساء قد جعلوه معبرا بأوطئة أقدامهم يجوزون فيه من باب الى باب ليقترب عليهم الطريق . والبياعون يبيعون فيه أصناف المكسرات والكعك وما سوى ذلك ، والناس يأكلون في عدة أمكنة منه غير محتشمين لجري العادة عندهم بذلك . وعدة صبيان بأواني ماء يطوفون على كل من يأكل ، قد جعلوا ما يحصل لهم منه رزقا ، وفضلات ماكلهم مطروحة في صحن الجامع ، وفي زوايا العنكبوت قد عظم نسجه في السقف والأركان والحيطان ، والصبيان يلعبون في صحنه ، وحيطانه مكتوبة بالفحم والحمرة بخطوط قبيحة مختلفة من كتب فقراء العامة . الا أن مع ذلك ، على الجامع المذكور من الرونق وحسن القبول وانبساط النفس ما لا تجده في جامع اشبيلية ، مع زخرفته والبستان الذي في صحنه ؛ ولقد تأملت ما وجدت فيه من الارتياح والأنس دون منظر يوجب ذلك ، فعلمت أن ذلك سر مودع من وقوف الصحابة رضي الله تعالى عنهم في ساحته عند بنائه . واستحسننت ما أبصرته من خلق المتصدرين لاقراء القرآن والفقهاء والنحو في عدة أماكن . وسألت عن مواد أرزاقهم ، فأخبرت أنها من فروض الزكاة وما أشبه ذلك ، ثم أخبرت أن اقتضاء ذلك يصعب الا بالجاء والتعب .

ثم انفصلنا من هناك الى ساحة النيل ، فرأيت ساحلا
كدر التربة ، غير نظيف ، ولا متسع الساحسة ، ولا
مستقيم الاستطالة ، ولا عليه سور أبيض ؛ الا أنه مع
ذلك كثير العمارة بالمراكب واصناف الأرزاق التي تحصل
من جميع أقطار النيل . ولئن قلت اني لم أبصر على
نهر ما أبصرته على ذلك الساحل فاني أقول حقا ، والنيل
هناك ضيق ، لكون الجزيرة التي بنى فيها سلطان
الديار المصرية الآن قلعته قد توسطت الماء ومالت الى
جهة الفسطاط ، وبحسن سورها المبيض الشامخ حسن
منظر الفرجة في ذلك الساحل .

وقد ذكر ابن حوقل الجسر الذي يكون ممتدا من
الفسطاط الى الجزيرة ، وهو غير طويل ، ومن الجانب
الأخر الى البر الغربي المعروف ببر الجزيرة جسر آخر
من الجزيرة اليه ، وأكثر جواز الناس بانفسهم ودوابهم
في المراكب ، لأن هذين الجسرين قد احترما لحصولهما
في حيز قلعة السلطان ، ولا يجوز أحد على الجسر
الذي بين الفسطاط والجزيرة راكبا ، احتراماً لموضع
السلطان

ولم أر في أهل البلاد الطف من أهل الفسطاط ، حتى
انهم الطف من أهل القاهرة ، وبينهما نحو ميلين ؛ والحال
أن أهل الفسطاط في نهاية من اللطافة ، واللين في

الكلام ، وتحت ذلك من الملق وقلة المبالة ورعاية قدر
الصحبة وكثرة الممازجة والالفة ما يطول ذكره .

وأما ما يرد على الفسطاط من متاجر البحر
الاسكندراني والبحر الحجازي فانه فوق ما يوصف ،
وبه مجمع ذلك ، لا بالقاهرة ، ومنها يجهز الى القاهرة
وسائر البلاد . وبالفسطاط مطابخ السكر والصابون
ومعظم ما يجري هذا المجرى ، لأن القاهرة بنيت
للاختصاص بالجند ، كما أن جميع زي الجند بالقاهرة
أعظم منه بالفسطاط ، وكذلك ما ينسج ويصاغ وسائر
ما يعمل من الأشياء الرفيعة السلطانية ؛ والخراب
بالفسطاط كثير

وفي أماكن أخرى ، امتدح ابن سعيد القاهرة مدحا معتدلا ،
فقال (١) :

وأما مدينة القاهرة ، فهي الحالية الباهرة ، التي
تفنن فيها الفاطميون وأبدعوا في بنائها ، واتخذوها
قطبا لخلافتهم ومركزا لأرجائها ، فنسي الفسطاط ،
وزهد فيه بعد الاغتياب . . . هذه المدينة (القاهرة)
اسمها أعظم منها ، وكان ينبغي أن تكون في ترتيبها
ومبانيها على خلاف ما عاينته . . . لكن الهمة السلطانية
ظاهرة على قصور الخلفاء بالقاهرة . . . وكان يجلس

(١) نفح الطيب ٣ : ١٠٨ - ١١٤ ؛ والنص ليس متتابعا
دائما .

فيها خلفاؤهم . ولهم على الخليج الذي بين القسطنطينية والقاهرة مبان عظيمة جليظة الآثار

والمكان المعروف بالقاهرة بين القصرين هو من الترتيب السلطاني ، لأن هناك ساحة متسعة للعسكر والمتفرجين ما بين القصرين ، ولو كانت القاهرة كلها كذلك كانت عظيمة القدر كاملة الهمة السلطانية . ولكن ذلك أمد قليل ، ثم تسير منه إلى أمد ضيق ، وتمر في ممر كدر خرج بين الدكاكين ، إذا ازدحمت فيه الخيل مع الرجالة كان مما تضيق به الصدور ، وتسخن منه العيون . ولقد عاينت يوما وزير الدولة وبين يديه الأمراء ، وهو في موكب جليل . وقد لقي في طريقه عجلة بقر تحمل حجارة ، وقد سدت جميع الطرق بين يدي الدكاكين ، ووقف الوزير وعظم الازدحام ، وكان في موضع الطباخين ، والدخان في وجه الوزير ، وعلى ثيابه . وقد كاد يهلك المشاة ، وكدت أهلك في جملتهم . وأكثر دروب القاهرة ضيقة مظلمة ، كثيرة التراب والأزبال ، والمباني عليها من قصب وطين مرتفعة قد ضيقت مسلك الهواء والضوء بينها ، ولم أر في جميع بلاد المغرب أسوأ منها حالا في ذلك . ولقد كنت إذا مشيت فيها يضيق صدري ، وتذكرني وحشة عظيمة ، حتى أخرج إلى بين القصرين .

ومن عيوب القاهرة أنها في أرض النيل الأعظم

ويموت الانسان فيها عطشا لبعدها عن مجرى النيل ،
لئلا يصادرها ويأكل ديارها ، واذا احتاج الانسان الى
فرجة في نيلها مشى مسافة بعيدة بظاهرها بين المباني
التي خارج السور الى موضع يعرف بالمقس ، وجوها لا
يبرح كدرا مما تثيره الأرض من التراب الأسود

وعندما يقبل المسافر عليها يرى سورا اسود كدرا ،
وجوا مغبرا ، فتنبض نفسه ، ويفر أنسه

واعجبني في ظاهرها بركة الفيل ، لأنها دائرة كالبدر ،
والمناظر فوقها كالنجوم ، وعادة السلطان أن يركب فيها
بالليل ، وتسرج أصحاب المناظر على قدر همتهم
وقدرتهم ، فيكون لها بذلك منظر عجيب

والفسطاط أكثر أرزاقا وأرخص أسعارا من القاهرة ،
لقرب النيل من الفسطاط ، والمراكب التي تصل بالخيرات
تخط هناك ، ويباع ما يصل فيها بالقرب منها . وليس
يتفق ذلك في ساحل القاهرة ، لأنه يبعد عن المدينة .
والقاهرة هي أكثر عمارة واحتراما وحشمة من الفسطاط ،
لأنها أجل مدارس ، وأضخم خانات ، وأعظم ديارا لسكنى
الأمراء فيها ، لأنها المخصوصة بالسلطنة ، لقرب قلعة
الجبل منها ، فأمور السلطنة كلها فيها أيسر وأكثر .

الا أن في هذا الوقت لما اعتنى السلطان ببناء قلعة

الجزيرة (الروضة) التي أمام القسطنطينية وصيرها سرير السلطنة ، عظمت عمارة القسطنطينية ، وانتقل اليها كثير من الأمراء ، وضخمت أسواقها ، وبنى فيها السلطان أمام الجسر الذي للجزيرة قيسارية عظيمة ، فنقل اليها من القاهرة سوق الأجناد التي يباع فيها الفراء والجوخ وما أشبه ذلك .

وفيهما جوار طبابخات أصل تعليمهن من قصور الخلفاء الفاطميين ، ولهن في الطبخ صنائع عجيبة ، ورياسة متقدمة . ومطابخ السكر والمواضع التي يصنع بها الورق المنصوري مخصوصة بالقسطنطينية دون القاهرة ويصنع فيها من الانطاع المستحسنة ما يسفر الى الشام وغيرها ، وفيها صنائع للقسي كثيرون متقدمون . ويسفر من القاهرة الى الشام ما يكون من أنواع الكمرانات وخرايط الجلد والسيور وما أشبه ذلك . وهي الآن عظيمة أهلة ، يجبي اليها من الشرق والغرب والجنوب والشمال ما لا يحيط بجملته وتفسيره الا خالق الكل جل وعلا .

والفقير المجرد فيها يستريح بجهة رخص الخبز وكثرته ، ووجود السماع والفرج في ظواهرها ودواخلها ، وقلة الاعتراض عليه فيما تذهب اليه نفسه ، يحكم فيها كيف شاء من رقص في وسط السوق أو تجريد أو سكر من حشيشة وما أشبه ذلك وسائر الفقراء لا يتعرضون اليهم بالقبض للاسطول الا المغاربة ، فذلك وقف عليهم لمعرفةهم بمعاناة الحرب والبحر

وقد دخلت في الخليج الذي بين القاهرة ومصر
وتعظم عمارته فيما يلي القاهرة ، فرأيت فيه من ذلك
العجائب ، وربما وقع فيه قتل بسبب السكر فيمنع
فيه الشرب ، وذلك في بعض الأحيان . وهو ضيق ،
عليه من الجهتين مناظر كثيرة العمارة بعالم التهكم
والطرب والمخالفة ، حتى أن المحتشمين والرؤساء لا
يجيزون العبور به في مركب . وللسرج في جانبه
بالليل منظر ، وكثيرا ما يتفرج فيه أهل الستر في
الليل .



أدى رد الفعل السني الذي قام به صلاح الدين الى ايجاد
معهد ديني جديد ، وهو المدرسة . وليس هناك من نص
يشعرنا بمدى هذا الاصلاح خيرا من واحد من أقدم النقوش
الايوبية في القاهرة (١) :

بنيت هذه المدرسة باستدعاء الشيخ الفقيه الامام . . .
الزاهد نجم الدين ركن الاسلام ، قدوة الأنام ، مفتي
الفرق ، ابو البركات ابن الموفق الخبوشاني ، ادام الله
توفيقه لفقهاء اصحاب الشافعي رضوان الله عليه ،
الموصوفين بالاصولية الموحدة الاشعرية على الحشوية
وغيرهم من المبتدعة وذلك في شهر رمضان سنة خمس
وسبعين وخمس مائة .

Chronologique d'Epiraphie Arabe, par E. Combe
& J. Sauvaget & G. Wiet. Repertoire Tome Neu-
vième, N° 3339. Le Caire, Imprimerie de L'Insti-
tut Français d'Archeologie Orientale, 1937.

وقد ألصقت بالعقائد الدينية للنظام السابق الفاطمي اقصى
النعوت ، فاعتبرت بدعا ، وكل بدعة في الاسلام ضلالة .
ويظهر النقش اهمية واحد من ائمة المذاهب السنية الأربعة ،
وهو الامام الشافعي الذي لا زال مذهبه شائعا في مصر . ولم
يدخر صلاح الدين جهدا في بناء ضريح للشافعي ؛ وما زلنا
اليوم نعجب بروعة الشاهد الخشبي الذي بناه . ويرى ابن
جبير (١) في ضريح الشافعي أنه « من المشاهد العظيمة احتفالا
واتساعا . وبني بازائه مدرسة لم يعمر بهذه البلاد مثلها ،
لا أوسع مساحة ولا احفل بناء ، يخيل لمن يطوف عليها انها بلد
مستقل بذاته » .

أما الاشعري - آخر شخصية مذكورة في النقش - فهو
العالم العراقي الكبير الذي أسس مذهباً عقائدياً في الاسلام .
وكانت المدرسة احدى وسائل الحركة التي ابتدأها . وقد
استخدم الاشعري المنطق الأرسطي في صياغة العقيدة في
الاسلام ، ولكن يجب أن نتنبه الى أن موقفه - كما هو الحال
بالنسبة لموقف السنة في الاسلام من بعده - يمكن اجمالاً
في هذه الكلمات : « الله ينبه عقل الانسان ليدركه ، ولكن
العقل اداة للادراك فقط لا للحكم على الله » (٢) . واتبع اهل

(١) رحلة ابن جبير : ٢٢ (ط . بيروت) .

(٢) انظر : الملل والنحل للشهرستاني ١ : ١٠١ - ١٠٢
(ط . القاهرة ، ١٩٦١) ؛ وراجع تاريخ الفلسفة في
الاسلام لدي بور : ١١٨ (ترجمة الدكتور محمد عبد
الهادي أبو ريدة) .

النورع الأشعري ، وعجلت أعماله باضمحلال الحياة الفكرية في الاسلام . فان تزمته الديني لا بد وأن يكبل الفكر ، كما فرضت افكاره كتحاليم لا تقبل المناقشة .

لعل قيام المدرسة الدينية كان أمرا ضروريا بالنسبة لمستقبل الاسلام ، في وقت تهددت عقيدته الانقسامات والهرطقة ، وتهددت ممتلكاته هجمات الصليبيين . وقد نتج عنها على أي حال ضعف سريع في نوعية التعليم . وصالح الدين هو الذي ادخل المدرسة الى مصر ؛ ونظرا لسيطرة الدولة على نظام التعليم فيها ، توقفت الانقسامات الدينية والفلسفية ، كما توقف تمجيد تراث القدماء الذي شجع عليه الفاطميون . واستطاعت البرامج الجديدة المستمدة من الفكر السني أن تثبت السنة نهائيا . ولكن رجال هذه المدارس لم يكونوا في ورع رجال صدر الاسلام الذين علموا الدين بدافع من التقوى وشرف العمل . فنحن نجد الآن موظفين يقدمون دروسا مألوفا لتلاميذهم بدورهم حريصون على الحصول على الشهادة حتى يمكنهم أن يعملوا في خدمة الدولة .

ويبدو أن البداية كانت مثيرة — حسب قول ابن جبير ، الذي كان من المتحمسين للمعاهد التي أسسها صلاح الدين (١) — حيث أنه يقول :

(١) رحلة ابن جبير : ١٥ - ١٦ (ط . بيروت) .

... المدارس والمحارس الموضوعة لأهل الطب والتعبء،
يفدون من الأقطار النائية فيلقى كل واحد منهم مسكنا
يأوي اليه ومدرسا يعلمه الفن الذي يريد تعلمه واجراء
يقوم به في جميع أحواله . واتسع اعتناء السلطان
بهؤلاء الغرباء الطارئين حتى أمر بتعيين حمامات
يستحمون فيها متى احتاجوا الى ذلك ، ونصب لهم
مارستانا لعلاج من مرض منهم ، ووكل بهم اطباء
يتفقدون أحوالهم ، وتحت أيديهم خدام يأمرونهم بالنظر
في مصالحهم التي يشيرون بها من علاج وغذاء . وقد
رتب ايضا فيه أقوام يرسم الزيارة للمرضى الذين
يتنزهون عن الوصول للمارستان المذكور من الغرباء
خاصة ، وينهون الى الاطباء احوالهم ليتكفلوا
بمعالجتهم .

ومن أشرف هذه المقاصد ايضا ان السلطان عين لأبناء
السبيل من المغاربة خبزتين لكل انسان في كل يوم بالغا
ما بلغوا ، ونصب لتفريق ذلك كل يوم انسانا امينا من
قبله . فقد انتهى في اليوم الى الفي خبزة او أزيد
بحسب القلة والكثرة .

هذه هي الاوصاف الشيقة التي يوردها اثنان من الرحالة
الاندلسيين وهما ابن جبير وابن سعيد ؛ ويجب ان نضم اليهما
الطبيب العراقي عبد اللطيف ، وهو عالم كبير عاش سنين

طويلة في سورية ومصر ، حيث اتصل بابن ميمون . ولدينا وصفه لمصر ، الذي يظهر فيه معرفة عميقة بالتاريخ الطبيعي . فقد اتاحت له الفرصة في القاهرة أن يفحص بعض الموميات المحنطة ، ويذكر ملاحظاته الشخصية بكل فخر قائلا (١) : « فشاهدنا من شكل العظام ومفاصلها وكيفية اتصالها وتناسبها وأوضاعها ما أفادنا علما لا نستفيد من الكتب . . . والحسن أقوى دليلا من السمع » .

لا ينبغي أن نعلق أهمية كبيرة على العلاقة بين الامبراطور فريديريك الثاني مع علماء الشرق . ولكنها اذا لم تؤد الى تقدم المعرفة ، فانها تقوم دليلا على توفر الرغبة على الاتصال ، واعتراف الغرب بتفوق الشرق . فنحن نعرف أن فريديريك - مدفوعا بولعه بالفلسفة والرياضيات والفلك - كان قد سأل السلطان الملك الكامل ان يجيب على اسئلة شغلت الامبراطور . وقد وصلت الينا عن هذا السبيل اسماء عدد من العلماء ؛ ومما يبعث على العجب ان بعضهم كان من رجال الشريعة ؛ ولكن ليس هناك ذكر الا لعلمهم الوفير . ولعله يمكننا أن نستثني منهم القرافي ، الذي حل بعض مشكلات علم البصريات .

وننوه اخيرا بذكر الطبيب ابن النفيس الذي توفي في

(١) الافادة والاعتبار : ٢٧٣ - ٢٧٥ : (٦٨) (ط . لندن) .

القاهرة واشتهر بفضل دراسات حديثة على عمل لم يكتب له النجاح قام به على دورة التنفس . ولكن أطباء الشرق حينئذ لم تكن لديهم الكفاءة اللازمة التي تمكنهم من الاستفادة منه .

وأخيرا ، فقد حظيت القاهرة بوجود الشاعر ابن الفارض فيها ، الذي أولع بالتغني بالفناء في الله . ولقد كثر الكلام على نظرية الحلول عند ابن الفارض ، ولعلها « أقرب الى أن تكون نوعا من الشعور ، منها الى منهاج في التفكير » . وهو أول شاعر غنائي متصوف ، وقد ابتدع نوعا من الشعر ما لبث أن أصبح مثالا يحتذى . وترجع أصوله الى كتابته شعرا غامضا ، فسر على أنه حب الهي ، بدلا من أن ينظر اليه على أنه غزل رمزي ، وقد زاد ذلك من انتشاره . وعلى أي حال ، فإن شعره يعرض علينا أجمل ما كتب من القصائد الصوفية . ولفته صعبة ، ولعل ذلك راجع الى كثرة تشبيهاته الرمزية ، وجنوحه الى نوع من التأنق في الأسلوب ، والى إساءته استخدام الأساليب الشعرية .

٤ سلاطين الممالك :
الحالة العامة والحياة الاجتماعية

يمكننا ان نتخيل بسهولة مدى الدهشة التي تتملك رحالة
العضور الوسطى من الاوروبيين حين يقفون على قمة جبل
المقطم . فقد ذكروا أنه كان منظرا من أجمل مناظر الدنيا .
وقد زاد من روعته غدد لا يحصى من القباب والمآذن ، التي
أضفت نوعا من التغير الجميل على المدينة التي تتشابه سقوفها
المسطحة .

وقد كتب واحد من هؤلاء الرحالة يقول :

اني لأذكر مرة من المرات العديدة التي جلست فيها
اكثر من ربع ساعة على الصخرة خارج باب الحصن .
فان مشاهدة القاهرة من مرتفع يعتبر من امتع المناظر .
ومصدر الامتاع هو كثرة المآذن البيضاء ، كل منها
يتكون من ثلاثة ادوار او اربعة من الشرفات . وتبدو
هذه المآذن وكأنها مضمرة بالخضرة الجميلة التي تتحلى
بها اشجار النخيل الكثيرة التي تنمو في حدائق المدينة .
وهذا جميعه يخلق جوا من التناسق والتباين الخلاب
يسر الناظرين . ثم أن عظمة النهر الذي يتحول في
فصل الفيضان الى بحيرة لا يحيط بها الطرف ، وعديد

الجزر التي تبعث الحياة والحركة في هذا السهل
الفضي ، وروعة الجبال الشامخة التي تحد هذا المكان
البهيج ، كل هذه تضيء على هذا المنظر جلالاته وتنوعا
لا مثيل لهما .

وكان هناك ما يدعو الى الإعجاب فعلا بهذه العاصمة
الضخمة ، التي انتشرت في شكل نصف قمر من ضريح الامام
الشافعي الى مقابر الخلفاء . وكانت المدينة في العصور
الوسطى تتكون من أربعة مراكز متباينة اشد التباين : القاهرة ،
ونقصد بها المدينة الفاطمية ذاتها ، تحيط ببعض اجزائها
الأسوار التي كانت تختفي يوما بعد يوم وراء المباني المتسلقة
التي كانت تقام عليها ؛ ثم مصر القديمة ، في موقع القسطنطينية
القديمة ؛ ثم بولاق ، وكانت فيما سبق جزيرة ثم تحولت الى
جزء من القاهرة وميناء تجاري لها على النيل ؛ وهناك أخيرا
مدائن القرافة ، شمال القلعة وجنوبها . ويمكننا ان نضيف
الى هذه بعض الضواحي مثل باب اللوق ، وباب زويلة ،
ومسجد ابن طولون .

القاهرة ومصر القديمة كانتا في الواقع شيئاً واحداً ، اذ لم
يكن هناك فاصل بينهما ، سوى بعض مناطق غير مزروعة ولا
مسكونة ومهجورة بصفة عامة . وفي بعض الاماكن ، كانت
المسافة بين منازل القاهرة ومنازل مصر القديمة لا تتجاوز
مرمى القوس ، وفي اماكن أخرى ، زادت المسافة على ضعف

هذا القدر . وبعض المناطق الواقعة بين منطقتي الاسكان الكبيرتين ، كانت تغطيها البساتين الفسيحة الغنية ومزارع الخضر وحدائق اللهو . وبينما كان يريدنباخ في طريقه من المطرية الى القاهرة في سنة ١٤٨٣ م ، رأى عن يمينه عددا من الحدائق الجميلة جدا ، المزروعة بأشجار الفواكه ، قامت بينها قصور اشبه بالحصون . وامتدت الحدائق والبيوت في خط متصل حتى القاهرة . وحين دخل المدينة بير بيلون عن طريق بولاق ، لاحظ عددا كبيرا من الاشجار لمسافة نصف فرسخ .

وكانت القاهرة قد بدأت في النمو منذ نهاية عهد الفاطميين . وما من شك انه منذ البداية بنيت منازل جديدة ، نظرا لأن المدينة كانت مزدحمة بسكانها الى درجة الاكتظاظ ، وبدأت فعلا تنفجر وراء أسوارها ، حتى أن الأبواب التي لا تزال قائمة ، وخاصة باب زويلة ، صارت داخل المدينة منذ زمن بعيد، تماما كما حدث في باريس حيث تعيّن أقواس النصر فيها موقعي بابي سان دنيس وسان مارتان . وتتحدث النصوص العربية التي ترجع الى القرن الخامس عشر عن ضاحية باب زويلة باعتبارها جزءا من القاهرة . وهذا أيضا شبيه بما حدث في باريس فيما يتعلق بـ « ضاحيتها » بوانسونيير وسان دنيس .

وبعد ذلك جدت ظاهرة مختلفة حين اتصلت المدينة بالقلعة ،

حتى لم تعد القلعة في نهاية الأمر مغزولة ، وخاصة في نهاية القرن الرابع عشر ، حين وصلت مبان كثيرة بينها وبين المدينة .

وقد أصاب مارسيل كليرجيه حين كتب :

كان لإنشاء القلعة رد فعل قوي جدا على المناطق المجاورة لها . فهذه الضواحي ، بعد أن زحفت على الجبانات ، انتشرت حتى وصلت الى أسفل القلعة . فنقل الى الرميطة سوق من أهم الأسواق في أي مدينة عربية ، وهي السوق التي تباع فيها الخيل والحمير والجمال . وفي الموقع الذي كانت تحتله من قبل وحدات الجيش الفاطمي ، بنيت حدائق وبحيرات فسيحة ، فأصبح هذا الحي أكثر جمالا ، وتمتع به سكان القلعة . وظهرت في الغرب في ذلك الوقت حدائق أخرى ، وخاصة عند باب اللوق ، بحيث أصبحت هذه المناطق أشبه بالمنتزه العام ، وقد بقيت أجزاء منه حتى عصر المماليك .

وقد استمر هذا الاتساع جنوبا وشمالا وراء باب النصر وباب الفتوح ، كما قامت مبان كثيرة في حي الحسينية . وعلى هذا النحو ذاته ، بنيت بيوت كثيرة على طول بركة الفيل وعلى جانبي الخليج ، وأقيمت على هذا الخليج جسور ذات قوس أو قوسين وممر ضيق وأسوار عالية . وحين كان الخليج

يمتلئ بالماء ، فلا بد أن ضفافه — بما يحيط بها من مبان ذات
نوافذ محلاة بالمشربيات — كانت تشكل منظرا شيقا للغاية .



هذه المجموعة من المدن المختلفة، وهي التي كونت مجتمعة ما
أطلق عليه رحالة العصور الوسطى من الاوروبيين اسم القاهرة
الكبرى ، أفادت من الناحية الاقتصادية فائدة كبرى ، بحكم
موقعها عند التقاء الطرق التجارية ، اذ استخدم الطريق بين
الشرق والغرب لنقل التجارة بين افريقية وآسية ، وفي حج
المسلمين الافريقيين الى مكة . اما الطريق الآخر ، فقد جلب
الى القاهرة مقدارا كبيرا من البضائع الغالية التي وصلت الى
منصر برا من وسط افريقية والحبشة . وعن طريق البحر ،
جاء أيضا الى القاهرة من الهند والصين سبل من السلع
الثمينة ، التي اتخذت طريقها في النيل الى الاسكندرية ،
وهناك جاء الاوروبيون لشراؤها .

وهكذا أصبحت القاهرة مركزا تجاريا عظيما ، تجلب بضائع
الشرق الأقصى وترسلها في شتى طرق الملاحة في البحر
الابيض المتوسط . هذا هو العصر الذهبي لتجار التوابل .
ويظهر لنا هذه النقطة قول بيلوتي :

ان من له السيادة في القاهرة يمكنه أن يسمي نفسه
أيضا رب العالم المسيحي وسيده ، ورب جميع الجزر
والبلاد التي تنتج التوابل . هذا هو السبب في انه

لا يمكن ارسال منتجات التوابل الى أي مكان او بيعها في أي بلد سوى في بلاد السلطان . لأن القاهرة تقع بين بحرين : فهناك ، أولا ، البحر الغربي الذي تقع عليه الاسكندرية ودمياط ويافا وبيروت وسورية ، وهناك بعد ذلك البحر الذي يقع في الناحية الأخرى من البلاد ، والذي تقع عليه جدة ، ميناء مكة . من هذا البحر تسافر البضائع من مكان الى مكان على طول الساحل وتصل آخر الأمر الى الطور ، حيث يوجد ميناء جبل سيناء ، والجمال التي تتحرك من مكة تأتي الى هذا الساحل وتفرغ حمولتها في هذا الميناء . ويسيطر سلطان القاهرة على هذا الساحل من مكة الى ميناء جبل سيناء . وهكذا ، تقع بلاد السلطان بين بحرين مثل جزيرة ، فتتحكم في الهند والغرب معا . وليس هناك طريق آخر تسير فيه السفن الآتية من بلاد الهند ، ولا يستطيع تجارهم ان يبيعوا الا في بلاد سلطان القاهرة . وهذا القول يصدق أيضا على المسيحيين في الغرب . وانت تعرف ، لهذا السبب ، أنه ينبغي ان تكون دائما على علاقات جيدة مع السلطان ، اذا أردنا أن نبيع ونشتري في بلاده ، او اذا أردنا أن نذهب الى بيت المقدس للحج .

كانت الملاحة في النيل في العصور الوسطى هامة وسريعة على نحو غير عادي . وتدل على ذلك هذه الفقرة التي يغلب عليها الطابع الشعاري :

لا تنس المراكب بأشرعتها المرسله عالية في الهواء
كالرايات ، وهي تسير أسرع من خيرة السهام حين تهب
رياح مواتية . وهي زاهية كالحية الرقطاء ، او كالغواكه
ذات الألوان المختلفة ، او كالطاووس ، او مثل بعض
مقابر القدماء المنحوتة في جوف الأرض . ان هذه
السفن ، يدفعها تيار الماء المتدفق ، لتذكرنا بسفينة
نوح في سيرها قدما . وحين تنشر أجنحتها من
الأشرعة ، تطير أسرع من الريح في اندفاعها او السحابة
في سرعة تكوينها : انها تسبح في الماء مع السمك .

كانت القاهرة تتلقى امداداتها من التموين أساسا ، من
طريق الملاحة النيلية التي كانت دائما نشطة . وقد رأى ابن
سعيد (١) في النيل عددا كبيرا من السفن جالبة من بحر
الاسكندرية وبحر الحجاز بضائع آتية من جميع أرجاء العالم .
وبعده بمائة سنة ، كان منظر السفن لا يزال يثير حماس ابن
بطوطة (٢) ، حيث يقول :

وان بنيها من المراكب ستة وثلاثين الفا للسلطان
والرعية ، تمر صاعدة الى الصعيد ومنحدرة الى
الاسكندرية ودمياط بأنواع الخيرات والمرافق . . . ولا
يفتقر راكب النيل الى استصحاب الزاد لأنه مهما أراد

(١) راجع رحلة ابن سعيد في الخطط ١ : ٣٦٧ .

(٢) رحلة ابن بطوطة : ٣٦ - ٣٧ (ط . بيروت) .

النزول بالشاطئ. نزل للوضوء والصلاة وشراء الزاد وغير ذلك .

وبعد ذلك بقليل ، كتب فريسكوبالدي يقول :

يسير النيل على طول جانب واحد من المدينة ، ولها ميناء جيد . وحينما كنا هناك ، رأينا عددا كبيرا من القوارب ، بحيث ان كل ما رأيته في موانئ جنسوة والبندقية واتكونا مجتمعة - دون أن احصي السفن ذات الطابقين - لا تبلغ ثلث عدد القوارب التي كانت هناك ، وتبلغ في مجموعها أربعمئة قارب أو تزيد .

ووصف لنا بيريلون ما شاهده بهذه العبارة :

ترسو القوارب والسفن بأنواعها المختلفة عند قرية بولاق لتفريغ ما تجلبه الى القاهرة . وقد شاهدنا سفنا في النيل تسمى جروما ، وهي على ثلاثة أو أربعة أنواع مختلفة ، بعضها منخفض منبسط عريض ومستدير الشكل تقريبا ، وأكبرها شبيهة بالقوارب في نهر السين ، إلا انها أقصر بكثير ، وهي تنقل حمولات أكثر من غيرها ، ولها شراع مثلث الشكل . والنوع الأصغر منها ، وهو تلك السفن ذات الشراع المربع ، لا ترحل بعيدا عن بولاق ؛ فهي تستخدم فقط لعبور النيل ، أو لنقل المؤن من القاهرة الى القرى ، أو لنقل

الدواب من ضفة الى أخرى . ولهذه الفلك التي تبجر
بعيدا الى دمياط والاسكندرية شراع مثلث ويمكنها
أن تدخل البحر الهادئ في طقس معتدل .

* * *

وكتب ابن خلدون (١) :

من لم ير القاهرة لا يعرف عز الاسلام . فهي حاضرة
الدنيا ، وبستان العالم ، ومحشر الأمم ، ومدرج الدر
من البشر ، وايقان الاسلام ، وكرسي الملك ، تلجج
القصور والأواوين في وجوهه، وتزهر الخوانك والمدارس
بآفاقه ، وتضيء البدور والكواكب من علمائه ، قد
مثل بشاطئ بحر النيل الجنة ، وموقع مياه السماء
يسقيهم النهل والعلل سيحه ، ويحبي اليهم الثمرات
والخيرات ثجه ، ومررت في سلك المدينة تغطي بزحام
المارة ، وأسواقهم تزخر بالنعم . وما زلنا نحدث عن
هذا البلد ، وبعد مداه في العمران واتساع الأحوال ،
ولقد اختلفت عبارات من لقينا من شيوخنا وأصحابنا ،
حاجتهم وتاجرهم ، بالحديث عنه . . . فقال (أحدهم) . . .
ان الذي يتخيله الانسان ، فانما يراه دون الصورة التي
تخيلها ، لاتساع الخيال عن كل محسوس ، الا القاهرة ،
فانها أوسع من كل ما يتخيل فيها .

(١) التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا لابن خلدون :
٢٦٤ (ط . لبنان) .

تعتبر هذه الفقرة الشعرية مقدمة مناسبة لوصف العاصمة المصرية في زمن المماليك . ولكن يجب علينا ان نلاحظ أنه ليست جميع المعلومات الواردة في هذه الفقرة دقيقة ، حتى يظن مؤرخنا أنه مضطر الى اضافة هذه العبارة (١) : « ان العلم والتعليم انما هو بالقاهرة ، لما أن عمراتها مستبحر وحضارتها مستحكمة منذ آلاف من السنين » . ولكن القاهرة التي لم تكن في اي وقت مضى مركزا علميا في مستوى بغداد أو قرطبة ، كانت في القرنين الرابع عشر والخامس عشر مركزا للسياسة والادارة وبصفة خاصة للتجارة العالمية ؛ ورغم أنها احتفظت بذوقها الفني الرفيع ، فانها في مجال الانتاج الفكري كانت من الطبقة الثانية . وما من شك ان مدارس القاهرة استمرت تخرج مدرسين اكفاء ، ولعل هذا هو ما يقصده ابن خلدون حين يقول (٢) : « وانتقل شأن العلم الى مصر والقاهرة ، فلم تزل أسواقه بها نافقة لهذا العهد » . وما من شك انه وجدت شخصيات كانت لها شهرتها المحلية وادباء كانوا موضع حديث الناس ، كما وجد في المدارس والمساجد بطبيعة الحال مدرسون لتدريس الكتب السماوية ، وحتى التاريخ . وقد قام هؤلاء بتعليم تلاميذ يطمحون في أن يخلفوا أساتذتهم .

(١) مقدمة ابن خلدون : ٧٧٨ وانظر ايضا : ٦٤٤ (ط . بيروت ، ١٩٦١) .

(٢) المصدر نفسه : ٧٥٠ .

ولا ينبغي أن ننخدع بتكاثر المدارس الدينية والمساجد في ظل حكم سلاطين المماليك ، فليس لذلك علاقة بنوع المدرسين ، إذ لم يتخلف لنا عنها اسم واحد عظيم . لم تخرج هذه المعاهد العلمية الكثيرة شخصية عظيمة أو كاتباً موهوباً ، فهي لم تزد على كونها مدارس لتدريب المدرسين . وباستثناء « المقدمة » لابن خلدون ، ذلك العالم الفذ الذي تلقى تعليمه في المغرب ، لم يظهر في القاهرة أي عمل أصيل . وقد تميز هذا القرن بكتاب الموسوعات والسير ، التي كثيراً ما كانت قليلة القيمة ، وواضعي المجاميع ؛ فلم تعرف فيه أعمال تتميز بالأصالة . كان هؤلاء الرجال يستحقون في حياتهم عبارات المديح ، وسيراً موجزة مليئة بالنعوت الرنانة ، ولكن أسماءهم تسقط سريعاً في طيات النسيان . وذكّرنا هذا بقول بلزك : « ان مجد الجراحين شبيه بمجد الممثلين ، الذين يعيشون فقط أثناء حياتهم ، ولا تقدر مواهبهم بعد أن يختفوا » . ويصف المقرئ في القرن الخامس عشر معلماً ناشئاً بأنه كان يشبه الإنسان فقط في خلقه ولا يتميز عن الحيوان إلا بقدرته على الكلام ؛ ثم توقف التعليم في هذه المدرسة التي كان يعلم فيها تدريجاً . ولم ينضب معين العبقرية الخلاقة للكتاب العرب على هذا النحو فجأة . فنجد في القرن الحادي عشر مؤلفاً يفتخر بأنه في وضعه لكتابه يتميز بموهبة حسن الاختيار ، فان فن الاختيار من ذكاء المرء . وبعد ذلك بقرنين ، عمت هذه الفكرة . ويقول في هذا كاتب آخر : « ان التأليف اليوم لم يعد أن يكون جمعاً لما تفرق وضماً لما تشتت » . هذه مجرد ملاحظات

وليس محاولة للنيل من مكانة القاهرة ، لآتي ممن يعتقدون
مع وليام مارسية بـ « أن الأدب ليس كل الحضارة » . فان
المباني والأعمال الفنية كافية بأن تجلد مجد السلاطين
الماليك .

وهكذا نجد أنه في خضم هذه الحركة الكبرى في مصر
عامة والقاهرة خاصة ، كان دور السلع أكثر أهمية من دور
الأفكار . فوجدت طبقة بورجوازية من التجار الذين نعموا
بملذات الطعام وبقدر من الراحة . وبهذا المعنى ، استطاع
أهل القاهرة أن يحققوا مستوى مرتفعاً من المعيشة . فأصبحت
عاصمتهم سوقاً ذات أهمية دولية . وكان لتجارهم العالمية
تأثير كبير على نمو المدينة .

* * *

يقسم المقرئزي (١) المؤرخ سكان مصر الى سبع فئات ،
وبالرغم من أنه تقسيم اصطناعي ، فهو لا يخلو من قيمة .
وتشتمل هذه الفئات على : رجال الدولة وجندها ؛ وأثرياء
التجار ممن سعد حظهم ؛ والباعة مثل تجار الاقمشة وأصحاب
المطابخ والخوانيت في الاسواق ، الذين يمكن أن يطلق عليهم
اسم صغار الطبقة المتوسطة ؛ وأهل الفلاحة والزرع — وبعبارة
أخرى أهل القرى والريف ؛ ورجال الدين والعلمين وطلاب
العلم — وفيهم القضاة ، وكتاب الملكة ورجال العسس ؛ ثم
أصحاب الحرف والصناعات والعمال والحمالين والسياس

(١) الخطط ٢ : ٤٩٢ .

والنساجين والبنايين وغيرهم من فئات العمال المختلفين ؛
ثم فقراء الشحاذين والبؤساء ، وكما يستدل مما لدينا من
معلومات ، لم تكن هذه الفئات طبقات مغلقة لا مخرج لأفرادها
منها . وكان الاستثناء الوحيد من هذه القاعدة هم الممالك ،
الذين كونوا طبقة ممتازة فوق جميع السكان المختلطين اشد
الاختلاط بحيث لم يكن بين افرادهم رابطة عامة تجمعهم ليدافعوا
عنها . ولم تعرف مصر البناء الطبقي للمجتمع ، فقد اشتملت
الاسرة الواحدة على التجار ورجال الحرف والعلمين . ونحن
نعرف ان التجارة والاشتغال بالتعليم الديني كانتا صناعتين
متداخلتين ولم تتعارضا ابدا اجتماعيا . وهكذا لم يلتزم الناس
بالبقاء في طبقتهم الاجتماعية . ولعبت حالات الافلاس المالي
دورها في انتقال الافراد من طبقة الى اخرى ؛ وهناك حالات
السجن ومصادرة الاموال ايضا ، وكانت حالات الاتراء اقل
حدوثا ، ولكنها كانت موجودة . ولنضرب على ذلك مثلا حالة
احد ابناء الفلاحين من الدلتا ، الذي كان يجلس فوق خماره
في الاسواق يبيع القماش الخام وغيره من المنسوجات ؛ كان
مجرد بائع متجول . وبعد موته ، بلغت تركته عشرين الف
دينار نقدا ، دون حساب عدد كبير من الدواب .

واحتفظ الممالك بروح عسكرية لا تعرف الترجمة نظريا
لخمول اصلهم وبسبب تربيته وتعليمهم . وبالرغم من عدم
تحيزهم ، فان طبيعتهم العسكرية جعلتهم يؤثرون الحرب على
السلام . ويفضح تاريخ قواد الممالك اطماعهم ، فقد اعتادوا

حياة الخطر وسيطر عليهم الخوف من المستقبل . فأعمالهم التي تشف عن غرورهم وتبذلهم يمكن تفسيرها على أن الدافع الوحيد لها هو الأنانية . وقد قال المقريري (١) : « نزل بالناس من (الممالك) البحرية بلاء لا يوصف ما بين قتل ونهب وسبي بحيث لو ملك الفرنج بلاد مصر ما زادوا في الفساد على ما فعله البحرية » . وكما هو الحال بالنسبة للجنود المحترفين في كل عصر وفي كل دولة ، كان الممالك مغامرين ؛ ونقص بذلك أنهم لم يكن لديهم جنوح نحو المغامرة والخطر فحسب ، بل غلب عليهم التماذي في تهورهم . وأنه لمن المؤسف أن خلافاتهم الداخلية لم تسفر إلا عن جهد ضائع .

وهم رجال جلبوا الى مصر كآراء ابتيعوا بالمال مثل سائر السلع ثم حررهم سادة كانوا أنفسهم عبيدا من قبل ، واتخذوا لهم شخصية قائمة بذاتها ، تحت اسم جديد ، وحاولوا أن يضيفوا شيئا الى صرح الحضارة الاسلامية . فأقام الممالك في البلاد ادارة سالحة رغم تعقيدها ، وكونوا جيشا أفسدت عناصره الحياة السياسية في الداخل ، كما حدث على أيدي العصابات الكبرى أثناء حرب المائة عام ، ولكنه جيش تميز بشجاعة لا شك فيها ، وكثيرا ما انتصر في الحروب . فكانت تسيطر على مصر حكومة اقلية من الأطفال المفقودين ، الذين شغلهم امتيازاتهم وأشبعت نفوسهم بفكرة ارتفاع قدرهم ،

(١) الخطط ٢ : ٢٣٧ .

كما هو واضح من أزيائهم الباهرة . وكانوا يكوّنون مجتمعا مقفلا تماما ، لا يقوم حق السيادة فيه على امتيازات المولدة أو الثقافة أو الثراء ، لأن أي شخص لم ينشأ في الرق لا يحق له أن يصبح سلطانا . في هذا المجتمع الغريب كان باستطاعة المملوك بعد تحريره أن يصل إلى أرقى مناصب الدولة ، بينما الإنسان الحر في البلاد مقيد في تبعية الأرض . وينطبق قول شاتوبريان « مملكة بلا شعب » على عهد المماليك أكثر من انطباقه على فرنسا القديمة . كانت الدولة ملكا خاصا للسلطين ، يديرونها بقوة لا تكل ، مثل ضيعة خاصة ، ولم يتحاولوا أن يخففوا من غلوائهم بفيض من الشعارات المزيفة عن الحرية . ومع ذلك ، فقد كانت شجاعتهم بقدر كبريائهم ؛ وخير دليل على ذلك ، هو دراسة نضالهم ضد الصليبيين والمغول .

وفي ظل الحكم الحديدي للمماليك ، أولئك الذين كثر بينهم القواد والسلطين ووجدوا التأييد من رجال القضاء وادارتهم التقليدية القوية ، تحكمت مصر الإسلامية في البحر الأبيض المتوسط . وقد تم ذلك بفضل مساعدة الأساطيل الأوروبية ، وخاصة في جنوة ، التي كانت تحريضة على حماية رصائنها التجاري . ونمت مدينة القاهرة نموا كبيرا ، وظهرت المباني الرائعة في شوارع المدينة القديمة وفي الضواحي . ورغم أنه لا يمكننا أن نغض الطرف عن النضال الذموي الذي دارت رحاه في القاهرة تحت حكمهم ، إلا أنه يجب أن نقرر أنه كانت

للمماليك افكار عظيمة عملوا على تنفيذها . ومهما يكن من امر ، فان عصر النهضة الايطالية في كثير من النواحي لم يكن اقل الما . فمثل معاصريهم في جنوب أوروبا ، الذين شغلوا بمنازعات لا نهاية لها ، خلف المماليك وراءهم شواهد ملموسة من الفخامة ، كالقصور والمساجد والأضرحة الضخمة . ويكفي ان نذكر هنا عبارات جوينو المشهورة :

في مدينة القاهرة ، تسيطر ذكرى المماليك . لقد قاموا بكثير من الاعمال ، وشيدوا كثيرا من المباني الجميلة القوية . لقد استطاعوا وحدهم ان ينحتوا من الرخام والحجر تلك الكمية من محفورات الارابيسك التي تضفي روعة على مباني آسية بأسرها . ويبدو ان هؤلاء الارقاء السابقين - المماليك - بمجرد ما حملوا سيوفهم العريضة في جنبهم وقبضوا على ناصية الحكم ، شغلت عقولهم افكار عريضة كبرى ؛ فكل ما شيدوه لا نجد له مثيلا في أعمال المسلمين في سائر العالم .

لقد خيمت الكآبة على القرن الخامس عشر بصفة خاصة بسبب الانقسامات العنيفة التي أدت الى كثرة الاشتباكات بين فرق المماليك بصورة متزايدة . ولم يكتف المماليك بافناء بعضهم بعضا ، بل دمروا الأسواق حين لم تغلق الحوانيت في الميعاد . فبالنسبة لاهالي القاهرة المسلمين ، كان حكم

الممالك كابوسا مقيما ؛ فهم يمثلون سلطة تبطش ولا تحمي ..
ولم يفكر أصحاب الحرف والخوانيت في ايجاد تنظيم لهم
يحررهم من هذا النير . وفي حالة وقوع الخطر ، اكتفوا بأن
أخفوا بضائعهم الثمينة في أماكن آمنة .

كانت الحياة في القاهرة قلقة بسبب سوء سلوك الطبقة
العسكرية ، وهو أمر كان مألوفا أيضا منذ عصر الفاطميين .
ومع ذلك ، فلم تحدث في العاصمة أية ثورات شعبية .

وإذا كان في استطاعتنا أن نستخلص بعض النتائج مما
سبق ، فيمكننا أن نقول ان سكان القاهرة كانوا قوما هادئين
فرض عليهم الا يشغلوا انفسهم بشؤون الحياة العامة . وفي
الواقع ، ان هذا الجمهور الذي اعوزته الوحدة بقدر ما اعوزته
التصميم ، بسبب تكوينه المختلط الى اقصى حد ، لم يبد
رغبة في الاشتغال بالشؤون العامة . وكما كان الحال في
أماكن أخرى ، وجد الجنود وموظفو الحكومة ورجال الدين
والتجار ورجال الحرف . وكان رجال الجيش ، مثل الحكام ،
من أصل أجنبي . وكانوا يقومون بتنفيذ أوامر الحاكم الذي
يدفع لهم رواتبهم ، كما كانوا يستغلون او يسيئون استغلال
السلطة الممنوحة لهم . ولم يكن السلطان وجيشه السلطة
الوحيدة في البلاد ، فقد كان عليهم ارضاء جيش آخر ، هو
جيش الاداريين وجامعي الضرائب ، الذين يمسون في أيديهم
بخيوط الخزانة . وعلى أي حال ، فان هذه الفئة الأخيرة لم

تسقط حكما او تعزل سلطانا قط بسبب عدم رضائها او عدم
تعاونها . ونظرا لعدم استطاعة السلاطين أن يستغنوا عنهم ،
فقد نظروا الى مصر بمكر وذكاء على أنها ملكيتهم الشخصية
ويجب ادارتها بواسطة الكتبة الاداريين .

٥ الشوارع والمنازل

أورد لنا أحد الرحالة موجزا بالعيوب التي لا يمكن اغفالها
إذا اردنا ان نقدم وصفا للقاهرة في العصور الوسطى ، قال :

ليس للمنازل شكل الاناقة الخارجية الذي تتميز به
منازلنا او مظهرها ؛ والشوارع ضيقة وغير مرصوفة
ومتعرجة ؛ وهناك ساحات هائلة غير منتظمة الشكل ،
خالية من مبان تزينها او تماشل يميز وسطها او يجمله ،
تتحول اجزاء كبرى منها الى برك من الماء اثناء الفيضان ،
ثم تعود حقولا وحدائق حين تنحسر مياه النهر . وفي
الشوارع يتدافع جمهور من جنسيات مختلفة ويتزاحم ،
ويختصم افراده حول حق المرور مع حصان المملوك ،
ودابة القاضي ، والجمال التي تستخدم بدل العربات ،
والحمير ، وهي الركوبة الاكثر شيوعا .

واذا ما سرنا وراء باب الفتوح نصل الآن الى شارع بقى
كما كان في العصور الوسطى . وهو يمتد شمالا وجنوبا
لمسافة اربعة كيلومترات ونصف تقريبا ، من هذا الباب
الجنوبي الى ضريح السيدة نفيسة . هذا الشريان الطويل ،
او العمود الفقري للقاهرة ، هو مظهر وحدة المدينة . وقد

احتفظ بمظهره القديم ، على الأقل في جزئه الشمالي . وتمتد على جانبيه بوابات غريبة ، وحوانيت ذات أبعاد صغيرة بحيث انها تبدو كخزائن قد ازيحت واجهتها لتكشف عن مضمونها . وامام كل حانوت مصطبة من الحجر او درجة صغيرة بطول مدخل الحانوت ، وعرضها يكفي ليجلس عليها رجل . وبعد ان يفتح التاجر الحانوت ، يضع على المقعد حصيرا او سجادة او وسادة ، ثم يجلس ؛ وحين يأتي اليه مشتر يجلسه الى جانبه . وفي المساء ، عندما يعود أصحاب الحوانيت الى بيوتهم ، ترى المكان مهجورا .

والشارع من حيث نظامه يسوده الاضطراب ؛ فالبيوت تبدو وكأنها اقيمت بغير خطة او ادنى محاولة لصفها بانتظام . ونظرا لأن المالك أخذ من الأرض ما أراد ليبني عليه ، فعلى المارة اليوم ان يدوروا في سيرهم حول البيوت . ولم يترك حيز فارغ ؛ فالحوانيت والبيوت قد بنيت متلاصقة على نحو أضر بنظام الشارع ، كما هو الحال في القرى المصرية حيث تحشر البيوت سويا حتى لا تأخذ سوى أقل قدر ممكن من الأرض التي يمكن زراعتها . وبالرغم من ان الشارع مستقيم في اتجاهه العام ، الا انه ينحني بطريقة لا تكاد تلاحظ . ونتيجة لهذا فان امتداد الطريق يبدو وكأنه مسدود . ونظرا لكثرة المساجد في هذا الطريق الهام ، فهناك دائما مأذنة على مرمى البصر .

ولقد قيل ان أحد حكام المغرب أنب أهل بلده حين وجد

شارعا بلا مسجد . ومثل هذه الشكوى لا يمكن سماعها في القاهرة ، حيث تزدحم الشوارع بالمساجد . فعلى طول الشوارع المختلفة ، تجد المساجد الواحد بعد الآخر - مسجدين او ثلاثة او اربعة في صف واحد ، يستند بعضها الى بعض . وتصعد الى السماء في كل مكان مآذن تزينها محفورات الارابيسك ، وقد نحتت بدقة بالغة بتصميمات متخيلة متنوعة ، بعضها بعيد عنك ، وبعضها الآخر قريب يشير الى السماء فوق رأسك . وحيثما تنظر على مدى البصر تجدها ، وتحس دائما كأن المأذنة التي مررت بها لا زالت تراقبك لبعض الوقت . هذا هو الشعور الذي أدهش سنيور دانجلور في عام ١٣٩٥ :

يوجد في هذه المدينة - كما قد أخبرنا بحق - اثنا عشر الف مسجد ، يؤدون فيها صلواتهم ويرتلونها . وهم يصونونها ويحفظونها نظيفة ، ويضيئونها بمصابيح زاهية جميلة ، ومع ذلك فانت لا تجد في هذه الاماكن للعبادة اي صور او تماثيل ، واللون الوحيد الذي يغطيها هو اللون الابيض ؛ وقد بنيت جميعا بناء متينا بالرخام . وهناك بعض المساجد الكبيرة الجميلة التي تبدو شبيهة بالكنائس المسيحية الجميلة .

وقال احد الرحالة الاوروبيين ، انه لو جمعت مساجد

القاهرة في مكان واحد ، لكونت مدينة في حجم مدينة
اورليان .

وكتب ابن بطوطة (١) - وهو أدق ملاحظة من ابن خلدون -
ما يأتي :

ثم وصلت الى مدينة مصر ، وهي ام البلاد ، وقرارة
فرعون ذي الاوتاد ، ذات الاقاليم العريضة ، والبلاد
الارضية ، المتناحية في كثرة العمارة ، المتباهية بالحسن
والنضارة ، مجمع الوارد والصادر ، ومحط رحيل
الضعيف والقادر ، وبها ما شئت من عالم وجاهل ،
وجاد وهازل ، وحليم وسفيه ، ووضع ونبيه ، وشريف
ومشروف ، ومنكر ومعروف ، تموج موج البحر
بسكانها ، وتكاد تضيق بهم على سعة مكانها وامكانها .

وقد وجد الاوروبيون ، الذين حيرتهم ايضا شدة ازدحام
السكان ، انه من المستحيل الحصول على تفاصيل دقيقة .
فكتب سيمون سيميونس في سنة ١٣٢٢ م : « في اعتقادي
- طالما ليس هناك تقدير اصح - ان القاهرة تبلغ ضعف حجم
باريس ، واربعة اضعاف عدد سكانها ؛ وحتى اذا اقترحت
عددا اكبر ، فهو اقل من الحقيقة » .

(١) رحلة ابن بطوطة : ٣٦ .

وعندما اقترب القرن الرابع عشر من نهايته ، قال جوتشي
دي ديتو في غير مبالغة :

بابليون هي المدينة القديمة ، والقاهرة هي المدينة
الجديدة التي اسست وبنيت فيما بعد . وفي كلا
المدينتين عدد السكان بلا حصر ، الى درجة انه من
المعتقد انه يمكنهم تجنيد جيش من ستمائة او ثمانمائة
الف رجل . ان عددهم لا يقل عن ثلاثة ملايين شخص ،
ويقال ان منهم ما يزيد على سبعمائة الف رجل وامراة
وطفل فقراء لدرجة انهم لا ينامون ليلتين متتاليتين في
مكان واحد . انهم يستلقون فقط على الارض او على
المقاعد العامة حيث يكونون .

وفي رأي سيمون سيجولي :

يبلغ طول مدينة القاهرة اكثر من اثني عشر ميلا ،
ومحيطها ثلاثين ميلا . وتحتوي على اكثر من ثلاثمائة
الف من السكان ، منهم ما يزيد على خمسين الفا بلا
مسكن او سقف يحميه . وهناك - فوق ذلك - اكثر
من عشرة آلاف رجل بلا ثياب تستر أجسامهم ، سوى
أسمال يسترون بها عوراتهم .

وقد اعتقد فريسكوبالدي ان عدد سكان القاهرة يفوق عدد
سكان تسكانية بأسرها ، وأن احد شوارع المدينة ضم من

السكان اكثر من أهل فلورنسة . ويقال انه في الربع الاول من القرن الخامس عشر ، بلغ طول القاهرة خمسة عشر ميلا وعرضها خمسة اميال ؛ كما كانت مزدحمة بالسكان الى درجة ان ثلاثة او اربعة أشخاص لا يمكنهم ان يسيروا في شارع دون ان يصطدموا ببعض .

كانت تلك هي الحال حتى في الشوارع الرئيسية . ولم يكن احد يذهب اليها بقصد النزهة ، وانما يذهب اليها الناس مضطرين لقضاء حاجاتهم او لمساعدة غيرهم . لا يستطيع احد ان يسير دون ان يتدافعه ذلك الجمهور المزدحم الصاخب . لقد كان هذا التدافع بين المارة وراكب الخيل ، وهذا الفيض البشري هو السبب في نشوء الفكرة ان المدينة مزدحمة .

ولكن ماذا كان حال الشوارع الضيقة ؟ لقد اشتكى منها الكتاب العرب انفسهم ، ويشس الرحالة من المتاهة المحيرة التي تكوّنوها ، ومن الشبكة المعقدة التي تشكلها الممرات الضيقة المتربة . وكان اكثر الازقة قصيرا وصغيرا جدا واضيق من ازقة البندقية . وفي بعض الاحيان ، بلغ طول هذه الشوارع مسافة بيتين او اكثر قليلا بحيث ان المدينة كلها كانت مجرد خليط من البيوت . وفي أماكن معينة ، كانت هذه الازقة تمر تحت البيوت . وذكّرنا بهذه الحقيقة شارع لا زال يحمل الى اليوم اسم شارع تحت الربع . هذه الممرات خلال المباني ،

التي لم يكن يعرفها سوى اولئك الذين كانوا على علم تام
بالمدينة، تذكرنا لولا اختلاف الارتفاع بـ «ترابول» traboules
في مدينة ليون . وبالإضافة الى ذلك ، فكان هناك بعد كل
عشرين او ثلاثين بيتا بوابة لاجل هذه المنطقة . ولم يكن
الهدف من هذه البوابات هو الدفاع في زمن الحرب ، وانما
الغرض منها هو منع اللصوص من دخول البيوت اثناء الليل ،
او عرقلة سبيل خروج اللص الماهر الذي يتمكن من الدخول .
وفي بعض الأحيان ، كانت البوابة تغلق في منتصف النهار ،
وكان الانسان يضطر الى أن يعود أدراجه ويدور في المنحنيات
حتى يصل الى غايته . وقد ساعدت هذه الشوارع الصغيرة
المسدودة من هنا وهناك على تيسير مهمة رجال الشرطة ،
الذين خفض عددهم الى اقل قدر ممكن .

وكانت الأزقة من الضيق بحيث انه يصعب على رجلين ان
يسيرا جنبا الى جنب ؛ وكان الجمل بحمولته كفيلا بعرقلة
الحركة اكثر مما تفعل عربة في بعض شوارع باريس . وما من
شك ان جملا عليه حمل ينوء به من قصب السكر كان يرغب
اكثر المارة كبرياء ان يلصق جسمه بالحائط . ويذكر الرحالة
الاوروبيون ان الشوارع كانت عادة مظلمة ، بسبب ان البيوت
في بعض الاماكن كانت قريبة من بعضها البعض لدرجة ان
جواف الاسطح تشابكت ، ومدت الحبر من سطح الى سطح .
وكان هناك تعويض عن المشقة التي يسببها الشارع الضيق

وهي البرودة التي ينشرها . فسمحت الشوارع الضيقة
بمرور تيار من الهواء المنعش . كما ألقت البيوت العالية ظلا
جميلا على المارة . فتلك اذن متاهة من الشوارع الصغيرة
الضيقة التي تدور بين جدران بلا نوافذ ، وتعترضها احيانا
ميادين غريبة الشكل . وقد أوجز لنا سيمون سيميونس
وصف الحال في مطلع القرن الرابع عشر في هذه العبارة :

تجد في شوارع المدينة المظلمة الملتوية كثيرا من
الاركان والمنحنيات ، وهي مليئة بالغبار وغيره من
القمامة ، وغير مرصوفة على الاطلاق . وتزدحم شوارعها
الهامة بجمهور صاخب ، ولا ينتقل الانسان من شارع
الى آخر الا بمشقة كبيرة .

وظل الحال كما هو حتى نهاية القرن الخامس عشر ، حين
كتب بريدنباخ :

زرنا شوارع التجار ، فذكرتنا بالزحام في ساحة
القديس بطرس في رومة في اعوام الاحتفالات . فهناك
عدد ضخم من الباعة والمشتريين حتى ليصعب على
الانسان ان يصدق ما تراه عينه ، فهو اقرب الى
الخيال . ولا اعتقد ان هناك مدينة اخرى في العالم
اليوم تبلغ مبلغ القاهرة في ازدحامها وحجمها وثرائها
وسلطاتها . دخلنا مرة في شارع ثم في آخر ، وبعد ان

مررنا خلال بوابة حديدية ، وصلنا الى اكثر المناطق
ازدحاما . وبعد ان تدافعنا بالمناكب خلال كتل من
البشر ، رأينا بقعة لا تستطيع الكلمات ان تصف ازدحام
الناس فيها .

ويمكننا ان نتصور بسهولة الجماهير المتدفقة من الشوارع
الصغيرة الجانبية ، حتى تختفي في زحام كبير . وقد رأى
رجالة ساخط خصب الخيال « قوما يسرون في الطرقات
واذرعهم مدلاة دون اهتمام بأي شيء ، كأنهم ينتظرون لمسة
من عصا سحرية تعيدهم الى انفسهم وتضيء وجوههم
المجعدة بالرغبة والامل » . ولا ينبغي ان ننسى ان الشغب
المصري ، وخاصة في القاهرة ، كان لين العريكة ، رقيقا ،
كثير الضوضاء في صحبه ، وملينا بالحياة . واستمر هذا
البحر من البشر في سيره بروحه المرححة نحو دوامة الحياة
اليومية دون ان تشغله قضايا الحكم او فلسفة الوجود .

وأخيرا يقدم لنا هذا الوصف صورة حية عن الحياة في
المدينة :

يخترق المدينة ثلاثة شوارع ؛ وهي جميلة بالمقارنة مع
غيرها من الشوارع الضيقة الملتوية ، بسبب ان كل
شخص من الاهالي يبني منزله حسب هواه ، فيسد
الطريق ، ويحيل الشوارع الى أزقة ضيقة قصيرة
يصعب المرور فيها ، وخاصة في ايام السوق . وكثيرا

ما اضطروا إلى أن يفتحوا ممرات عبر البيوت ليستمر
المرور خلالها ، ولكنها كانت شديدة الظلمة وتسمح
بارتكاب الجرائم . وأهم شارع من الشوارع الثلاثة
الطويلة يخترق المدينة طولا . ويعقد فيه السوق في
أيام الاثنين والخميس . وبالرغم من اتساع الطريق ،
يصعب السير في أيام السوق بسبب الازدحام الشديد ؛
فهنا تأتي المأكولات بشتى أصنافها من خارج المدينة أو
داخلها لتباع . وفي شارع آخر ينتهي إليه ، توجد
الحوانيت التي تباع فيها خيرة بضائع الجملة .

وقد عاقت الحركة في الشوارع تلك المصاطب التي وضعت
أمام الحوانيت ، ولكن الأمر لم يقتصر على ذلك ؛ فالباعة
المتجولون يرصون سلعهم من الخبز وغيره من المأكول على
هيئة أكوام على الأرض بالرغم من أن الشرطة كانت دائما
تلاحقهم . وقد زاد من عرقلة الحركة في الشوارع جماعات
السقائين والباعة المتجولون الذين يعرضون على المارة مسا
يحملون من سلع رخيصة ومأكولات ، وكانوا يلفتون النظر
بنداءاتهم المتميزة كما هو مألوف في جميع مدن العالم ،
« فكل ينادي على بضاعته بطريقته الخاصة » ، كما قال
سنيكا في وصف رومة القديمة . ولم يكن هؤلاء الباعة
يدخلون البيوت وإنما كانت تفتح المشرييات وتدلى منها لهم
سلال بحبال طويلة ، فتوضع فيها البضائع وترفع على هذا
النحو إلى البيوت . وكذلك الحلاقون اتخذوا لهم مواقع يحقون

رؤوس زبائنهم وذقونهم. في الهواء الطلق . » وهناك رجال يسرون في الشوارع ومعهم ما يشبه المرأة مقلبة فسي صدورهم ويصيحون : « اللي عايز يحلق ؟ ! » . ولا ينبغي ان ننسى اصحاب الحرف الذين يعملون امام دكاكينهم . فترى عددا من الحمالين يلبون اي طلب للمشتريين ؛ « فهولاء الافراد على استعداد للقيام بأية خدمة لقاء اجر زهيد » . وعلى مسافات متباعدة ، يوجد مجبرون لاسعاف من اغمي عليهم او من اصابهم اذى ، ولتضميد الرضوض . وتتخذ « ألف ليلة وليلة » من باب زويلة موقعا لحادثة نشل . وكانت دوريات العسس تمنع الاضطرابات وتترصد باللصوص ، وكان قائد الدورية يتخذ لتفتيشه طريقا مختلفا كل ليلة ، وكان يسير امامه حامل مشعل ويحيط به ضباط الشرطة والسقاؤون وحاملو القؤوس ، وكانوا جميعا مسؤولين عن مقاومة الحرائق . التي قد تشب اثناء الليل ، وكل شخص يضبط في حالة تشاجر او سرقة كان يعتقل .

ويبدو ان قوانين المرور في الشوارع لم تكن مطبقة بدقة ، نظرا لتكرر صدورها من حين الى آخر ، ولكنها مع ذلك تثبت ان السلطات المسؤولة لم تهمل هذا الموضوع . فلم يسمح مثلا بمرور حمولة من القش او اخشاب الوقود في الطريق الرئيسية ؛ ولم يسمح ايضا للسائس ان يقود فرسا في هذا الشارع ؛ وكان لزاما على السقائين ان يغطوا قهريهم الجلدية حتى لا تبلل مياههم المارة ؛ والزم اصحاب الحوانيت بأن يقيموا

قدرا كبيرا مملوءا بالماء يسهل استخدامه لمقاومة الحرائق .
هذه الاحتياطات كانت في واقع الامر بدائية ، كما ان ازالة
مظلات الحوانيت والمصاطب من اجل القضاء على العوامل
المساعدة على الحرائق ومن اجل ازالة العوائق أمام رجال
الحريق لم تكن ذات قيمة فعالة في عام ١٠١٤ م ، وكانت
الصدفة وحدها هي السبب في قلة الكوارث . ومع ذلك ،
فقد حدثت حرائق خطيرة في عام ١٣٢١ ، وبصورة أشد في
عام ١٣٥٠ . فجند جميع السقائين واستدعي جميع النجارين
للقضاء على كل شيء قابل للاحتراق في طريق النار ، ولكن
دون جدوى . وقد استمرت الحرائق في سنة ١٣٥٠ لمدة
شهر كامل .

وفي اثناء الليل ، كان النظام يقضي بأن يعلق التجار امام
مخازنهم مصاييح . ومع ذلك ، فحين دخل بریدنباخ المدينة
بعد ان مر بالمطرية سنة ١٤٨٣ ، أشار الى انه « سار طويلا في
الظلام » . ولكن حسب رواية الحاخام الايطالي دا برتينورو ،
« يستطيع المرء ان يسير في القاهرة بالليل وأثناء النهار ، لأن
جميع الشوارع مضاءة بمصاييح » . ويذكر تريفيزانو على
وجه التحديد انه كان « من المؤلف في القاهرة - ضمنا
للأمن - ان يعلق مصباح مضيء على باب أحد البيوت كل
اربعة بيوت أو خمسة » . ولكن هذا الاجراء لم ينفذ بدقة ،
لأنه اثناء حكم ابن قايتباي المخبول (١) ، كان هذا الحاكم

(١) بدائع الزهور في وقائع الدهور لابن اياس ١ : ٣٤٦
(ط. القاهرة ، ١٩٦٠) .

« يخرج بنفسه كل ليلة بعد صلاة العشاء ويجول فني الشوارع ، يتقدمه مضباحان مستديران وأربعة مشاعل ، ويسير أمامه عدد من العبيد السود . وإذا مر أمام دكان ليس له مصباح ، كان يأمر بفتح المحل بالمسامر ، وكان يبقى ليشراف على العملية بنفسه » . وفي شهر رمضان ، كانت مآذن المساجد تضاء بمصابيح كثيرة ، وكان منظر آلاف المآذن الومضاء تترك في النفس انطباعا قويا ، كل واحدة منها مضاء بثلاثة صفوف من عدد لا يحصى من المصابيح . « وبسبب هذه المصابيح ، كانت المدينة تبدو ومضاء كأنها في وسط النهار » .

وكانت الحكومة بين حين وآخر تبدي اهتمامها بأمر نظافة العاصمة ، ولعل ذلك كان يحدث أكثر مما يشير إليه المؤرخون . فنحن نعلم أنه عند نهاية القرن الرابع عشر ، كان التجار يلزمون بدهان واجهات حوانيتهم . وفي شهر ايار (مايو) سنة ١٤٧٧ ، صدر أمر بتوسيع الطرقات والشوارع والازقة (١) ، وصدر أمر بهدم جميع المباني التي اقيمت بغير طريق شرعي في الشوارع والاسواق ، مثل كثير من المباني التي كانت تدور دخلا ، والسقائف ، والرواشن ، والمصاطب . وكانت عملية توسيع الشوارع ذات فائدة للمدينة ، ولكن كثيرين من الافراد تحملوا خسائر جسيمة بسبب ازالة ممتلكاتهم وحوانيتهم . واضطربت مدينة القاهرة حيال تدمير

(١) انظر بدائع الزهور ٢ : ١٧١ - ١٧٧ .

هذه المباني ، وخاصة تلك التي كانت تقع على الشوارع الرئيسية . لذلك كان هذا القانون موضع كراهية الجمهور .

ومع ذلك ، فان الحكومة لم تحجم عن غايتها وانما سارت قدما وقامت باصلاح الواجهات التي شوهت ، كما اصلحت ابواب المساجد وقامت بتنظيف رخامها وتبييض جدرانها ، وصدر امر بتبييض الحوائط واعادة تجميل وجوه الرباع المظلة على الشوارع . وعين مفتش للطرق الذي كانت مهمته حث الملاك على الاسراع بعملية التعمير والدهان . ويضيف مؤرخ عربي انه ، نتيجة لذلك ، استعادت المدينة جمالها الاول كما كانت عند زمن تأسيسها ، وغدت رائعة كالعروس عندما تسفر عن وجهها امام زوجها . وفي الوقت نفسه ، بدأ العمل عند باب زويلة لرفع مستوى الطريق الى مستوى الشوارع المجاورة .

وبالرغم من غلبة الاسلوب الشعري على كتابة مؤرخنا الذي يمدنا بهذه التفصيلات ، فانه لا يخفي دائما استياءه . فهو يخبرنا بأنه في سنة ١٤٩٨ ، صدر امر من السلطان يقضي بأن يقوم جميع اصحاب الحوائط التي بالاسواق والشوارع بتبييض واجهات حوائطهم وأن يزخرفوها بالدهان . وتحمل التجار بسبب هذا الامر نفقات باهظة . ويرجع كاتبنا هذه الحالة الى تحريض افراد من أحط الفئات وتحريض البطانة التي تحيط بالسلطان .

وفي تشرين الثاني (نوفمبر) سنة ١٥٠٣ ، صدر امر من السلطان بأن يقوم اصحاب الحوانيت بحفر الشوارع بغرض تخفيض مستواها بمقدار قدم تقريبا نظرا لأن مستواها كان قد ارتفع بقدر ملحوظ . وكان المفروض ممن صدر اليهم الامر ان يتموا العمل دون تأخير كبير ؛ وكان هذا سببا في ضجر كثير من الناس نظرا لعدم توفر العدد الكافي من العمال لحمل التراب بسبب كثرة الطلب .

وقلما ساءت الأحوال الجوية في القاهرة ؛ وان وجود ميزاب لتصريف المطر فوق بعض الابواب الفاطمية ليدل على ان المهندسين كانوا من اصل اجنبي . ومع ذلك ، فقد حدث احيانا ان انهمرت امطار غزيرة ادت الى غمر الشوارع والاسواق بالمياه ، وكما قال فلوبيير :

استمر المطر اسبوعا ، وقد حاولنا مرتين اقتحام شوارع القاهرة باحدثنا الضخمة فوجدناها مليئة ببرك من الطمي ، بينما كان الأهالي في حالة تبعث على الاسى ، يغوصون فيها الى ركبهم وهم يرتعدون من البرد . وتوقف العمل ، واقفلت الاسواق ، وخيم عليها الحزن والبرد ، وانهارت بعض المنازل بسبب المطر . والقيت الاتربة والقمامة على الوحل ليجف ؛ هكذا كان مستوى الشارع يرتفع بصورة مطردة .

وكان هناك عدد كبير من الرجال يستأجرون للعناية بأمر

نظافة المدينة ، وكان لهؤلاء ايضا مساعدون مهرة آخرون .
وقد كتب احد الرحالة في ذلك :

ترى في شوارع القاهرة عددا كبيرا من الحدان لا
تكاد تصدقه العين ، يحوم فوق المدينة في حرية تامة ،
وكثيرا ما رايت هذه الحدان بعيني رأسي وهي تأكل
اللحم من فوق رؤوس اولئك الذين يحملونه خبال
شوارع المدينة ، واحيانا تطير وتخطف اللحم من أيديهم ،
ولا يستطيع انسان ان يتعرض لها بأذى لانها تأكل الرمم
العفنة وغيرها من الفضلات . وبعد ان ينتهي فيضان
النيل ويعود الى مجراه الطبيعي ، فانه يظف قدرا
كبيرا من القاذورات ؛ وحينما يصل الفيضان الى ذروته ،
يجرف في الشوارع الرئيسية الحيوانات الميتة وغيرها
من الاسماك والثعابين ، ولكن هناك عدد كبير من هذه
الطيور الفظيعة يكفي لالتهام كل شيء في الحال .

ويخبرنا رحالة من القرن السادس عشر بأنه « غير مسموح
قانونيا صيد هذه الطيور او قتلها لانها تنظف النيل من
قاذوراته ، وكذلك المدينة التي لا يمكن المحافظة على نظافتها
بسبب كبر حجمها » .



لقد رأينا كيف كان سكان القاهرة يسرون جماعات
غفيرة . وكما يحدث اليوم لا بد ان جماعات من الناس تجمهرت

أمام مداخل المستشفيات والسجون . ويمكننا ان نضيف اليهم أولئك الذين تجمعوا حول الكتاب العموميين ، وهم فئة وجدت ايضا في الازمنة الحديثة . واذا كان الكتاب العرب قد أهملوا ذكرهم ، فلعل ذلك راجع الى شدة اعتيادهم عليهم . هؤلاء الكتاب العموميون ، الذين كانوا كثيرين جدا من غير شك ، أقاموا مكاتبهم في الهواء الطلق وسدوا مداخل مباني الحكومة والادارة .

هذا مكتب ذو مظهر جاد يتميز عما جاوره . مبن الدكاكين . فعلى عدد من المناضد الصغيرة تجد عددا من الكتب وبعض الورق ؛ وهناك تجد رجلا ليبيا ، أمامه محبرة ، يكتب وهو مرتكز على ركبتيه ، وقد انحنى نحو رجل آخر يجيب على أسئلته . فالكاتب رجل أهل للمشورة ، ويطلب رايه فيما يشكل من الأمور في هذه الحياة .

وقد قيل :

انه في الاحياء القديمة تجد الناس على سجيبتهم ، يعاملون بعضهم بعضا في سر . فهم يحبون الحيوية والبهجة التي تتميز بها الشوارع الضيقة ، ويؤثرون الدكاكين الصغيرة وتلك الحياة التي هي أشبه بخليقة النحل ، ويكاد المرء يقطع بأن ذلك ضروري لسعادتهم . ومما يثير العجب في هذه الاحياء هو ميل الناس الى

الحياة خارج البيوت ، واقبالهم المشرق على الحديث ،
والألفة الطيبة التي تجمعهم ، ورغبة التمتع بالحياة
تشيع في وجوههم البشر .

والظاهرة العامة بين النبلاء وذوي المكانة الاجتماعية — فيما
عدا حالات نادرة — أنهم يمتطون الخيل في الطرقات ، بينما
يركب النساء الحمير . وليس هناك أطراف من رؤية هاتيك
النساء وقد حططن على هذه الحيوانات الصغيرة التي تسير
بهن . ويركب الحمير أيضا التجار الذين يرغبون في انجاز
اعمالهم بسرعة .

وقد اوشك الحمار ان يختفي اليوم ، كأحد الحيوانات التي
ترجع الى عصر ما قبل الطوفان ، أما في العصور الوسطى ،
فكان هناك عشرون ألف حمار للايجار في المدينة . وكانت
تقف عند تقاطع الطرق ، تنتظر في صبر الزبائن الذين يرغبون
في ركوبها سواء داخل المدينة أو خارجها . وذكر أحد الرحالة
انه وجد من الحمير بقدر ما هناك من كراسي السيدان
(يحمل عليها الاشخاص) في نابولي ، أو من قوارب الجنود
في البندقية ، أو العربات في رومة . ومن أعجب الأشياء ان
لكل دابة سائقها ، رجلا كان أم طفلا ، يهزم الحمار من الخلف
ليدفعه على الاستمرار في السير ، بحيث كنت ترى دائما
طابورا من الرجال والدواب على طول الطريق . ويقال انه من
أطراف المناظر رؤية هذا العدد الضخم من الحمير ، ذلك

الحيوان الوديع الطيب الذي يزين ببرازع كاملة من الحرير ،
وقد ظليت أذناه وعرفه وذيله باللون الأصفر .

ويقابل الخطو المتدافع للحمار المظهر الشامخ المتعالي
للجمال : « ذلك الحيوان الغريب الذي يتهادى في خطوته
كالديك ويحرك رقبتة كالبعجة » . فهناك مواكب مهيبة لا
تنتهي من الجمال المتهادية ، التي تأبى إلا أن تسير في خط
مستقيم ، كأن استقامة الطرقات تتوقف عليها . وفي الواقع
كان متوسط عرض الشوارع الرئيسية مثل عرض جملين
محملين بالقش يسيران جنباً إلى جنب . ونعرف من مصادر
أخرى أن جملاً واحداً محملاً بأخشاب الوقود - أي عرض
تسعة أقدام - يستطيع أن يسير في هذه الشوارع .

وهناك حادثة غريبة وقعت في شهر أيلول (سبتمبر) سنة
١٥٠٨ تدل على مدى خطورة هذه الأوضاع . فقد حدث بعد
أن خيم الظلام أن قاد فلاح خلال الشوارع جملين محملين
كتاناً ، فأمسك هذا الكتان النار من مسارج أحد الباعة ، فلما
احس الجملان بالنار اندفعا مدعورين نحو الجمهور ووطنياً ،
باقدامهما المارة وقتلا عدداً كبيراً منهم ، إلى أن سقطت الجمال
على الأرض في آخر الأمر (١) .

(١) بدائع الزهور ٤ : ١٣٥ .

وقد لاحظ اكثر الرحالة انه لم تكن هناك حاجة الى شوارع تسمح بمرور عربات تجرها الدواب . ويذكر لنا واحد منهم : « يجب أن تعلم انه لا يوجد في مصر - الا في حالات نادرة - أماكن تستخدم فيها عربات سواء للركوب أو النقل ، كما هو الحال في البلاد الغربية . فكل ما لا ينقل بالسفن أو الجمال يتم نقله على ظهور الحمير والثيران » .

وما من شك انه وجدت أحيانا في القاهرة وسائل أخرى للمواصلات ، ولكن هذه الحالات كانت من الندرة بحيث أن المؤرخين اهتموا بذكرها . ومثال ذلك انه في سنة ١٣٦٩ ، نقل عمودان من الرخام بواسطة الزحافات والروافع . وقد اتخذ الرجالون الشنعيون من ذلك موضوعا لقرائحهم ، ورسمت على المناديل صور تمثل المنظر . وبعد ذلك بعدة سنوات ، قطعت حجارة من مقالع جبل المقطم ووضعت على عربات تجرها الثيران ؛ ومنذ ذلك الوقت أصبحت هذه الحجارة تسمى « حجارة العربات » . وفي سنة ١٥١٢ ، أمر السلطان بان تنقل المكاحل (المدافع) التي تم صنعها في الصحراء شمالي القاهرة حيث يمكن تجربتها ، فوضعت على عربات سحبتها الإبقار . وعند مرور العربات بين الدكاكين في الشارع الممتد من القلعة الى مسجد ابن طولون ، تبين أن عملية النقل فيه شاقة ، وقد تمت بعناء شديد . ثم حدث بعد ذلك أن انهارت أرض الطريق وسقط مدفع كبير في ممر تحت الأرض ؛ وتم أخراجه بعد جهد كبير (١) .

(١) انظر بدائع الزهور ٤ : ٢٦٠ - ٢٦٧ .

ومن الاشياء التي وجبت مقاومتها في هذه الشوارع الحرارة والغبار ، بحيث لزم رش كثير من الطرقات غير المرصوفة مرتين كل يوم . وقيل انه في بعض الأماكن التي لم تكن ترش ، كان الغبار يرتفع كثيفا كالدخان ، وكان من العسير القول ما اذا كان هذا مجرد غبار او انه حريق .

كانت مدينة القاهرة ذاتها بعيدة عن النيل ، واستنفدت مشكلة نقل الماء جهود عدد كبير من الرجال والدواب . ويؤكد ابن بطوطة بأنه وجد في القاهرة ١٢.٠٠٠ سقاء يستخدمون الجمال و ٣.٠٠٠ مكار يستخدمون البغال (١) . ويقدر فريسكوبالدي عدد الجمال وغيرها من الحيوانات التي استخدمت لتوزيع الماء في ارجاء المدينة ب ١٣.٠٠٠ دابة . وفي بداية القرن السادس عشر ، لاحظ تريفيزانو أن ١٥.٠٠٠ جمل كانت تمضي الى النيل مرتين يوميا لتحمل الماء اللازم لحاجات المدينة . ويبدو انه لم تعامل دائما هذه الحيوانات برفق ، ومن دلائل ذلك أن «الف ليلة وليلة» تحاول أن تشير فينا الشفقة بقصة نحيب استرحام الحمار الذي حاول الفرار من المجتمع البشري حتى لا يسخر في نقل الماء .

وكان من الضروري أن يزود كل مسكن بالماء وكذلك الحمامات العامة ، وأن تملأ المساقى التي اقيمت لشرب

(١) رحلة ابن بطوطة : ٣٧ .

الحيوانات والأزيار الفخارية التي كانت توضع على قاعبدة
وتغطى بلوح من الخشب وعليه كوب للشرب . وكان يوجد في
الشوارع رجال يحملون قريا من جلد الماعز مدلاة من اكتافهم ،
ولها فوهات من القماش . وكانوا يبيعون للمارة ما يحتاجون
اليه من ماء يطفئ ظمأهم ، وكانوا يقدمونه في كؤوس من
الفضة أو النحاس . وكان بعض الاغنياء يؤجرون سقائين رغبة
منهم في تقديم هذه السلعة الاساسية صدقة للفقراء .

وكان السقاؤون المتجولون يحملون قريا من الجلد المصبوغ
بالعصف . فقد ثبت ان ذلك يزيد في متانة الجلد . ولا يمكن
استخدام جلد البغل أو اي جلد قدر متاكل . وكان على
السقائين ان يأخذوا الماء من مناطق في النيل بعيدة عن كل
تلوث . فكانوا يصعدون في النهر بصفة خاصة بعيدا عن
مصارف الحمامات العامة ، أو ينزلون مسافة طويلة أسفل
النهر . وكان السقاء ، اذا استعمل قرية جديدة ، فانه لا
يستخدمها لنقل الماء للاستعمال في البيوت ، بل كان يبيع
الماء منها للطواحين وعصارات النبد ومضارب الآجر . وكان
يعلق حول اعناق الحيوانات الحاملة لقرب الماء أجراس أو
اطواق مصنوعة من الحديد أو صفائح نحاسية بحيث تنبه
الى اقترابها الضير والسرхан والصغار في الاسواق العامة .

ويقال انه كان هناك عدد كبير من الباعة المتجولين الذين
يبيعون الافراخ الصغيرة بالوزن وليس بالعدد كما هي العادة

في البلاد . ومما اثار عجب الرحالين جميعا انهم وجدوا في مصر البيض يفقس « دون اية مساعدة من الدجاج » (١) ، ويقولون ان هؤلاء القوم كانوا يستخدمون طريقة معينة لفقس الفراخ ، فكانوا يضعون الف بيضة او اكثر في افران تحتوي على عدد من الرفوف ، ويوجد في الرف العلوي فتحة ، ثم توقد نار هادئة تحت هذا القرن وتستمر على هذا النحو سبعة ايام ، تخرج بعدها أعداد كثيرة من الفراخ وتجمع بعد ذلك في صناديق ، وعند بيعها ، تكال بضاع بلا قاع يوضع في سلة المشتري ثم يملأ بالفراخ حتى يمتلئ ، وعند ذلك يرفع الصاع . ولقد اثارت هذه العملية نوعا من التامل الفلسفي عند الرحالة بريدنباخ وهو في طريقه الى بيت المقدس فقال :

بعد ان تفقس الفراخ بغير مساعدة الأم ، كانت ترسل كالاغنام الى الحقول مع راع او تباع في السوق . والشيء الذي لا يقبله العقل ، رغم انه صحيح ، هو ان هذه الطيور التي ولدت بواسطة فن الانسان وصنعتة كانت اكثر استئناسا من الطيور التي ولدت بالطريقة الطبيعية ، وهي تتبع الانسان تماما كما تتبع الفراخ العادية امها .

* * *

لقد حفظ لنا الرحالة الاوروبيون اوصافا متناقضة عن

(١) الخطط ١ : ٢٦ .

منازل المدينة ، ويفسر ذلك ان بعضهم تناول وصف القصور الغنية بينما وصف آخرون المساكن المتواضعة الفقيرة ذات الاسقف المسطحة المفطاة بالجريد . ولا شك ان المنازل الأكثر ثراء كانت اقل جودة من حيث البناء عن مثيلاتها في اوروبة . وقد بلغت في بعض الاحيان اربعة او خمسة طوابق ، الجزء الاسفل منها مبني من الحجر او الآجر ، والجزء العلوي من الخشب الخفيف جدا والياف النخيل والجريد والطيني . واسقف المنازل مسطحة بحيث يستطيع السكان ان يستريحوا فيها نسيم المساء البارد ، وكان بعض الناس ينامون فيها في الصيف .

كانت واجهات المنازل بسيطة للغاية وجدرانها خالية من اي زخرفة . والحلية الاساسية في الواجهة المطلة على الشارع هي المشربيات التي كانت تشكل بروزا في الجدار الخارجي للبيت . وهي مصنوعة من عدد لا يحصى من قطع الخشب الصغيرة المنحوتة ، ومرتبعة ومركبة على نحو يكون اشكالا مختلفة . ومن ناحية عملية ، كانت هذه المشربيات « ترضي حب استطلاع من كانوا داخل البيت ، دون ان تكشف أمرهم من الخارج نظرات الفضوليين » . ولهذا ، خيم على منازل العصور الوسطى جو من السرية والغموض . ولقد قيل ان هذه البيوت حاولت بهذه الطريقة ان تخفي ثراءها الداخلي ، ولكن لعل هناك سببا طبيعيا آخر يفسر بساطة المظهر الخارجي ، وهو ضيق الشوارع ، اذ يستحيل

على المرء أن يذهب بعيدا ليتمتع بالنظر الى واجهاتها الغنية .
كانت بيوت كبار القوم تبدو من الخارج متواضعة ، عادية ،
عليها مسحة من الكآبة ؛ أما من الداخل ، فلا مثيل لها في
فخامتها وثرائها . وكأنها كما يقول احد الزحالة : « بيت
الرحمن وابواب السماء » . وكان يزين هذه المنازل زخارف
غنية رائعة قد رسمت بألوان مختلفة ذقيقة . هذا ، الى
جانب استخدام الرخام وغيره من الحجارة الملونة ، ويبدو
انه ساد في الشرق اعتقاد بوجود اخفاء الجمال ، كما كانت
تحبب النساء في الماضي ، وتلف المومياء من قبل بأشرطة
من النسيج .

اما غرفة الاستقبال ، فكانت مرصوفة بالرخام المتعدد
الالوان ليكون اشكالا من الازهار وغيرها من الزخارف . وكان
يقوم في وسطها نافورة او نافورتان من الماء تبقيان مفتوحتين
بالليل والنهار طوال فصل الصيف . ووضعت حول هذا
الحوض الكبير في اماكن متفرقة اوان مليئة بازهار الموسم .
وكانت هذه النافورة ذات الماء الجاري تعتبر جزءا اساسيا في
بيوت الاثرياء ، وتكاد تقابل المدفأة في الغرب . وتغطي الأرض
بسط ، على الأقل عند الطرفين حيث يوجد الديوان ، وهو
عبارة عن مصطبة ترتفع عن الأرض بمقدار قدمين ونصف ،
مغطاة بالسجاجيد الفارسية الثمينة والطنافس الحريرية
المذهبة ، أو بنسيج رفيع ينتهي بدوائر ذهبية . في هذا

المكان ، يجلس الناس القرفصاء على نحو ما هو مألوف في الشرق .

واشتمل المنزل الذي عاش فيه جان تينو في مطلع القرن السادس عشر على :

ست غرف او سبع مرصوفة بالرخام والمزمر وغيره من الحجارة القيمة ، قد رصت بمهارة فائقة ، كما غطيت الجدران بنفس الخامات ، بعد ان طليت بألوان ناصعة مثل الذهبي والازرق وغيرهما . وقد فاقته مهارة الصانع روعة الخامات . ووجدت في هذه الغرف نافورات ينبثق منها ماء بارد او ساخن يجري في انابيب مخفية . وعلى مقربة من هذا المكان تنمو اشجار ونباتات كثيرة للفواكه مثل الليمون بأنواعه والقبرع الغسلي والبرتقال والمشمش والكاسيا والتفاح . وكانت هذه الحدائق ترش كل صباح ومساء بماء احضر من النيل بواسطة الشراذم والخيول .

وغالبا ما كانت الجدران تغطي بالرخام الى ارتفاع عشرة اقدام او اثني عشر قدما يعلوه افريز بديع ضئيل اخيلانا من البرونز المذهب المرصع بالقيشاني الرائع الجمال ، ويتكون السقف من دعائم خشبية تترك بينها مجار غائرة .

ومما اعجب به الرحالة الغربيون الاساليب التي استخدمت

للتغلب على جر الصيف . فبالإضافة الى أحواض الماء ، فتحت في السقف فجوات للتهوية تتجه نحو الشمال وتتصلب بسرداب ضيق جدا يندفع الهواء عن طريقه بسرعة ليتمزج بالبرودة التي يخلفها الرخام والماء .

ويتلقى البيت القاهري ضوءه من الفناء الداخلي وليس من الطريق . وتكاد تقطع بان البيت بني من الداخل الى الخارج واغلق اصحابه بعد ذلك المنافذ على الشوارع . وكانت هذه المنازل من الراحة والبعد عن ضوضاء المدينة بحيث تسمح لسكانها بأن يناووا بأنفسهم عن مشاغل اعمالهم وعن صخب المدينة ، وأن ينعموا بسويغات قليلة من الهدوء والراحة . وهناك ، خلف جدران هذه البيوت المغلقة ، يشعر المرء بالسكينة في عزلة عن مشاغل الحياة اليومية . وبالقرب من النافورة في صحن الدار ، يطيب للمرء أن يتعم بالتأمل الهادئ على صوت خرير الماء وشدو الطيور .

ولم تؤثر هذه البيوت بالطريقة التي ننظم بها بيوتنا الآن ، فلم تشتمل مثلا على مطبخ ، ويذكر جميع الرجال ان الأكل كان يجلب من الخارج ، ويؤتى به معدا ومطهوا من المطاعم التي كانت تنتشر في المدينة . كما لم توجد كراس يمكن نقلها ، اذ يجلس الناس على ارائك مغطاة بالبسط والطنافس . ولم توجد ايضا حشيات بالمعنى المعروف الآن ، وكان البساط كافيا . وهذا هو ما يعنيه جوينو بقوله : « ان ما يسميه

بعض الناس تقشفاً كان يعتبر هنا غاية في البذخ . . وكأنت
أباريق الماء تحفظ في كوة صغيرة ، كما أن عدد الاوانسي
النحاسية من أباريق وصوان واكواب كان يتوقف على ثراء
صاحب البيت . كما وجدت صناديق كثيرة مليئة بالحلي
والخزف والسجاجيد النفيسة والوسائد ذات الاغطية
المصنوعة بخيوط من الذهب والفضة . ومن أقيم ما اشتملت
عليه ثروات هذه البيوت المنسوجات الثمينة ، ويدل على ذلك
انه في فترات المحن كانت المنسوجات اول شيء يخبأ في
اماكن آمنة .

يهدف التصميم العام للبيت الى ستر الحياة الداخلية
للنساء ، وأن يصون الحياة المنزلية من أعين الغرباء . وبسبب
التعاريج في مدخل البيت ، أمكن ترك الباب مفتوحاً ، رمزاً
للكرم ، ولا يستطيع أحد من المارة أن يقتحم المنزل . ويؤدي
هذا الدهليز المتوي الى صحن الدار . واهم مكان في البيت
هو غرفة الاستقبال التي كانت خاصة بالرجال .

* * *

ومن الواضح أن المنازل بنيت بحيث تسمح بالمحافظة على
بقاء النساء مخجوبات . ومع ذلك ، فليس صحيحاً أن نظن
أن النساء كن محرومات من كل حرية ، فلعل القصص التي
جاءتنا عن العالم الشرقي بالغت في وصف أمور أخرى كثيرة ،
ولكنها صريحة تماماً في روايتها للاعيب النساء . فكان النساء
يخرجن ويقصدن الحياصات العامة - على سبيل المثال - وهي

مسألة لا يستهان بها تكون يحضرن الإعياد والاختفالات العائلية وحفلات الزواج والميلاد ، كما يذهبن الى الحج ويحتشدن عند الاضرحة . ونستنتج من الطريقة التي نظمت بها منازل القاهرة واثت ، ان رب الأسرة كان يراعي رأي زوجته . فالنساء هن اللائي كن يتمتعن بفخامة البيت وبذخه ورونقه ، وكن ينعمن بجمال حدائق الزهور الداخلية .

ولا بد ان النساء تمتعن بقدر كبير من الحرية اذا كان لنا ان نحكم من القيود التي فرضها دعاة الفضيلة من المتزمتين . فقد اعتقدوا انه لا يليق بالنساء ان يزرن المقابر ، ولا ان يقمن في بيوت تطل على الخليج أو البرك ، بسبب المناظر التي يمكن ان يشاهدنها . وللسبب نفسه ، لا ينبغي للنساء ان يسافرن في القوارب ، ولا ان يحضرن الاحتفال بالمحمل .

وحسب هذه المبادئ الصارمة ، لا ينبغي ان تخرج النساء الا عند الضرورة ، ويجب عليهن ان يرتدين أقدم ملابسهن . وكانت تغطيهن تماما عباءة تصل الى الارض . ولا ينبغي ان يلبسن أجمل ملابسهن ويسرن في خيلاء في الشوارع . ويعتبر وجود النساء عند تجار المنسوجات والحلبي او ابتسامهن عند الكلام معهم عملاً شائناً . وكانت رؤية النساء في الاسواق في القاهرة امراً مألوفاً ، لدرجة ان احد القضاة استنكر ان التجار حيوا بعض النساء من غير المسلمات ، في ملابس غاية في البذخ ، ظناً منهم انهن مسلمات . وفي « الف ليلة وليلة » تقع معظم المغازلات في سوق الأقمشة .

من الناحية النظرية المحضة ، كانت هناك ثلاثة أسباب فقط لمغادرة المرأة المنزل : ذهابها الى بيت زوجها ، وحضورها جنازة والديها ، ودفنها عند موتها . ولكن في الواقع ، كان هؤلاء النظريون المتزمتون يعرفون جيدا أن كلامهم كان مجرد صيحة في واد ، وأن النساء كن يذهبن كل اسبوع لزيارة ضريح سيدنا الحسين وضريح السيدة نفيسة .

وقد رأى فريشكوبالدي نساء القاهرة على هذا النحو :

ملابس النساء بصورة عامة مصنوعة من اقمشة جيدة النسيج ، وملابسهن الداخلية مصنوعة من الخام ، أو من أرقى أنواع الكتان الاسكندري بالنسبة لأثرياء النساء . وتلبس بعض النساء ثوبا قصيرا من القطن يصل الى الركبة ، وفي هذه الحالة كن يلبسن فوقه نوعا من الرداء الروماني . وهن متحجبات تغطيهن الملابس ، ولا يرى منهن غير الأعين . وتضع نساء الأسر الكبيرة أمام أعينهن نقابا اسود من الموشلين السميك يحجب وجوههن عن الأعين بينما يسمح لهن بالرؤية الواضحة . ويلبسن في أقدامهن أحذية بيضاء ذات رقبة قصيرة ، بينما تغطي أرجلهن جوارب طويلة وسراويل تصل الى الكعب . وتطرز نهاية هذه السراويل بخيوط من الحرير أو الذهب أو الفضة ، أو تحلى بالأحجار الكريمة أو اللآلئ ، حسب وضع السيدة في المجتمع .

ويضيف تريفيزانو الى ذلك قوله :

لا يظهر من جسم المرأة سوى الايدي ، وهذا من
النادر أيضا . وعند ذهابهن الى المدينة ، كن يلبسن
ثيابا بيضاء ويمتطين الحمير . وتشاهد أيدي بعض
النساء واطافرن مطلية بالحناء . وهن ينفقن المال
الكثير في شراء الحرير والروائح العطرية من الاسواق .

٦ الأُضْرَاجَةُ وَالْأُسُوقُ

كانت الاسواق في القاهرة ، كما كانت في سائر المدن الشرقية ، تمتد الى ما لا نهاية . وفي ذلك يقول المقرئزي (١) :

والقصبة هي أعظم أسواق مصر ، وسمعت غير واحد ممن أدركته من العمرين يقول ان القصبة تحتوي على اثني عشر ألف حانوت ، كأنهم يعنون ما بين أول الحسينية مما يلي الرمل الى المشهد النفيسي . ومن اعتبر هذه المسافة اعتبارا جيدا لا يكاد ان ينكر هذا الخبر . وقد أدركت هذه المسافة بأسرها عامرة الحوانيت ، غاصة بأنواع المأكول والمشارب والامتعة ، تبهج رؤيتها ، ويعجب الناظر هيئتها ، ويعجز العاد عن احصاء ما فيها من الأنواع فضلا عن احصاء ما فيها من الاشخاص . وسمعت الكافة ممن أدركت يفاخرون بمصر سائر البلاد ويقولون : يرمى بمصر في كل يوم ألف دينار ذهباً على الكيمان والمزابل ، يعنون بذلك ما يستعمله اللبانون والجبانون والطباخون من الشقاف الحمر التي يوضع فيها اللبن ، والتي يوضع فيها

(١) الخطط ٢ : ٩٤ - ٩٥ .

الجبن ، والتي تأكل فيها الفقراء الطعام بحوانيت
الطباخين ، وما يستعمله يباعو الجبن من الخيط والحصر
التي تعمل تحت الجبن في الشقاف ، وما يستعمله
العطارون من القراطيس والورق القوي والخیوط التي
تشبك بها القراطيس الموضوع فيها حوائج الطعام من
الحبوب والافاويه وغيرها . فإن هبذه الاصناف
المذكورة ، اذا حملت من الاسواق واخذ ما فيها اقيت
الى المزابل .

ويصف التجار اكوام الخبز وغيره من الاطعمة على الأرض ،
وكثيرا ما وجهت الالتماسات الى المسؤولين ليمنعوا اولئك
القوم من عرض بضائعهم في الاسواق العامة نظرا لأنهم
يسدون الشوارع الضيقة ويتسببون في الاضرار بمصالح
اصحاب الحوانيت .

ويوجد وراء باب الفتوح سور مسجد الحاكم بماذنه
المربعة التي تتفق هندسيا والاسوار المحيطة بها . ويذكرنا
هذا المسجد بأعمدته القصيرة الغليظة بتصميم مسجد ابن
طولون ، ويصف ماريلامسجد الحاكم بقوله : « لم يبق منه
سوى بقايا مذهب تبعث على الحسرة ، وعقود ترتفع في عنف
نحو السماء الصافية ، وأعمدة قائمة مشوهة . وفي وسط
هذا الدمار تجد قافلة قد حطت رحالها بعد ان هدها العناء
الذي يحدثه الصراع بين الظل وحر الشمس اللافح » .

وفي داخل باب الفتوح ، توجد حوانيت القصابين وتجار الحبوب والخضر وغيرهم من الباعة ، وهو اشهر اسواق القاهرة واكثرها ازدهاما . ويقصدها الناس من كل مكان في البلاد ليشتروا جميع انواع الخضر وشتى اصناف اللحوم من ضأن وبقر وماعز . وكان القصابون يلفون اللحم في اوراق شجر الموز .

وغير بعيد من هذا المكان ، يقع سوق المرحلين ، وهي سوق اختصت ببيع ما يحتاج اليه في ترحيل الجمال وكل شيء آخر يتعلق بأردية الابل . ويؤمها الناس من كل ارجاء مصر ، وخاصة قبل موسم الحج . فكل من اراد ان يعد مائة جمل او اكثر في يوم واحد ووجد مشقة في تحقيق ذلك يمكنه ان يحقق غايته هنا نظرا لوفرة كمية المعدات اللازمة فسي المتاجر ومخازن التجار .

وعلى طول الطريق من باب الفتوح الى المسجد الأحمر ، يباع الطعام ، من لحوم نيئة ومطهوه وخبز وزيت وجبن ولبن وخضروات وانواع التوابل المختلفة . كما وجد عدد كبير من المحلات حيث تباع الاطعمة المشوية والمحمرة ليلا ونهارا . وهناك ، الى جانب ذلك ، الطهاة المتجولون ، ليس في هذا المكان فحسب وانما في شتى ارجاء المدينة ، اذ يبدو ان سكان القاهرة قلما كانوا يعدون طعامهم في البيوت ، وكانوا يشترونه مطهوا معدا من المتعهدين وكبار الطهاة الذين انتشروا

في انحاء المدينة وتخصصوا في هذا النوع من العمل . فيقال انه وجد عدد يتراوح بين عشرة آلاف واثنى عشر الف طاه يتجولون في شوارع المدينة ويحملون على رؤوسهم افرانا موقدة عليها اوعية ساخنة او لحم يشوى على السفود ، يقدمونها ساخنة لمن يطلبها . ويضيف فريسكوبالدي ان الطهاة كانوا يجهزون الطعام في اوعية نحاسية جميلة . ويقال انه من المألوف ان يجلس اهل المدينة ويأكلوا في الشوارع ، نادين على الارض رقعة من الجلد يضعون عليها وعاء يحتوي على طعامهم ويجمعون حوله جالسين القرفصاء . وهكذا ، كان القوم يأكلون ما يشترونه من تلك المطابخ التي كانت مزودة بكميات وافرة من اللحم وخاصة الضأن والدجاج والأوز ، وبكمية اكبر من الأرز والمقليات بالزيت . وبعض التفصيلات الاخرى نخبرنا :

ان الطهاة كانوا يقطعون اللحم الى قطع صغيرة يضعونها في السفود ، كما نفعل نحن بصغار الطيور ، ثم يصفونها على افران لا غطاء لها ، تنضج اللحم في لحظات . وحيانا يشوون جملا كاملا وبعد نضجه يحمله رجل على كتفيه ويضع على رأسه منضدة متنقلا بها في الشوارع مناديا : « اللي عايز يأكل لحمة ؟ » ونظرا لعدم وجود فنادق تقدم الطعام ، كان الغريباء مضطرين الى الأكل حيث يكونون .

واذا تابعنا السير في الطريق ، نرى ناحية اليسار الواجهة

الضيقة للمسجد الأقرم بطابعها الحزين الخلاب . ولتقف قليلا نتأمل روعة ذلك البناء . قد لا يروعك مظهره عند مقارنته بالأبواب الضخمة عند مدخل المدينة او بالأبنية الجليلة التي اقامها المماليك والتي سنراها بعد قليل ؛ ولكن هناك اكثر من سبب يدعونا للاعجاب به . فهنا تمكن العالم الأثري من ان يحل مشكلات عدة تتعلق بتطور فن الزخرفة الإسلامية ؛ اما بالنسبة للفنان ، فهو مثال للتعبير الهادئ والبساطة الأخاذة . . وتعتبر هذه الجوهرة من اكثر اعمال الفاطميين جمالا .

وعلى مقربة من هذا المسجد ، كانت تقوم سوق الشماعين ، ترى بها إشرطة الاضاءة للمصابيح والمشاغل التي يجمعها رؤساء دوريات الحراسة ، والشموع الضخمة التي كانت تستخدم في المواكب . وبطبيعة الحال ، لم تعد تصنع في ذلك الوقت الشموع التي كانت تثبت على مؤخر الدواب زمن الاخشيديين (كان راكبو الدواب مضطرين للتلقت خلفهم بصورة مستمرة للتأكد من موضع الشموع) . وكانت الحوانيت تظل مفتوحة الى ساعة متأخرة من الليل ، واصبحت ملتقى المومسات اللاتي اطلق عليهن نتيجة لذلك اسم نساء الشماعين الفاجرات . وكن يرتدين ملابس زاهية الألوان ليسهل التعرف عليهن .

ويلي هذه المنطقة مباشرة ، من ناحية الشمال ، تجاه باب النصر ، سوق البزازين ، مكتظة بتجار الاقمشة ومن يتصل

بهم من اصحاب الحرف ، مثل النساجين والحلاجيين والصباغين والرفائين والخياطين والفسالين والكوائين والرسامين . وبعبارة أخرى ، كل من لهم علاقة بصناعة المنسوجات . وعلى مقربة منهم ، كان هناك آخرون من اصحاب الحرف المتخصصة ، مثل اولئك الذين كانوا يصنعون الضبب التي يرسم الابواب ، وهي اقفال خشبية عجيبة بهرت الرحالة الاوروبيين . ويقول احد اولئك الرحالة :

تصنع الاقفال والمفاتيح من الخشب فقط ، بما في ذلك اقفال ابواب المدينة . والمفتاح يتكون من قطعة من الخشب يبلغ طولها نصف قدم وعرضها بوصة وهي في سمك الاصبع الخنصر ، ومثبت في طرفها ستة او ثمانية مسامير من النحاس او حتى من الخشب طولها حوالي بوصة واحدة . وعندما تقابل تلك المسامير مثيلاتها داخل القفل ، ترفعها وينفتح القفل .

وكان يوجد بالقرب من هذا المكان ، في القرن الرابع عشر ، سوق العبيد ، الذي نقل فيما بعد الى خان الخليلي الذي ذاع صيته واصبح الرحالة يهتمون بوصفه ابتداء من القرن السادس عشر . هنا كان يعرض الرجال والنساء للبيع واكثرهم كانوا عراة سوى قطعة من القماش تستر عوراتهم . ويقوم المشترون بفحص جميع اجزاء الجسم ليتأكدوا من سلامة ابدانهم ، كما يفعل المرء الآن عند شراء الخيول . « وكانوا

يتخمسون العبيد بأيديهم بكثرة ؛ فالأيدي تختبر سلامة عضلات الساق ، ورقة الجلد ، وصلابة الصدر ، وحجم قبضة اليد القوية » . وكان يعرض خليط من النساء : التركيات واليونانيات والجركسيات والجورجيات والحبشيات . ونكاد نسمع بأذاننا نداءات النخاس وهو يردد بصوت مازح تلك العبارات الواردة في كتاب « ألف ليلة وليلة » : « ايها التجار الاثرياء ، ليس كل ما استدار جوزة ، ولا كل ما استطال موزة ، ولا كل ما احمر لجما ، ولا كل سمراء تمرة . . . ايها التاجر كم تدفع لهذه الجوهرة الفريدة التي تفوق قيمتها جميع اموالك ؟ من يقترح العرض الاول ؟ » .

وخلف المسجد الأحمر من ناحية الجنوب ، كان هناك ذلك السوق الفسيح للدجاجين ؛ وكان يباع فيه من الدجاج والأوز شيء كثير جليل الى الغاية . وفيه حانوت فيه العصافير التي يبتاعها ولدان الناس ليعتقوها . كما كانت تباع بها بكرة طيور السموع من اصناف القماري والهازارات والشحارير والبيغا والسمان في اقفاضها (١) .

نصل بعد ذلك الى حي من امتع احياء القاهرة واكثرها ازدحاما ، وهو شارع بين القصرين ، الذي ترجع تسميته الى العصر الفاطمي . وكان في ذلك العصر منطقة كبيرة خالية

(١) انظر الخطط ٢ : ٩٦ .

من المباني والمنشآت ، تسع نخوا من عشرة آلاف جندي سواء من الخيالة او المشاة . فكانت تقام في هذا المكان المواكب والاستعراضات العسكرية . وبعد زوال الفاطميين ، حين سكن امراء الايوبيين وضباطهم القصور الخالية ، تحول المكان الى سوق للطعمة ، بانواعها المختلفة ، من لحوم وفتائر وفواكه وغير ذلك من ألوان الطعام . ومع ذلك ، فقد ظل مكانا ممتعا يحلو للنبلاء وعلية القوم ان يسروا فيه في المساء للترويح عن النفس ومشاهدة الاضواء المنتشرة المنبعثة من المصابيح والثريات . وكثيرا ما احتشد الناس لسماع ملاحم السير والقصص التاريخية او لمشاهدة الألعاب المختلفة .

بعد ذلك ، أنشئ في هذا المكان مجموعة من المباني الرائعة ، مما جعله يتحول الى ما يمكن ان يسمى بمتحف حقيقي للعمارة . فهناك ، اولا ، مدرسة السلطان برقوق ، التي تلفت النظر بجدرانها العالية ومآذنها القصيرة الغليظة . وبعد ذلك بمائة سنة ، قامت المباني التي انشأها السلطان قلاوون وابنه محمد . ومما يثير الاهتمام ، بوابة غربية نعرف انها كانت بابا لكنيسة للفرنجة احضر من فلسطين ولم يؤخذ كغنيمة حرب ، على انه يدل على اختيار رجل ذي ذوق رفيع . واذا ما يمتنا شطر الشرق وعرجنا قليلا ، نصل الى ضريح الملك الصالح ايوب ، خصم القديس لويس .

هذه المباني التي ترجع الى عصور مختلفة وتتميز بأساليب

معمارية متباينة وتخدم غايات متفرقة ، تقف جميعها جنبا الى جنب دون ان يشعر الانسان بأي تناقض بينها ، بل انها لتكون معا نسقا واحدا . ولعل ذلك راجع الى شدة الضوء واستقلال المباني مما يسمح بتمييز الأشياء عند النظرة الاولى . نحن هنا أمام مجموعة فريدة ومثيرة من المباني التاريخية . ويزين المباني الاربعة التي تكون الواجهة الغربية صفوف من النقوش التي تبعث في نفس الزائر شعورا بسحر فن الكتابة العربية .

ووجد في هذا المكان أيضا ، عند بداية العصر المملوكي ، سوق السلاح ، حيث تباع القسي والسهام والدروع ، ولكنه نقل فيما بعد الى مكان قريب من القلعة .

ونظرا لتوسط هذا الموقع بين الأسواق على طول المحور الممتد من الشمال الى الجنوب ، فقد وجد به عدد كبير من الصيارفة الذين اتخذوا مواقعهم في هذه المنطقة . وتجد على مسافة غير بعيدة ، مصاطب سوق الصناديقين حيث كانت تعرض الحلبي . وهذه الصناديق الصغيرة مصنوعة من الحديد المتشابك وتحتوي على خواتم واختام وأساور وخلاخيل .

واذا استأنفت السير ، وجدت باعة الأمشاط والوراقين وصانعي الحلوى (الكعكيين) الزودين بكميات كبيرة من الفستق واللوز والزبيب . والى جوارهم ، تعرض المهامزيون انواعا شتى ، من أبسطها المصنوع من الحديد الى أفخمها

المصنوع من الفضة أو الذهب الخالص . وكانوا يصنعون أيضا سائر أطقم الخيل . وعلى مقربة من هذه السوق ، كان يقوم سوق السروجيين ، حيث تشاهد اللجم والسيور ، وبصفة خاصة اللجم المصنوعة من الجلد المصبوغ بألوان مختلفة ، منها البسيط ومنها المطلي بالذهب والفضة . وبعد ذلك تأتي متاجر باعة المنسوجات المستوردة التي كانت تستخدم في أغراض الرياش والوسائد وبطانة السروج . وقد زاد الإقبال على تلك الأقمشة عن طريق الطبقة المتوسطة في القرن الخامس عشر .

نأتي بعد ذلك إلى مباني السلطان الغوري التي تكشف عن ذوق رجل محدث الثراء ، ان جاز لنا ان نطلق على مملوك مثل هذا الوصف . فأعماله تمثل اسلوبا ينتمي إلى طبقة نبيلة منحلة . فهناك تقليد ضعيف لأعمال فنية ترجع إلى عصور الاصالاة السابقة . فهذا الفن الذي يمكن ان يوصف بالحدلقة الشديدة والمظهرية انتشر واوشك ان يتخذ له قواعد مدرسة محددة . ويمكن ان نقول ، بعد مقارنة هذه الاعمال بسابقاتها ، ان صناع السلطان الغوري بالغوا في اعمالهم محاولة منهم في ان يخلقوا لنا نماذج من اسلوب وشيك الزوال . فرغم اتقان الزخرفة من ناحية الصنعة، فهي مجرد استمرار لما سبقها دون ان يكون لها اية شخصية قائمة بذاتها . وان مقدرة الفنانين التي لا يمكن انكارها لتكشف عن دراية بفنون الصنعة اكثر مما تدل على عبقرية خلاقة . فقد يسرنا ، مثلا ، دون ان يحركنا ،

مظهر الكتابة الهزيلة التي تبعث على السخرية ، خالية من
مظاهر الجدية والقوة . ويمكن تعريف عمل هؤلاء الفنانين
الصغار بأنه مجهود محمود قام به تلميذ مجد ، ففنانو هذه
الفترة يميلون الى المبالغة في التنميق بالنسبة الى زخرفة
قد استكملت تنميقها ، دون ان يدركوا ان في البساطة جمالا
اكثر .

وكان يقوم في جوار الجامع الأزهر ، غير بعيد من هذا
المكان ، سوق الفرائين ، وتباع فيه انواع الفراء كالسمور
والوشق والعمائم والسنجاب . فكان يستخدمها ، في أول
الامر ، قواد السلطان وكبار الموظفين ، ثم استخدمها بعد
ذلك ، في نهاية القرن الرابع عشر ، نساء الطبقة الثرية .

وكان هناك في هذه المنطقة ايضا سوق النجارين حيث تباع
المحفورات الخشبية ومن أشهرها ، بطبيعة الحال ، المشربيات .
ولم يكن بمقدور هؤلاء الصناع الذين استخدموا أصابع
اقدامهم في العمل ان يصلوا بصنعتهم الى تلك الدرجة من
المهارة والدقة والسرعة لو انهم استخدموا ايديهم .

وخلف الموقع الذي شيدت عليه مباني السلطان الغوري ،
في اوائل القرن السادس عشر ، وجدت في القرن الرابع عشر
سوق مزدهرة للكفتيين ، لصناعة النحاس المكفت . فهذه
الاوعية الجميلة المطعمة بالذهب والفضة اشتملت على الصواني

والطاسات والاباريق والعلب الصغيرة والمباخر . ولا يكاد يوجد بيت بالقاهرة او مصر يخلو من عدة قطع نحاس مكفت . ولكن هذه الطبقة من الصناع كادت تنقرض تماما خلال القرن الخامس عشر .

وفي هذا الوقت ، كانت المأذنتان قد تم تشييدهما بمهارة فائقة فوق باب زويلة ، وهو الحد الجنوبي للمدينة الفاطمية . وهما تكونان جزءا من المسجد الذي أقامه الملك المؤيد والذي سنعرض لمشرفاته الغربية بعد قليل .

وكان باب زويلة ايام المماليك يكون مدخل السلاطين الى المدينة من جهة القلعة ، وعليه كانت تعلق جثث المجرمين الخطرين ، وخاصة اسرى الحرب ، لتكون عبرة للناس . وهو في ذلك يشبه شارع الاستراباد في باريس الذي اقيمت عنده المقاصل .

على مقربة منه كان يقوم سوق الحلويين ، وهم الذين تخصصوا في عمل الحلوى الملونة والدمى المصنوعة من السكر ، ولقد استاء المسلمون المتعصبون لمنظر بيع الحلوى على صورة الانسان او الحيوان او الحصان او الأسد او القط . وروى المقرئزي (١) :

(١) الخطط ٢ : ٩٩ - ١٠٠ .

ولقد رأيت مرة طبقا فيه نقل وعدة شفاف من خزف احمر ، في بعضها لبن ، وفي بعضها أنواع الأجبان ، وفيما بين الشفاف الخيار والموز ، وكل ذلك من السكر المعمول بالصناعة . وكانت ايضا لهم عدة اعمال من هذا النوع يحير الناظر حسننها .

وفي سوق آخر مجاور كانت تباع الآلات الموسيقية مثل القيثارة والعود ، وكان هذا المكان ملتقى اصحاب المجهون والشخصيات الخليفة .

وكثيرا ما حدثنا الرحالة عن ثراء سكان القاهرة ، فذكر احدهم في اسلوب شاعري : « اذا كان لي ان اصف ثراء هذه المدينة فلن يكفيني هذا الكتاب . اذ لو امكن ضم مدن رومة وميلانو وبادوة وفلورنسة واربعة اخرى من المدن بعضها الى بعض ، اقسم انها جميعا لا تحتوي على نصف ثروة القاهرة » . فقد تمتعت القاهرة بحركة تجارية ضخمة نظرا لان البضائع تدفقت عليها من الهند والحبشة وشمال افريقية وآسية الصغرى واوروبا . فكنت ترى بها كميات كبيرة من الحرير ، والاصباغ القرمزية ، والماس المتلألئ ، والاحجار الكريمة ، والزجاج الملون ذي النماذج الجميلة الذي كان يصنع في دمشق في ذلك الوقت ، ثم هناك الاواني الذهبية والفضية والنحاسية قد نقشت في اسلوب شرقي بفن رفيع . ويمكننا ان نضيف ايضا انه وجد في هذه المدينة ، كما هو الحال في

مصر بأسرها ، انواع الورد والازهار والفواكه المختلفة في جميع
الفصول وبأسعار معتدلة .

ويوجد في انحاء المدينة المختلفة اسواق متعددة
وساحات عامة شيدت لأغراض التجارة ، وهي التي
تسمى « قيسارية » ، وقد خصصت كل واحدة منها لبيع
سلعة معينة . وبعضها يبيع الاشياء التي تجلبها القوافل
من الحبشة مثل العقاقير والبغاوات والتبر . وقد كان
هناك سوق خاصة لكل من الاحجار الكريمة والمنسوجات
والاقمشة الثمينة وغيرها من المصنوعات ، وعلى المرء اذا
اراد شراء شيء ان يعرف السوق المختصة به
ومحتوياتها من البضائع . وبعض الاسواق مكشوف
وبعضها مسقوف ، وكانت هناك قوانين مرعية تحكم
هذه الاسواق وقد اعتقد الجميع انها بلغت مستوى عاليا
في القاهرة . وكنت تجد في كل واحدة من هذه
الاسواق جمعا غفيرا من الناس لأنهم اعتقدوا انها المكان
الاصح لهم في الزايدة الجماعية ، كما هي الحال في
بورصات باريس وانتويرب وليون .

ويقول سيمون سيجولي :

تزخر المدينة بكميات كبيرة من البضائع من شتى
الأنواع ، وخاصة التوابل بأنواعها ، التي تجلب من بلاد
الهند عبر المحيط والبحر الأحمر ، ثم تفرغ عند ميناء

الطور الذي يقع على مسافة خمسة عشر ميلا أسفل
جبل سيناء . وهناك وفرة من السكر الأبيض كالثلج ،
والصلب كالحجر ، وهو خير سكر في العالم . وتنقل
البضائع ، بعد تفريغها في هذا الميناء ، على ظهور الجمال
عبر الصحراء الى القاهرة . وتستغرق هذه الرحلة
ثلاثة عشر يوما لا يرى اثناءها بيت او جدار ، وكل ما
يرى هو الجبل والسهل الرملي تغطيه الحجارة
والحصى .

ويحلو للمقريزي ان يطيل الحديث في وصف رخاء اسواق
القاهرة ، ولكن كل جملة من كلامه تنتهي بعبارة من الاسى تذكر
بزوال معظم الدكاكين . وكم تألم مؤرخنا للمنظر الحزين الذي
كانت عليه الاسواق في أيامه - في منتصف القرن الخامس
عشر - حين أصبحت « أوحش من وتد في قاع (١) » . وهو
تصوير صحيح . فنحن نلاحظ ، في القرن الخامس عشر ،
انحطاط جميع الصناعات الفنية واختفاء بعضها تماما مثل
صناعة الزجاج المطلي بالميناء والنحاس المطعم . ومع ذلك ،
فمن المفيد ان نورد وصف ليو الافريقي (وهو ابو الحسن
الوزان الفاسي) الذي لا يخلو من حماسة في الربع الاول من
القرن السادس عشر :

تمتلئ المدينة بالصناع والتجار ، ويكثر بصفة

(١) الخطط : ٢ : ٩٦ .

خاصة في شارع يمتد بين باب النصر وباب زويلة :
فهنا يقيم اكثر نبلاء القاهرة . ويوجد في هذا الطريق
عدد من المدارس التي تثير الاعجاب بسبب حجمها
وارتفاعها وزخرفتها ، كما يوجد ايضا عدد من المساجد
الفسيحة الرائعة الجمال . وهناك ايضا عدد من
الحمامات العامة التي بنيت بفن معماري رفيع .

ويضم احد الاحياء ، وهو الذي يسمى بين القصرين ،
محلات تباع اللحم المطهو ، ويبلغ عددها ستون محلا
تقريبا، مزودة بأطباق من الصفيح . وفي محلات اخرى،
يباع ماء الزهر وماء الورد المعروف بطيب مذاقه ، ولهذا
تقبل عليه الاسر الكبيرة . وهو يحفظ في قنار من
الزجاج او في علب من الصفيح مزينة برسوم فنية .
وهناك حوانيت اخرى تختص ببيع انواع ممتازة من
الحلوى تختلف عن تلك التي تباع عادة في اوروبة .
وهناك نوعان من هذه الحلوى ، نوع يصنع من العسل
 وآخر يصنع من السكر . ويأتي بعد ذلك تجار الفاكهة
الذين يبيعون الفواكه السورية التي لا تنمو في مصر
مثل الكمثرى (الاجاص) والسفرجل والرمال . ويتخلل
هذه الحوانيت محال اخرى تباع المقلبات من البيض
والجبين . وعلى مقربة منها منطقة يشغلها بعض
اصحاب الحرف الرفيعة . وبعد ذلك توجد المدرسة
الجديدة التي بناها السلطان الفوري ، وبعد المدرسة

توجد « فنادق » المنسوجات (اي اسواقها) وكل فندق يشتمل على عدد كبير من الحوانيت . ففي الفندق الاول ، تباع الاقمشة الاجنبية من احسن الانواع ، مثل تلك التي تأتي من بعلبك ، وهي نسيج قطني رفيع ، والمنسوجات التي تأتي من الموصل ، وهي التي حازت اعجاب الناس بسبب رقتها ومتانتها ويستخدمها عليه القوم ورؤسائهم لقمصانهم وعمائمهم . وبعد ذلك تأتي الفنادق التي تباع فيها اجمل الاقمشة الابطالية مثل الحرير الدمقس والمخمل والتفتاه والبروكار . واؤكد لك بانني لم ار مثيلا لها في ايطالية حيث صنعت . وبعد ذلك تأتي فنادق المنسوجات الصوفية التي تأتي من جميع الدول الاوروبية ، فاقمشة من البندقية وميورقة وهولندية . وهناك مكان لبيع الاقمشة المصنوعة من وبر الجمال . وشيئا فشيئا نصل الى باب زويلة ، حيث يوجد عدد كبير ايضا من الصانع . وبجانب هذا الطريق ، نرى فندقا يدعى خان الخطيلي حيث التجار الفرس ، ويبدو هذا الفندق كقصر عظيم ، فهو مرتفع البناء متينه ويتكون من ثلاثة طوابق . وفي الطابق السفلي يستقبل التجار زبائنهم ويبيعون البضائع الثمينة . ولا تجد في هذا الفندق الا اثرياء التجار الذين يبيعون التوابل والاحجار الكريمة والاقمشة الهندية الثمينة .

وعلى الجانب الآخر من الشارع الرئيسي ، يوجد

جزء خاص بتجار الروائح العطرية الذين يبيعون الزبد والمسك والعنبر واللبان الجاوي . وتوجد هذه المنتجات بوفرة بحيث انك اذا اردت ان تشتري درهم مسك من تاجر أراك مائة رطل منه . وهذا أمر عجيب . والمنطقة التي يباع فيها الورق المصقول الجميل تتاخم هذا الشارع الرئيس ، ويبيع تجار هذا الورق ايضا الاحجار الكريمة . وبعض الاشخاص يحملونها من محل الى محل لعرضها للبيع لأكثر من مزاييد .

ويقع ايضا على هذا الطريق الرئيس منطقة صائفي الذهب ، وهم جماعة من اليهود الذين تتركز في ايديهم ثروة كبيرة . وفي منطقة اخرى ، اتخذ تجار الاشياء المستعملة سوقا لهم . وهم يبيعون اقمشة من انواع ممتازة باعها لهم أهل المدينة وعلية القوم فيها . ولن تجد هنا ملابس وأردية مستعملة وانما قطعاً من افخر المنسوجات وأقيمها .

ويضيف ليو الافريقي بعض التفاصيل التي تصور لنا مجتمعاً متماسكاً كأعضاء الجسم الواحد :

واذا ما حدث وانتج احد الصانع عملاً جميلاً ماهراً لم ير مثيل له من قبل ، كان يرتدي وداء من الحرير ويطاف به بين الحوانيت ، يصحبه الموسيقيون فيما

هو أشبه بموكب النصر ، ويعطيه كل شخص بعض المال . ولقد رأيت في القاهرة احد هذه الموكب التشريفية لرجل صنع سلسلة لبرغوث احتفظ به مقيدا على قطعة من الورق . كما رأيت احد اعمال القوة العظيمة قام بها أحد السقائين الذين يسيرون في الشوارع حاملين قربا من الجلد تتدلى من أعناقهم . فقد تراهن مع شخص آخر ان يحمل قرية عجل مملوءة بالماء تشد اليه بسلسلة من الحديد . وفعلا استمر هذا الرجل طيلة سبعة أيام متتابة من الصباح الى المساء يحمل هذه القرية التي علقت بسلسلة على كتفه العاري ، ففاز بالرهان ، وحاز شرف موكب نصر عظيم تصحبه الموسيقى وجميع السقائين في القاهرة الذين بلغ عددهم ثلاثة آلاف سقاء .

الأعياد والأفراح

٧

في المناسبات السعيدة ، تدق الطبول من القلعة . فتنزين
المدينة بالرايات والبنود لمدة سبعة ايام ، ويسمح للأهالي
بالانطلاق التام في مرح جنوني .

وتعلق في هذه المناسبات الرايات والحلل والمناديل
والاقمشة الثمينة الملونة والبيضاء ، وكذلك الستور من المخمل
والحرير من النوافذ في عرض لا مثيل له من الروعة والجمال .
وبعض الناس يعرضون الدروع والقسي والخوذ والزرديات
وحتى الحلي . وهذا يذكرنا بعبارة فرواسار : « واعلم ان
شارع سان دنيس بطوله كانت تزينه اعداد لا حصر لها من
الرايات من الاقمشة الحريرية الثمينة حتى ليحسب الانسان
انها لا تكلف صاحبها شيئاً او انه في الاسكندرية او في
دمشق » . ويمكننا ان نضيف الى هذا القول عبارة الرحالة
ابن بطوطة : « شاهدهت بها مرة فرجة بسبب برء الملك الناصر
من كسر أصاب يده ، فزين كل أهل سوق سوقهم وعلقوا
بحوانيتهم الحلل والحلي وثياب الحرير . وبقوا على ذلك
أياماً » . كما يزينون داخل متاجرهم بالاقمشة ، وينشرون
الحرائر على الارض في الطرقات . وفي أماكن متفرقة من
المدينة ، تقام احواض مليئة بالشراب الذي يقدم للمارة .

وعلى طول طريق الموكب ، تقام المنصات التي تعزف عليها فرق موسيقية من طبالين وزمارين ومغنين . ومن اسطح البيوت والشرفات تنطلق زغاريد النساء المرحة التي يصفها لنا بير بيلون على النحو التالي : « يفتح الفم الى اقصى اتساعه فينبعث منه صوت نشاز ؛ ويحرك اللسان بين الاسنان ثم يسحب الى الخلف نحو سقف الحلق فتنتطق صرخة حادة تشبه صيحات القرويات اللائي يعن اللبن في باريس » .

وفي مناسبات معينة مثل الانتصارات الحربية او قران بعض الاميرات او كبار رجال الحاشية ، تشارك الاسواق في المهرجانات ، فتزين الدكاكين بالرايات وتضاء طوال الليل . وتبدو المدينة متوهجة بسبب العدد الذي لا حصر له من المصابيح التي تضاء في كل مكان . فهناك الثريات الزجاجية الكبيرة ، وآلاف القناديل والمصابيح ذات الضوء الخافت ، والصواريخ . ولعل المسؤولية الكبرى في هذه الاحتفالات تقع على عاتق اغنياء طوائف الحرف . فنحن نعرف انه في زمن الخلفاء الفاطميين ، كان تجار الجواهر ورجال المصارف وصائغو الذهب وتجار المنسوجات مسؤولين عن تعليق الرايات والبنود على طول طريق موكب الاحتفال .

ولنعرض الآن لوصف احد هذه الاحتفالات . يسير على رأس الموكب ثلة من الجنود وتتبعهم جوقة من الموسيقيين ، بعضهم ينفخ في الابواق النحاسية التي يقابل اصواتها القوية

صوت الناي الخافت الحزين المنبعث من جوقة أخرى .
وعلى مسافة منهم يسير المنشدون ، يرددون الاشعار على
ضربات الدفوف الخفيفة .

وكان هناك تنظيم رسمي دقيق في تحديد اماكن الضباط
الذين يسيرون امام السلطان ، فكان النظارة يرونهم يتتابعون
على هذا النحو: عشرة من الجنود المشاة شاهرين البلط ، يتبعهم
على صهوتي جوادين اشهبين اثنان من الفلمان ، يلبسان
طاقيتين صفراوين وثوبين من الحرير الاصفر المطرز بالذهب ،
وتخفق فوقهما رايتان مشغولتان بالذهب مثبتتان خلفهما عند
نهاية سرج من الجلد المغطى بالذهب ايضا ، حتى ليحسب
الانسان انه من صنع صائغ . كانت هذه بعض شارات
السلطنة ، ولذلك يجمها اثنان من اهم رجال الدولة . وبعد
ذلك يظهر السلطان ممتطيا صهوة جواد مطعم يلمع معدنه
تحت أشعة الشمس وقد غطيت عنقه بقطعة من الحرير الاصفر
المشغول بالذهب . وتمثل ملابس السلطان بقعة قائمة في
وسط هذا اللون الفاقع . فتغطي رأسه عمامة من الحرير
الاسود تتدلى عنبتها على كتفيه كشرائط العلم . ويلبسن
السلطان رداء طويلا من الحرير الاسود له أكمام واسعة .
والنسيج كله من لون واحد بلا تطريز . ويتدلى على جانبه
الايسر سيف معلق من حزام يدور حول كتفه الايمن . ويرفع
احد كبار رجال القصر فوق رأس السلطان شارة أخرى من
شارات السلطنة ، وهي مظلة صفراء مطرزة بالذهب عليها

كرة ذهبية قد وقف عليها طائر ذهبي . ويسير على يمين السلطان شاب طويل القامة متين البنية ذو مظهر عسكري يحمل في يده هراوة أو عصا ضخمة تنتهي بطرف مذهب . ويحمل أمام الجنود عدد من الاعلام المصنوعة من الحرير الذي تتخلله بعض خيوط ذهبية . ويوجد فوق ساريات الاعلام قطع من الفراء .

في يوم ٣٠ نيسان (ابريل) سنة ١٥٠٠ ، ذهب السلطان ليرأس مأدبة الافطار في شهر رمضان . فامتطى صهوة فرس أبيض يغطيه سرج ابيض فضي ، بينما ارتدى ملابس من الحرير الابيض وحذاء ابيض ينتهي بمهماز مغطى بطبقة من الفضة ؛ وحتى نعل حدائه كان من الجلد الابيض ، وغطاء راسه من الصوف الابيض . وكان ذلك في الواقع زيا غريبا ؛ وتشاءم الناس من ملابسه البيضاء ، ثم حدث فعلا أن عزل السلطان بعد ذلك بقليل .

وكان الموكب يضم في بعض الاحيان كبار الاسرى ، بعضهم يمشي وبعضهم يجلس على دواب ، وجميعهم مقيدون بالسلاسل . ويسير خلفهم الجنود حاملين اسلاب الحرب التي غنمت من الاعداء ، وخاصة طبولهم التي مزقت وراياتهم التي تحمل منكسة الى اسفل رمزا للهزيمة .

وقد بقي لنا وصف يوم لاحتفال كبير حين عرض أمير من

أسرة علي دولات الذي كان قد أسر بعد معركة ضارية . حدث ذلك في شهر آب (أغسطس) سنة ١٤٧٢ ، أيام الحمر القائط . أمر السلطان بأن يدهن باب النصر وباب زويلة باللون الأبيض وأن يزينا بشعار السلطان . وزينت المدينة بالرايات الجميلة ، وأصبحت في حالة من التطلع نظرا لأن كل شخص كان يريد رؤية الموكب عند مروره . وبلغ إيجار منزل يقع على طريق الموكب أربعة دنانير أشرفية ، وإيجار مكان في دكان دينارا أشرفيا . وأركب الأمير المهزوم فوق حصان ، لابسا رداء أسود وعمامة ضخمة ، وحول رقبته طوق من الحديد متصل بسلسلة ثقيلة أمسك بها ضابط راكب إلى جانبه . وكان هذا الموكب المهيب يتكوّن من الضباط الذين اشتركوا في الحملة ، تتبعهم وحداتهم . وازدحم جميع سكان القاهرة لرؤية هذا المنظر ، بينما اصطف المنشدون بين باب النصر وأسفل القلعة . وسمعت دقات الطبول عند القلعة ، واصطف الأطباء والزمارون أمام الدكاكين . وقدم الأسير إلى السلطان داخل القلعة ، ثم نزع عنه رداؤه وألبس رداء أبيض وأركب جملا ، ووضع حول عنقه طوق من الحديد تتصل به عصا من الحديد تنتهي بجرس . أما أقاربه الذين شاركوه مصيره فقد وضعوا عراة الرأس والجسم فوق جمال . وخرج الأسرى من القلعة على هذه الحال ، يسير أمامهم منادون يصيحون : « هذا هو جزاء كل من خرج على السلطان » . حتى إذا وصلوا إلى باب زويلة ، شنق الأمير وعلق في وسط الباب ، وظل جسده هناك يوما وليلة ، ثم أنزل ولف في كفن ودفن في شمال

المدينة . وبعد ذلك رفعت الرايات والزينات .

وهناك ايضا موكب الرؤية الذي يتألف من الفقهاء الذين يخرجون للتأكد من ثبوت رؤية هلال شهر رمضان . وكان هذا الموكب يحاط بعدد كبير من القناديل المستديرة والمشاعل والشموع . وتضاء ايضا امام الحوائيت الثريات والشموع والمباخر التي تنتشر منها رائحة زكية .

ومن احب المشاهد لنفوس الجماهير موكب المحمل « وهو هودج رائع مزين اجمل زينة ، يوضع فوق جمل قوي ، وهو مظهر من مظاهر السيادة . فان منظره الشامخ كان يبدو بارزا وسط القافلة المصرية عند عبورها الجزيرة العربية . وكان حكام الحجاز ينحنون امامه ، كما يخلي له سائر القوافل الطريق ليمر » .

ويوم دوران المحمل يوم مشهود . وهذه صورة عن كيفية الاحتفال به :

يركب قضاة القضاة الاربعة ووكيل بيت المال والمحاسب الجياد ، ويركب معهم اعلام الفقهاء وامناء الرؤساء وارباب الدولة . ويقصدون جميعا باب القلعة ، فيخرج اليهم المحمل على جمل ، وامامه الامير المعين لسفر الحجاز في تلك السنة ، ومعه عسكريه والسقاؤون على جمالهم . ويجتمع لذلك اصناف الناس

... من رجال ونساء . ثم يطوفون بالمجمل وجميع من ذكرنا
معه بمدينة القاهرة ومصر ، والحدادة يحدون أمامهم .

وسرعان ما يحدث هرج ومرج ؛ فترى جنودا وقد ارتدوا
ملابس تنكرية مخيفة يطلبون المال من الجمهور المرح ، وكان
هؤلاء يسمون شياطين الحمل ، اذ كانوا يرتكبون كثيرا من
الحماقات ، حتى ان الحكومة قررت منع هذه العروض .
وبعد اعوام كثيرة في نهاية القرن الخامس عشر ، كان يتقدم
الحمل ثلة من حملة الرماح في ملابس حمراء ويلعبون لعبة
الحرب .

واحيانا يدعى الناس للمشاركة في حفلات القران والختان
التي كانت تزين تزيينا جميلا مبالغا فيه بالمشاعل ، وترش
الروائح العطرية ، ويحرق البخور ، وتمد موائد حافلة في
هذه الاحتفالات . ومثال ذلك ما حدث في شهر آذار (مارس)
سنة ١٥٠١ حين خرجت اميرة الى القلعة محمولة في هودج
مطرز بالذهب ، يتقدمها قواد الحرس ، والامناء ، وحرس
الشرف في ملابسهم الرسمية ، وحاكم المدينة ، وقائد
الجيش ، والمشرف على حريم السلطان ، وكبار موظفي الدولة ،
ورئيس الخصيان . واشتملت معية الاميرة ايضا على مائتين
من السيدات من نساء الضباط والموظفين . وحمل على رأس
الموكب الجهاز الذي تقدم به السلطان والذي اشتمل على
ملابس وطاس وابريق من البلور وخيمة مطرزة بالذهب .

وبعض مواكب الجنائز كانت تستلقت النظر بمن فيها
من النذابات المحترفات وقازعي الدفوف .

والى جانب مواكب النصر ، هناك مواكب اخرى للتشهير .
فالمجرمون الذين يخالفون القانون العام كانوا يوضعون على
ظهور الجمال ويطاف بهم في شوارع القاهرة . وعادة ، يتجمع
جمهور غفير على طول الطريق ، بينما تصدر من النساء
اصوات الاستنكار ضد هؤلاء المجرمين عند مرورهم . واحيانا
يجلد المجرم علنا ويوضع على حمار ويطاف به عاري الراس
والجسد في شوارع المدينة .

وكان البدو الذين يعاقبون بسبب جرائمهم يعاملون معاملة
قاسية . فالرجال منهم توضع حول رقابهم اطواق من
الحديد ، بينما يقيد النساء والاطفال بالحبال .

وكان المخذ الذي يدان بارتكاب جريمة ضد الدين يوضع
على جمل ويطاف به في شوارع المدينة ، ثم يشنق بالقرب من
مدرسة الملك الصالح ايوب في منطقة بين القصرين .

وكانت تدهن وجوه النساء المنحرفات ذوات السمعية
السيئة بالهباي ويطاف بهن في الشوارع على حمير .

يبدو انه لم تشيد ابنية خاصة للملاهي الجماعية . فقد

أخذ العالم الاسلامي الحمامات العامة مثلا عن الحضارات السابقة ، ولكنك لا تجد في اي مدينة اسلامية ابنية مثيثة لاسباب التسلية الشعبية كالسرح أو السيرك .

ولكن منظر وقوف الناس في الشوارع مشدوهين في تطلع لا يتحدد بالمكان أو الزمان ، وقد وصلتنا اوصاف عديدة من بلاد مختلفة غير مصر عن الجماهير التي تلتف حول مدرب يلعب دبه أو قرداتي يرقص قروده على ذقات الطبول . وهذه الجماهير تستثار لرجل مجذوب مخادع أو لصانع معجزات دعي . ويذكر كتاب العرب القدماء أخبار رجال يستطيعون ابتلاع السيوف والرمل والحصى والزجاج المجروش ، وآخرون يمكنهم تحطيم الاشياء أو اخفاءها ثم يعيدونها الى حالتها الاولى أمام امين المتفرجين المشدوهين . وذكر ابن خلدون - دون أن يؤكد صحة الخبر - أنه سمع أن بالقاهرة من يتخصصون في تعليم الطيور الكلام وتدريب القروود حتى يمكنها القيام بالعباب سحرية تعتمد على خفة اليد دون أن يفتن اليها النظارة ، ومنهم من يعلم الناس الغناء والرقص والسير على الحبل المشدود في الهواء .

ولا ريب أن هناك بعض الاماكن التي تصلح أكثر من غيرها لاسباب التسلية الشعبية ، وتؤمها طبقات الشعب المختلفة . فنسمع أن سفلة الناس من الماكن والعاهرات كانوا يبحثون عن التسلية في باب اللوق ، حيث يوجد السجرة والبهلوانات

والرجال الذين يدربون الجمال والحمير والكلاب والقروء
على الرقص ، والمصارعون الجوالون والمنجمون الذين يجلسون
وراء صناديق من الرمل ، ولاعبو الارجوز « الذين يحركون
دمى من وراء ستار » (١) . ثم هناك ايضا المبارزون المهرة الذين
يستطيعون استخدام جميع انواع الاسلحة ، وخاصة الهراوة ،
والموسيقيون الذين يرافقون منشدي أغاني الشنجو والشجن .
وينافس مدربو الحيوان الحواة والبهلوانات . وفي ذاك
يقول بدير بيلون :

ويوجد بين العرب في القاهرة عدد كبير من القرداتية
والطبالين ؛ وأثناء لعبهم يقرعون طبلة بأصابعهم ،
ويغنون على صوت هذه الطبلة (وهي الرق) المركب
فيها عدد من الحلقات النحاسية ، ويمسكونها باليد
اليسرى ويدقونها باليد اليمنى . وهم على جانب كبير
من المهارة في تعليم الاعيب القروء لأنواع مختلفة من
الحيوانات ، يعلمونها للجدي أو غيره . من ذلك أنهم
يضعون سرجا على ظهر الجدي ويركبون عليه القرد ،
ويعلمون الجدي القفز كالحصان . وهم يعلمون الحمار
كيف يمثل أنه يموت وأن يتمرغ في الأرض وأن يصطنع
أنه يرفس القروء التي تتسلق ظهره . ولديهم أيضا من

(١) انظر الرحلة العياشية لعبدالله بن محمد بن ابي بكر
العياشي ١ : ١٥٥ (ط . فاس ١٣١٦ هـ) .

الحيوانات المدربة أنثى القروء ، ولكن قلما ترى لأنه لا يمكن الاعتماد عليها . ومعهم أيضا نوع الغوريلا المكمنة ؛ وهي وديعة حسنة التدريب الى درجة أنها تنقل من شخص الى آخر ممن يشاهدون الطبال وهو يلعب ؛ وتمد يدها دلالة على طلب النقود ، ثم تحمل النقود وتسلمها لصاحبها .

اما الحواة (١) ، فكانوا يسرون في الطرقات حاملين اكياسا (تعرف بالجرباب) مليئة بالثعابين التي كان في استطاعتهم ان يجعلوها تقوم بحيل غريبة مختلفة . فعن طريق النفخ ، يمكنهم ان يجعلوها تصطنع الموت ؛ وبالنفخ مرة ثانية ، يحيونها ويجعلونها تقوم بأعمال شيطانية . وقد رأى أحد الافراد رجلا يأخذ حية بيده المجردة من قاع قدر كبير يحتوي على عدد من هذه الثعابين ، ثم عرى رأسه ووضع الحية عليها ثم غطاها بطاقيته ؛ ثم رفعها ووضعها على صدره ولفها حول عنقه دون ان تصيبه الحية بأي اذى . وبعد ذلك وضع دجاجة بالقرب من الحية ذاتها فلدغتها وماتت بعد دقائق قليلة . وفي نهاية العرض ، تناول الرجل الحية من رقبتها واكلها مبتدئا بالذيل ، حتى أتى عليها بأسرها في سهولة ودون اي امتعاض كشخص يأكل جزرة أو عودا من الكرفس .

(١) انظر اخبار الحواة والبهلوانات في زبدة كشف الممالك :

٣٢٠ .

وكان للبهلولوات جمهورهم ؛ ومنهم من رؤي فوق بركة ماء في القاهرة عندما تسلق الحبال وسار عليها بظهره مقيد اليدين مغمض العينين . وكان هناك آخر شد حبالا بين أعلى طبقات القلعة واحدى المنارات على مسافة ميل ومشى على الجبل مستخدما يديه ورجليه ، وهو تارة يطلق نفطا ، وتارة يرمي بقوس قوي كان بيده . ولما وصل الى نصف الجبل ، ألقى نفسه . فصاح القوم كلهم ، وظنوا أنه سيهشم الى أشلاء . ولكن تلك لم تكن سوى خيلة بارعة ، اذ كان ممسكا في يده بطرف جبل دقيق مربوط بغناية الى الجبل المنسوب ، فتعلق به وصعد .

يظهر الكتاب العرب نوعا من الاستياء عندما يتحدثون عن الاعمال الفظيعة التي كانت ترتكب علانية في عيد رأس السنة القبطية (وهو عيد النوروز) . فكان يختار أمير يسمى أمير النوروز ، يطوف هو وأتباعه على ظهور الجمال بمنازل كبار رجال المدينة . وكان يرسل في استدعاء أولئك الذين يدعي انهم في منطقة نفوذه ليمثلوا أمامه . وهو يفعل هذا كله على سبيل المزاح ، ويقنع بالميسور من الهبات .

ويجتمع الغنون والفاسقات تحت قصر اللؤلؤة بحيث يشاهدهم الخليفة ، وبأيديهم الملاهي ، وترتفع الاصوات ويشرب الخمر والمزج شربا ظاهرا بينهم وفي الطرقات ، ويتراش الناس بالماء وبالماء والخمر وبالماء مخزوجا

بالاقدار ، وان غلط مستور وخرج من بيته لقيه من
يرشه ويفسد ثيابه ويستخف بجرمته ، فاما ان يقدي
نفسه واما ان يقضح (١) .

وفي وقت معين من السنة لا يمكن تحديده ، كان الناس
يتقاذفون بالبيض السلوق ، ويضربون المسارة بالسياط .
وحاولت الحكومة عند نهاية القرن الرابع عشر ان تحدد هذه
الاحتفالات في مناطق معينة ؛ ولكن هذا النوع من المرح استمر
على طول القنوات والبرك ونهر النيل وبعض الشوارع
الفسيحة . ويتفق الجميع على ان القوم كانوا يسرفون في
لهوهم ومرحهم في يوم رأس السنة ، وأن اشياء كانت ترتكب
وراء حدود الوقار والاحتشام ، وشاع المجون والخلاعة في
غير ضابط . ونادرا ما مر ذلك اليوم دون ان يقتل عدد من
الافراد .

وكان الاحتفال بوفاء النيل (عيد الشهيد) من ابهج الاعياد
عند المصريين . فعند اعلان أن النهر قد بلغ أعلى منسوب ،
يتجمع أهالي القاهرة - حسب ما يذكر المقرئزي (٢) -
« وينصبون الخيم على شطوط النيل وفي الجزائر . ولا يبقى
مغن ولا مغنية ولا صاحب لهو ولا رب ملعوب ولا بغي ولا
مخنث ولا ماجن . . . الا ويخرج لهذا العيد ، . . . وتصرف

(١) الخطط ١ : ٢٦٩ .

(٢) الخطط ١ : ٦٩ .

أموال لا تنحصر ، ويتجاهر هناك بما لا يحتمل من المعاصي
والفسوق » .

ويؤكد الرحالة الاوروبيون صحة ما يذكره مؤرخنا العربي
اليانس ، فيقول تريفيزانو :

لقد فتح الخليج ، اذ كانت العادة أنه عندما يبلغ
فيضان النيل منسوباً معيناً يرسل السلطان اثنين من
كبار موظفيه مع اتباعهما الى حدود المدينة لفتح الخليج
وترك الماء يغمر الارض . ويخرج جمهور كبير من الناس
في هذه المناسبة ، التي كانت أجمل أعياد السنة .
فتقبل جميع الدكاكين ويبدو على الناس جميعاً فرح
عظيم وهم يشاهدون الماء يتدفق الى الخليج .

وبعد ذلك بعدة اعوام ، كتب ليو الافريقي في حماسة
مماثلة يقول :

يقام في القاهرة في الايام الاولى من الفيضان احتفال
كبير . وتسمع فيه ضجة كبيرة من الصياح والموسيقى
حتى يظن أن المدينة قد انقلبت رأساً على عقب . فتتخذ
كل أسرة لنفسها قارباً تزينه بأرق الأقمشة وأجمل
السجاجيد ، وتتزود بكمية من الطعام والحلوى
والمشاعل التي تضاء بالشمع . وينتقل جميع السكان
الى القوارب ، ويمتعون انفسهم بقدر ما يستطيعون .

ويشارك السلطان نفسه وسائر الاعيان وكبار الموظفين في هذا الاحتفال ؛ فيذهب الى خليج يقال له الخليج الاكبر يحيط به سد . وهناك يتناول السلطان فأسا ويحدث صدعا في السد ، ويفعل سائر معية السلطان الشيء ذاته بحيث ينهار الجزء من السد الذي يحجز الماء . عند ذلك ، يندفع النيل بعنف الى الخليج ، ومنه ينساب الى القنوات الاخرى في الضواحي والمدينة . المسورة . وتصبح القاهرة نتيجة لذلك في هذا اليوم أشبه بمدينة البندقية ، فمن الممكن ان تنتقل بقارب بين جميع أرجاء مصر وأقاليمها . وتستمر الاحتفالات سبعة أيام وسبع ليالٍ ، بحيث ان ما يكسبه التاجر طوال السنة ينفقه في هذا الاسبوع على الطعام والحلويات والمشاعل والعطور والموسيقين .

كانت جزيرة الروضة المواجهة لمصر القديمة مركزا للهو والنزهة ، حيث وجدت حدائق ومنتزهات كثيرة قصدها أهالي القاهرة ومصر القديمة للشراب والطعام والمتعة . وكانت تقام هناك مهرجانات ليلية على ضفاف بركة الرطلي التي كانت تضاء بأنوار وهاجة ، فيهرع نحوها الناس ويزدحمون على الطريق لمشاهدوا ذلك المنظر . وكانت تقدم للناس عروض مختلفة مثل تمثيلات خيال الظل أو الحلقات الغنائية . وبعبارة أخرى ، كانت ليالي حافلة بالملذات التي جذبت جمهورا كبيرا .

وفي سنة ١٤٧٦ ، أسس حي من أمتع أحياء القاهرة ، وكثيرا ما أعجب به الرحالة في العصور التالية . كان قبل ذلك مجرد سهل ملحي قاحل . تتخلله بعض الكثبان ، حيث نمت بعض أشجار التمر حنة والصمغ العربي . وأصبح المكان تدريجا خاليا ومهجورا ومهملا . في هذا الوقت ، قرر أحد كبار موظفي دولة المماليك ، ويسمى أزبك ، أن يشيد هناك حظيرة لجمالته . وعند انتهائها ، خطرت له فكرة إنشاء منزل له في ذلك الموقع ، فبنى عددا من الغرف وردهة للاستقبال ومقصورة . واحضر عددا من الثيران والمحاريث لازالة الكثبان التي في الموقع ، وحفر بركة وأحاطها بمنزله . وسرعان ما جدا خدوه اثرياء أهل القاهرة وأخذوا في بناء بيوت فخمة هناك . وأقبل الناس على الإقامة في هذا الحي الذي أطلق عليه اسم مؤسسه وظل الى اليوم يسمى الازبكية .

وحين يبلغ النيل أعلى منسوب له ، كان الخليج يفتح رسميا . ويفيض الماء الى بركة الازبكية . وكان يقام في هذه المناسبة احتفال كبير يحضره كبار الضباط وأعداد غفيرة من الناس . والى جانب المأدبة الرسمية ، كانت تطلق الصواريخ ، وتسير القوارب الكثيرة في البركة . ويخبرنا مؤرخ عربي (١) بأنه كانت تقام احتفالات كبيرة تنفق فيها على الشراب اموال كثيرة بجنون .

(١) هو المقرئزي ؛ انظر الخطط ١ : ٦٩ .

ويقدم لنا رحالة متأخر هذا الوصف لبركة الازيكية :

انها عبارة عن سهل يقع في تجويف على شكل صدفة بحرية تحيط بها من كل مكان المنازل الفاخرة . ومع ان المنازل زادت من جمال الموقع ، فان المكان ذاته يكون منظرا متنوعا خلابا . فليس هناك منظر اكثر جمالا من هذه الارض التي تكون حوضا كبيرا يمتلئ بالماء مدة ثمانية اشهر ، ويصبح حديقة مشرقة طوال الاشهر الاربعة الاخرى . ففي شهر ايلول (سبتمبر) ، يستطيع المرء ان يركب قاربا فيها ، وفي شهر نيسان (ابريل) ، تتحول الى ارض خضراء تغطيها الازهار . وعندما تغطيها مياه الفيضان ، تسير فيها قوارب شراعية مذهبة ، يركبها افراد من علية القوم في المساء . وعلى شواطئ البركة ، يزدحم نظارة كثيرون يلتمسون الهواء العليل والراحة من حرارة الشمس . وعندما ينحسر الماء ، تتزين الارض بجمالها الطبيعي ، فتري بها اشجار النخيل والتمر خنة ، وانواعا شتى من الخضرة والفواكه التي تكون جميعا اجمل منظر متصور . هذه حدائق مسحورة حقا ، فهي تنبت في المكان ذاته الذي كانت تسير فيه القوارب قبل ذلك بأشهر قليلة .

لم تقتصر الاحتفالات على النيل وبركة الازيكية على مرض الصواريخ بل عرضت ايضا الاضواء الرائعة التي وصفها الكتاب العرب . وقد استمر هذا التقليد لان فن الاضاءة

بلغ درجة عالية من الاتقان . فكانت الاضواء تشكل في صورة القلاع والقصور وكذلك المعارك . وكتب في ذلك رحالة اوروبي :

كان على واجهة كل منزل شكل معين ؛ بعض هذه الاشكال يمثل اجسام الحيوان ، وبعضها الآخر على شكل مربعات على طراز الارابيسك ، على نحو ما هو مشاهد في تصميم السجاجيد العربية . والريح لا تطفئ هذه المصابيح التي تستمر مشتعلة طوال الليل . وكان باستطاعة المرء ان يرى على النهر سفينتين كبيرتين تحملان هرمين مرتفعين من الخشب تغطيهما تماما مصابيح قريبة من بعضها البعض . ونظرا لان النيل كان مرتفعا جدا ، فقد كانا على مستوى ضفتي النهر ويمكن رؤيتهما من عدد من المواضع الى اسفل القاعدتين . وكانت مصابيح هذين الهرمين تتغير بصورة مستمرة . كان بعضها يهبط بينما يحل محلها مصابيح اخرى بسرعة كبيرة ؛ وآنا آخر تتحرك من جانب الى آخر . وقد نتج عن هذه التغيرات التي تمت بدقة كاملة مناظر ضوئية رائعة . ولا يستطيع احد ممن يراها ان يدرك انها كانت متصلة بروافع صغيرة او انها اشتملت على رجال داخل الهيكل يحركونها . وغير بعيد من الهرمين وجد قارب ثالث حمل قصرا صنع من الالعب النارية وملئ بالقذائف والصواريخ ، بحيث انها شكلت منظرا خلايا .

ويخبرنا ليو الافريقي انه كان من عادة سكان القاهرة أن يحتشدوا في ساحة الازبكية كل يوم جمعة بعد الخطبة والصلاة ، لانه كانت في هذه الضاحية بعض مظاهر اللهو غير البريئة ، كتلك التي تقدمها الحانات والنساء ذوات السمعة السيئة . وكنت ترى في هذه الساحة كثيرا من اهل التفنن والتسلية ، وخاصة اولئك الذين يعرضون رقصات الجمال والحمير والكلاب . وهناك رجال يتبارزون بالسيوف او بالعصي ، وآخرون ينشدون ملاحم فتوح العرب لمصر . كما كثرت أعمال الجنون والاحتفال والابتدال التي وجد فيها الناس بعض التسلية .

المنشآت المدنية

٨

سبق لنا أن تحدثنا عن بعض المباني الدينية ، وسوف نرى غيرها ، ولكننا نريد الآن أن نتناول المنشآت التي كانت تخدم أسباب الحياة المدنية بصورة عامة . ونظرا لأن معرفتنا بالماضي ناقصة ، فإننا ندرك الى أي حد تتعرض دراستنا للعصر الاسلامي الأول في مصر للزلل . لقد خطفت لنا المباني القديمة من أعمال الحفر الغائر ما يكشف عن جميع جوانب الحياة اليومية ، فنحن مضطرون الى أن نقصر جهدنا على جمع معلومات ضئيلة مبعثرة هنا وهناك في قراءتنا ، ثم التوفر على تفسيرها بكل ما نملك من معرفة . ولكن ربما كنا في ذلك حريصين أكثر مما ينبغي على معلومات جزئية ، فنخطيء باستنباط قواعد عامة من هذه الحالات الاستثنائية . وقد سبق لفولتير أن قال : « كثيرا ما تؤخذ الحالة الاستثنائية على أنها قاعدة عامة » . وفيما يتعلق بالحياة الخاصة أو الحياة في الأسواق ، فنحن لا نملك سوى رواية أو حتى آراء مضطربة لكتاب متزمطين ينتقدون أشد النقد الأعمال التي أثارت استيائهم ونقمتهم . وهذا غير كاف في الواقع .

يقول أحد كتاب القرن الخامس عشر (١) :

(١) الخطط ١ : ٣٦١ .

وتحوي مصر والقاهرة من الجوامع والمساجد والربط
والمدارس والزوايا والدور العظيمة والمساكن الجلييلة
والمناظر البهجة والقصور الشامخة والبساتين النضرة
والحمامات الفاخرة والقياسر المعمورة بأصناف الأنواع
والأسواق المملوءة مما تشتهي الانفس والخانات المشحونة
بالواردين والفنادق الكاظة بالسكان والترب التي تحكي
القصور ، ما لا يمكن حصره .

نظمت المدينة لتخدم أغراض التجارة بحيث أنه وجدت مبان
مخصصة لخزن البضائع وأخرى لاقامة التجار . وحسب
العصر التاريخي ، او ربما حسب الهدف من البناء ، أطلق على
محطات القوافل هذه الاسم الفارسي « خان » ، او الاسمان
اليونانيان « قيسارية » او « فندق » ، او الاسم العربي
« وكالة » ، الذي اشتق منه في العصور الوسطى كلمة
okelle . وقد انشئ رسميا في العصر الفاطمي في
القرن الثاني عشر « دار الوكالة » ، لاقامة التجار وخاصة
السوريين والعراقيين الذين يحضرون الى مصر لأغراض
التجارة .

ويصف لنا الفندق في نهاية القرن الخامس عشر أحد
الرحالة بهذه الكلمات :

في القاهرة فنادق كبيرة ، تشتمل على شارع تنتشر

فيه صفوف من الدكاكين ذات ثلاثة ابواب او اربعة ،
تقفل وتحرس كل ليلة . وتجند في هذه الفنادق جميع
أنواع البضائع . ويجلس التجار والصناع قريبا من
دكاكينهم ، يعرضون عينات من سلعهم . واذا ما أردت
شراء شيء له قيمته أو أهميته ، صحبوك الى مخازنهم
ليعرضوا عليك ما لديهم من روائع . ورغم أنه قد يبدو
مستحيلا ، فان كل واحد من هذه الفنادق يضم اكثر من
الف مخزن من هذا النوع . وليس هناك شيء في
الدنيا ، حتى اكثرها تفاهة ، الا وتجده في فنادق
القاهرة .

وقد اكتسبت بعض هذه المنشآت شهرة خاصة . فنحن
نعرف مثلا ، عن طريق « الف ليلة وليلة » ، خان منصور
حيث يباع العبيد .

وكانت هذه المنشآت تبنى بطريقة موحدة . فالبناء العام
مربع الشكل يحيط بفناء كبير مرصوف ، وله رواق ذو عقود
تعلوه شرفة . ويشتمل الطابق الأرضي على الحواصل أو
المخازن ، وفي الطابق الذي تعلوه غرف أو ، بمعنى أدق ،
حجرات صغيرة كقلل الرهبان ، ليس بها شيء غير الجدران ،
وكان النزلاء يقومون بفرشها واعداد وجباتهم فيها . وللبناء
باب واحد شبيه بباب قلعة . والهدف من هذا النظام هو
حماية النزلاء من أن يعتدى عليهم أثناء الفتن . ولقد عمل كل

شيء لتشجيع التجارة وحماية البضائع ، فهي خير وسيلة لتحقيق الرخاء الاقتصادي . وهناك فرق واضح بين محطات القوافل ، أو الاسواق المسقوفة ، وبين الاسواق العادية . ففي الاسواق تعرض البضائع في صف واحد وتباع ، أما في محطات القوافل الكبيرة فيوجد عدد من الاروقة المسقوفة ، ويمكن أن يرى الصناع أثناء عملهم في حوانيتهم .

وهناك خان من نوع خاص عند مدخل المدينة شمالي باب الفتوح ، سمح للمسافرين بالنزول فيه مجانا . ونظرا لموقعه في ظاهر المدينة ، فقد تحول الى مستشفى للمرضى بامراض معدية . وهناك خان آخر استخدم كمصرف أودع فيه التجار صناديق المال المملوءة بالذهب والفضة . ولكن نهاية هذه المؤسسة كانت حزينة ؛ فقد استولت الحكومة على الودائع عندما كانت مصر تستعد لمواجهة غزو تيمورلنك . وفي الحي نفسه ، كان هناك خان قوصون أو وكالة قوصون الذي استخدمه التجار السوريون لخزن بضائعهم مثل الزيت والسيرج والصابون والدبس والفسق والجوز واللوز والخرنوب . وكان فندق دار التفاح ، بالقرب من مسجد المؤيد ، أشبه بوكالة كبيرة للفواكه على اختلاف انواعها . كما وجد خان آخر كانت تستخدم إيراداته لفدية أسرى الحرب ، واشتمل على اثني عشر حانوتا ، وخمسة حمامات ، وثمانية وخمسين مخزنا ، وست غرف كبيرة ، وفناء وخمسة زباج ، وخمسا وسبعين حجرة للنزلاء ، وخمسة حمامات في الطوابق

العلوية . ثم ازداد التخصص ، فاصبح أحد هذه المباني ، وكالة باب الجوانية ، يستقبل ما يرد من صنف متجر الشام في البحر ، وما يرد بالبر من تلك البلاد كان يدخل به الى وكالة أخرى ، هي وكالة قوصون .

واكثر الاسواق المسقوفة التي يذكرها المقرئزي - وقد امكن تحقيق مكان تسع عشرة من اثنتين وثلاثين - موجودة في قطاع يشبه مثلثا متساوي الاضلاع ، رأسه يصل جنوبا الى باب زويلة وقاعدته خط شمالي يمتد بين ضريح السلطان الغوري الى الجامع الازهر . وقد اقتصت هذه الاسواق ببيع جميع انواع المنسوجات من صوف وكتان واقمشة شعبية وحرير ثمين وشورة العروس . ولا زال اسما سوق العنبر وسوق العصفري يدلان بوضوح على نوع سلعهما . ومن الاسواق الاخرى ما ضمت صناع الاخفاف والسهام والصناديق . وكان هناك في جوار ضريح السلطان قلاوون خمس اسواق مسقوفة ، وسبع اخرى بالقرب من مسجد الحاكم .

ولدينا فكرة عن الاسماء التي اطلقت على الاسواق في منتصف القرن الخامس عشر بفضل ما يذكره المقرئزي (١) من أن في القاهرة : سبعا وثلاثين قيسارية ، وتسعة عشر فندقا ، وأحد عشر خانا ، وثلاث وكالات .

(١) الخطط ٢ : ٨٦ - ٩٤ .

زادت المدينة الاسلامية في عدد الحمامات التي اخذتها عن الحضارات القديمة دون اي تغيير في خطة بنائها : فهناك غرفة الملابس والاستراحة ، وحمام بخار ، وفي بعض الاحيان غرفة متوسطة الحرارة . ولعب الحمام دورا مزدوجا ، صحينا ودينيا ، في جميع البلاد الاسلامية . وقد اورد لنا الطبيب عبد اللطيف البغدادي ، الذي كتب في القرن الثاني عشر ، وصفا لحمامات مصر ، فقال :

واما حماماتهم فلم اشاهد في البلاد اتقن منها وصفا ، ولا اتم حكمة ، ولا احسن منظرا ومخبرا . اما أولا ، فان اخواضها يسع الواحد منها ما بين راويتين الى اربع روايا واكثر من ذلك ، يصب فيها ميزابان ثجاجان ، حار وبارد . وقبل ذلك يصبان في حوض صغير جدا مرتفع ، فاذا اختلطا فيه ، جرى منه الى الحوض الكبير . وهذا الحوض نحو ربعه فوق الارض ، وسائلته في عمقها ، ينزل اليه المستحم ، فيستنقع فيه . وداخل الحمام مقاصير بأبواب . وفي المشلح أيضا مقاصير لأرباب التخصص ، حتى لا يختلطوا بالعوام ، ولا يظهر عوراتهم . وهذا المشلح بمقاصيره حسن القسمة ، مليح البنية . وفي وسطه بركة مرخمة ، عليها أعمدة وقبة ، وجميع ذلك مزوق السقوف ، مفوف الجدران ، مبيضها ، مرخم الارض بأصناف الرخام ، مجزع باختلاف ألوانه ، وترخيم

الداخل يكون أبدا أحسن من ترخيم الخارج ، وهو مع ذلك كثير الضياء ، مرتفع الآذاج ، جاماته مختلفة الألوان ، صافية الاصباغ ، بحيث اذا دخله الانسان لم يؤثر الخروج منه ، لانه اذا بالغ بعض الرؤساء ان يتخذ دارا لجلوسه ، وتناهى في ذلك ، لم تكن أحسن منه (١) .

وفي نهاية القرن الخامس عشر ، كتب بريدنباخ :

ذهب جماعة منا الى الحمامات ؛ اذ توجد في هذه البلاد أحواض في غاية الجمال والبذخ ، مزينة بالفسيفساء وأنواع مختلفة من الرخام . فالعرب يقبلون بشغف على هذا النوع من الرياضة ، وهم في غاية المهارة في تدليك أعضاء جسم المستحم .

عرفت مصر المستشفيات قبل مجيء العرب ، ويقال ان هذا النوع من المنشآت وجد ايضا في القسطنطينية منذ بداية تاريخها . ولم نتحدث عنها في شيء من الاسهاب بسبب عدم توفر التفاصيل . ولكن الخدمات الطبية العامة ابتدأت في عصر أحمد بن طولون . فكان الجمهور الذي حضر صلاة الجمعة في مسجده من الضخامة بحيث لزم وجود طبيب لمساعدة من يحتاج الى علاج بين المصلين . وجاءت الاموال

(١) الافادة والاعتبار : ١٨٣ - ١٨٥ = (٤٥) (ط. لندن) .

للمستشفى التي شيدها من ايراد السوق المخصصة لبيع العبيد السود ، ومن مصادر أخرى شبيهة بذلك . ولم يسمح للجنود بالعلاج في هذه المستشفى . وكان على المرضى الذين يدخلون المستشفى ان يخلعوا ملابسهم وأن يسلموها وما معهم من نقود لأحد موظفي المستشفى الذي كان يسلمهم ايصالا عنها . ثم يرتدون ملابس خاصة ويستلقون على أسرة ، ويعطون الغذاء والعلاج اللازم مجانا . وعندما يستطيع المريض أكل رغيف من الخبز ودجاجة ، كان يصرح له بمفاداة المستشفى ؛ فتزد له عندئذ ملابسه ونقوده . وكان السلطان يزور المستشفى يوم الجمعة من كل اسبوع ، ليتأكد بنفسه من توفر الامدادات وحسن قيام الاطباء على المستشفى ، ويسأل المرضى والضعفاء والمصابين بأمراض عقلية .

ثم أسس الاخشيديون كذلك مستشفى . أما الفاطميون ، فرغم ما نعرفه من شدة اهتمامهم بتعليم الطب ، فانه لم تصلنا أي أخبار عن المستشفيات في عصرهم .

وحول صلاح الدين أحد القصور الفاطمية الى بیمارستان (مستشفى) . وعين فيه اطباء ، وأطباء عيون وجراحون ومدير للمستشفى . ويجب ان نذكر أن المؤرخ والطبيب المشهور ابن أبي أصيبعة تلقى تعليمه هناك . ويقول ابن جبير (١) :

(١) رحلة ابن جبير : ٢٦ (ط . بيروت) ، و ٥١ (ط . اوروية) .

ومما شاهدناه أيضا من مفاخر هذا السلطان ،
البيمارستان الذي بمدينة القاهرة ، وهو قصر من
القصور الرائعة حسنا واتساعا ، أبرزه لهذه الفضيلة
تأجرا واحتسابا ، وعين قيما من أهل المعرفة ، وضع
لديه خزائن العقاقير ، ومكنه استعمال الاشرية واقامتها
باختلاف أنواعها . ووضعت في مقاصر ذلك القصر أسرة
يتخذها المرضى مضاجع كاملة الكسي . وبين يدي ذلك
القيم خدمة يتكفلون بتفقد أحوال المرضى بكرة وعشية ،
فيقابلون من الأغذية والاشربة بما يليق بهم . وبازاء هذا
الموضع ، موضع مقتطع للنساء المريضات ، ولهن أيضا
من يكفلهن . ويتصل بالموضعين المذكورين موضع آخر
متسع الفناء فيه مقاصير عليها شبايك من الحديد ،
اتخذت مجابس للمجانين ، ولهم أيضا من يتفقد في كل
يوم أحوالهم ويقابلهم بما يصلح لها .

اما بيمارستان قلاوون ، فهو أهم ما أنشئ في القاهرة من
هذه المباني . فهو بناء عظيم فخم ، يمكننا أن نتصوره في
سهولة لما نعرفه عن مقبرة السلطان . ويقدر من عدد الناس
الذين دخلوا وغادروا البناء أن أربعة آلاف مريض كانوا يعالجون
يومية بالمستشفى في القرن الرابع عشر . وكان كل مريض
عند مغادرته للمستشفى يعطى هبة مالية وكسوة ، كما قيل
ان الطعام كان يعد بعناية فائقة . ولا يتردد أحد الرحالة
المغربيين من ذلك العصر في القول ان الاثاث نافس ما بقصور

السلطين فخامة واتقاناً . وكان كل من يعمل فيها متقناً عمله ،
وجميعهم ، دون استثناء ، من الاطباء الى العاملين ، كانوا
يقدرّون مسؤولية أعمالهم . وتتضمن الوثيقة التي أنشأت هذا
الوقف هذه الافكار السامية (١) :

انني اقرر أن خير فرصة يمسك بها الانسان وخير
أعمال الخير هي تلك التي توفر الراحة للآخرين . ينبغي
على الانسان أن يحقق السعادة للرجل الفقير حين يمرض
عن طريق توفير المسكن والعناية الصحية ، الباهظة
التكلفة . ويجب أن يبتدأ بالاكثَر فقرا بين المرضى
وبالأسنين والضعفاء والمحتاجين والمساكين .

وقد أنشئت هذه المستشفى لعلاج المرضى من المسلمين ،
رجالاً ونساء ، مقيمين أو عابرين من جميع البلاد والأقاليم ،
دون تمييز بسبب الأصل أو الدرجة ، ومهما كان المرض الذي
يشكو منه المريض ، سواء أكان بسيطاً أو خطيراً ، ظاهراً أو
مختفياً ، جسمياً أو عقلياً . وكان الفقراء من المرضى ، رجالاً
ونساء ، يقيمون بالمستشفى حتى يتم شفاؤهم . كما كان
هناك استعداد لتوزيع الأدوية والعقاقير الطبية للمرضى
الخارجيين . وكان يقسم المرضى حسب فئات معينة ؛ فجعلت
أواوين للمرضى بالحميات وغيرها ، وجعلت قاعة للرمدي ،

(١) هناك ترجمة فرنسية حرفية لنص هذا الوقف في كتاب
Histoire des Bimaristan, par Ahmed Issa Bey.
Le Caire, 1928.

وقاعة للجراحة ، وقاعة لمن أفرط به الاسهال . ونجدت في بنود نظام هذا الوقف فقرات غير متوقعة ، مثل تلك التي تبيح شراء مراوح من جريد النخيل لراحة المرضى فسي فصل الصيف .

كان الرباط أول الأمر وحدة لحراسة الحدود مكونة من محاربين . وكانت هذه المؤسسة في القرن الرابع عشر تؤوي أفرادا ممن ليست لهم موارد ولا أسر . ونحن نعرف أن أحد المنازل كانت تعتزل فيه النساء المطلقات اللاتي رغبن في حياة التأمل بعيدا عن عالم الحياة اليومية قبل الزواج مرة ثانية . وتحت تأثير الحركة الصوفية ، أصبح الرباط أشبه بدير للمتصوفة ، ولكن الاسم العادي الذي أطلق على هذا النوع من الاديرة هو « خانقاه » . وأشهر خانقاه في مصر كانت تؤوي أفراد طريقة صوفية .

تعني كلمتا «دير» و «راهب» معنى محددا في المسيحية . ولهذا ينبغي تجنب أي سوء فهم بالنسبة لهاتين الكلمتين . ونظام التصوف الاسلامي لا يمكن تشبيهه بنظام العزلة الصارم الذي وجد في الاديرة المسيحية . فعلى خلاف المسيحية ، لم يعتبر الاسلام الجسد مجرد رداء حقير ، ولم يزد الحياة على الأرض . ويشبه التصوف الاسلامي الى حد بعيد الطبقة الثالثة في المسيحية ، في أن أفراد هذه الطبقة لا يرفضون تماما الحياة المادية . وكما في الطبقة الثالثة ، تباح العضوية لجميع الناس . وينبغي أن يكون ذلك واضحا ، لأنه لا توجد

كهانة في الاسلام . وتختلف نظم الخانقاه حسب النصوص
الواردة في وثيقة الوقف . وبعض الخوانق قبلت المتصوفين
المتزوجين ، الذين لم يقيموا ، بطبيعة الحال ، في الخانقاه .

وقبل أن نشير الى بعض حالات التطرف التي كانت ترتكب ،
يجب علينا أن نذكر الفقرة التي أفرد لها ابن بطوطة للحديث
عن خوانق القاهرة (١) :

وأما الزوايا فكثيرة وهم يسمونها الخوانق ، واحداً منها
خانقة . والأمراء بمصر يتنافسون في بناء الزوايا ، وكل
زاوية بمصر معينة لطائفة من الفقراء ، وأكثرهم من الأعاجم ،
وهم أهل أدب ومعرفة بطريقة التصوف . ولكل زاوية
شيخ وحارس ، وترتيب أمورهم عجيب . ومن غوائدهم
في الطعام أنه يأتي خديم الزاوية الى الفقراء صباحاً
فيعين له كل واحد ما يشتهي من الطعام ، فإذا اجتمعوا
للأكل جعلوا لكل انسان خبزاً ومرقه في اناء على حدة ،
لا يشاركه فيه أحد . وطعامهم مرتان في اليوم . ولهم
كسوة الشتاء وكسوة الصيف ومرتب شهري ، من
ثلاثين درهماً للواحد في الشهر الى عشرين . ولهم
الحلاوة من السكر في كل ليلة جمعة ، والصابون لغسل
أثوابهم ، والاجرة لدخول الحمام ، والزيت للاستصباح .

(١) رحلة ابن بطوطة : ٣٧ - ٣٨ .

وهم أعزب ، وللمتزوجين زوايا على حدة . ومنهن
المشترط عليهم حضور الصلوات الخمس ، والمبيت
بالزاوية ، واجتماعهم بقبة داخل الزاوية . ومن عوائلهم
أن يجلس كل واحد منهم على سجادة مختصة به ، وإذا
صلوا صلاة الصبح قرأوا سورة الفتح وسورة الملك
وسورة عم ، ثم يؤتى بنسخ من القرآن العظيم مجزأة ،
فيأخذ كل فقير جزءا ويختمون القرآن ، ويذكرون . ثم
يقرأ القراء على عادة أهل المشرق . ومثل ذلك يفعلون
بعد صلاة العصر .

في العصر المملوكي ، أصبحت الفرق الصوفية قوة سياسية
تحتسب لها الحكومة حسابا . ولهذا كان السلطان يعين
رؤساءها حتى يمكن أن يحتفظ بشيء من الاشراف عليها .
وضاق سائر رجال الدين والشريعة ، مثل اساتذة المدارس
والقضاة ورجال الافتاء ، بهؤلاء الصوفيين الذين كثيرا ما كانوا
من أصل اجنبي . وما نعرفه عن الصوفيين جاءنا عن طريق
انتقاد هؤلاء القوم ، ولهذا يجب ان نقبل آراءهم في احتياط
شديد . فسخرؤا من أولئك الصوفيين الذين ادعوا انهم
ينصتون فقط الى قلوبهم ، بعد أن يسرفوا على أنفسهم في
حلقات الذكر ، ليدركوا الحب الالهي . وأكثر ما خشي من
جانب الصوفيين هو أن يتمكنوا من بسط نفوذهم على الطبقات
الشعبية ، الذين يجب المحافظة عليهم بصفة خاصة تحت
سيطرة الحكومة . وقد وصلتنا اخبار بعض الحوادث ، منها

ما حدث في سنة ١٤٩٦ ، حين ثار المتصوفة في أحسدى الخوانق ضد رئيسهم ، وهو كاتب معروف ، فمزقوا أرديتهم والقوا بها في جوض ماء للتوضؤ ، وأوشكوا أن يعتدوا على رئيسهم . ولكن المؤرخ الذي أورد هذه الحادثة يقول : « وأعقب ذلك اضطرابات تحتاج روايتها الى وقت طويل » .

لم تكن مصر هي البلد الوحيد الذي ترك فيه الرهبان او المتصوفة رسالتهم الدينية واتجهوا نحو استثارة الجماهير ، الأمر الذي أدى احيانا الى صدام مع السلطات المدنية . وهناك العبارات القاسية المعروفة التي قالها الكاردينال بير دميان عن بعض الرهبان الايطاليين : « انهم جماعة من نساك المدن ، متوحدين في الاسواق العامة ومترهبين في الدنيا ، يحاولون التسلط على الجماهير ، تحت ستار الرهبة » . وقد ازداد نفوذ الفرق الصوفية في الواقع فسي العصر المملوكي ، وبدأ يتخذ مظهرا خطيرا . وليس من الانصاف طبعا أن نستنتج احكاما مطلقة من الآراء القليلة التي يجب أن ننظر اليها بعين الاعتبار . ولكنه من الغريب أن نرى عددا من كبار الكتاب المتدينين حملوا في سخرية على هؤلاء الرجال ، ذوي الاسمال البالية الفاضحة والتصنع الرخيص ، الذين أرادوا أن يخلعوا رداء الحياء المرعي في كل بقاع الارض . وقد يسدد ابن خلدون أحد سهامه نحو سكان الخوانق حين قال عنهم (١) : « ... من سكان الزوايا المنتحلين للعبادة ، يشترون

(١) التعريف بابن خلدون : ٢٧٦ .

بها الجاه ليَجبروا به على الله . فلم يصوموا ولم يصلوا الا حين يضطرون الى ذلك ، وأسرفوا في جميع اللذات المباحة ، ولم يلتزموا الا بالواجبات التي ان خالفوها خرجوا عن مسلك التصوف . ولم يكلفوا انفسهم قطعا عناء تدبير روح القوانين .

كان للمنشآت الدينية مثل المدارس والمساجد والخوانق مظهر خيري أيضا ، وذلك لان الهبات التي كانت تقدم لهذه المؤسسات الدينية مكنتها من أن توزع الغذاء والكساء المجاني . على أن اعظم أعمال البر جميعا هي انشاء سبيل لسقيا الماء . وقد قال أحد الكتاب الفرنسيين من ذلك العصر : « ان عظمة أي شعب يجب أن تقاس بمقدار ما يعمل من أجل الحصول على الماء » . ويتفق هذا القول مع حديث شريف منقوش على سبيل في القاهرة : « سئل الرسول صلى الله عليه وسلم أي الأعمال أفضل ، قال : « سقي الماء » (١) . والماء في الشرق الأوسط ضرورة حيوية ، ولعل هذا هو السبب في وجود نافورات في أكثر البيوت في العصور الوسطى . وأقام أهل البر للفقراء أسبلة عامة . وقد أمد هذا العمل الصالح أهل المدينة بماء للشرب ، كما أنه — ولعل هذا هو الأهم — أمدهم بماء للتوضؤ . ولهذا أبيع استخدام هذه الأسبلة مجاناً لعامة الناس . وكان يقوم على تزويدها سقاؤون . وبواسطة الامتصاص ، يندفع الماء خلال أنابيب نحاسية ، ويشرب المارة

Repertoire d'Epigraphie Arabe, XVI, No. 6217. (١)

من أكواب مثبتة في السبيل بواسطة سلاسل . ومما قاله احد الرحالة في نهاية القرن الرابع عشر: «ان كثرة الاسيلة الموجودة في المدينة لدليل رقيها» . وكانت تلحق أول الامر بمبان أخرى، مثل المدارس والخوانق . ولكن بعد ذلك ، في العصر المملوكي ، أصبح السبيل بناء مستقلا لا يخلو من رونق ، ذا أحواض واسعة وشبابيك نحاسية (يمد المار يده منها ليشرب) . والحق بالسبيل ، في الطابق العلوي ، كتاب للتعليم الأولي .

وفي القرن الخامس عشر ، لم يبق في المدينة متسع من الارض الفضاء سوى النزر القليل . ونتيجة لذلك ، كان من الضروري أن يصغر حجم المباني العامة التي بنيت عن سابقاتها . فبنيت مدارس أصغر حجما ، كما أزيل منها الفناء الاوسط المكشوف . وأصبح يغطي البناء بأسره سقف تتخلله فتحة تسمح بدخول الضوء نهارا . وبطبيعة الحال ، لم يعد هناك مجال لاقامة المدرسين والتلاميذ في هذه المباني ؛ وعلى هذا ، لم يعد هناك فرق ظاهر - ابتداء من القرن الخامس عشر - بين المدارس والمساجد . فهناك مصلى مستطيل الشكل ؛ وقلّ حجم اللوانين الجانبيين الى مجرد تجاويف ، والشيء الوحيد الذي يذكرنا بالفناء الاوسط القديم هو اختلاف ضئيل في مستوى الأرضية .

٩ اجتانات العظيمة

تقع الجبانات ، وهي المدافن الفسيحة ، في ضواحي القاهرة
من ناحية الغرب .

وكانت أول الامر جنوبي القلعة . وقد ذكر ابن جبير أنه
يوجد (١) :

بسيط متسع يعرف بموضع قبور الشهداء ، وهم
الذين استشهدوا مع سارية رضي الله عن جميعهم .
والبسيط المذكور مسنم كله للعيان على مثال أسنة
القبور دون بناء . ومن العجب ان القرافة المذكورة كلها
مساجد مبنية ومشاهد معمورة ، يأوي اليها الغرباء
والعلماء والصلحاء والفقراء . والاجراء على كل موضع
منها متصل من قبل السلطان في كل شهر . ولكن اللجوء
الى القرافة والاقامة بها يناسب كلا من الرجل الصالح
والشخص الفاسد : فانت واجد هناك كل ما تبحث
عنه . فالعزلة فيها تسر الناسك ، بينما يحتمي بها
المارقون من القانون .

(١) رحلة ابن جبير : ٢٤ (ط . بيروت) .

وكانت تحدث في ذلك المكان معجزة وصلنا خبر عنها ابتداء من القرن السادس عشر ، حين كتب باومجارتن يقول : « في ظاهر المدينة ، على ضفاف النيل ، شاهدنا مسجداً ؛ وقيل لنا انه عند اقامة الصلاة فيه ، يخرج الموتى من مقابرهم ويقفون دون حركة طيلة الصلاة ، وبعد ذلك يختفيون . ويعرف كل شخص في القاهرة هذه الحقيقة » . وبعد أعوام عديدة ذكر أجريبا دوينيه هذه المعجزة في كتابه « تراجيديات » Tragiques .

وقد رأى الرحالة المغربي ابن بطوطة (١) الجزء الجنوبي من القرافة فقط ، فقال :

وهم (يعني أهل القاهرة) يبنون بالقرافة القباب الحسنة ، ويجعلون عليها الحيطان ، فتكون كالدور ، ويبنون بها البيوت ، ويرتبون القراء يقرأون ليلاً ونهاراً بالاصوات الحسان . ومنهم من يبني الزاوية والمدرسة الى جانب التربة ، ويخرجون في كل ليلة جمعة الى البيت بها بأولادهم ونسائهم ، ويطوفون على الاسواق بصنوف المأكّل .

وفي العصر ذاته ، ذكر الرحالة الاوروبيون تلك الظاهرة

(١) رحلة ابن بطوطة : ٣٩ .

الفريدة عن الجبانات : « على مسافة ميل تقريبا ، شرقي المدينة ، تمتد جبانات اسلامية في غاية الاتساع ، وهني مشهورة جدا . وترتفع عاليا بين المقابر زوايا ومبان يظن الانسان انه ينظر الى مدينة قسيحة بدلا من جبانة » . وقال آخر : « وهناك جبانات واسعة توجد فيها مقابر المسلمين ، وشيدت بها مبان رائعة من الرخام والسماق والمرمر وغيرها من الاحجار الراقية ، متقنة البناء ومذهبة ، لم أر شيئا لها في روعتها في العالم المسيحي بأسره . هذه هي مقابر قدماء السلاطين والأمراء ونبلاء العرب » .

وحفظ لنا بيلوتي ، في سنة ١٤٢٠ ، أول وصف لمقابر المنطقة الجنوبية ، فقال :

على مسافة ميل من القاهرة ، توجد مدينة غير مسورة ، في اتساع مدينة البندقية ، وتوجد بها مبان مرتفعة وأخرى منخفضة . ويدفن في هذه المدينة موتى أهل القاهرة . ولكل عربي من أهل القاهرة بناء في هذه المدينة . في المباني المنخفضة يدفن الموتى ؛ وفي المباني المرتفعة يقدم النبلاء الذين يمتلكونها صدقات للفقراء كل يوم جمعة : فهذا هو يوم العطلة ، ويوم الصلاة الجامعة ، ويوم اعداد وجبات كبيرة من اللحم . في هذا اليوم ، يذهب جميع فقراء القاهرة هناك ليأكلوا ويأخذوا الصدقات التي تعطى لهم .

في هذه المدينة من المقابر ، حيث كان المواطنون العاديون
يدفنون فيما مضى في مكان فاصل عند حافة الصحراء ، شرقي
القاهرة ، أخذت الأضرحة الفخمة تشيد لتستقبل رفات الحكام
من المماليك . ويبدو كأن هؤلاء الأمراء الذين عاشوا حياة مليئة
بالأحداث المثيرة ، رغبوا في أن تكون مقابرهم في مكان مهجور
ناء ، بعيدة عن جمال الحدائق الخضراء وأعين الأحياء ، وبعيدة
عن صخب القلعة وكرسي الحكم ، كأنما يريدون أن يمنعوا
ضوضاء الحياة من أن تقلق نومهم الأخير . وتضفي القباب
والمآذن الصاعدة إلى السماء على المكان جوا من السكينة
والحزن معا . هذه المباني الناصعة البياض ، الخالية من
الظلال ، تقف في ضوء دائم صارم لا يسمح مطلقا بتخفيف
حدة زوايا البناء . وعند الفسق ، تصبح كرسى الظلال في
ارتفاعها إلى عنان السماء .

وقد زار هذا المكان بريدنباخ في طريق عودته من القلعة ،
فقال :

فهبطنا منحدرًا حادًا لا يخطو من خطر ، ومررنا خلال
عدد من الجبانات ، حتى وصلنا إلى مقابر السلاطين .
فلكل سلطان مسجد خاص بني في البقعة التي اختارها
لنفسه . وقد أمر السلطان الحالي قايتباي ببناء مسجد
كبير فسيح ، له مآذن عالية ماهرة الزخرفة . كما أمر
ببناء منازل كبيرة حوله ذات عدد كبير من الحجرات

كالأديرة . وفيها يعول فقهاء الشريعة والديين
الاسلامي .

ولنتوقف قليلا عند مقبرة قايتباي الهائلة ، التي تحير اللب
بروحها المرحية . ففيها نرى ميلاد فن زخرفي رفيع ، فيه
سحر وجمال . كما تشعرنا بالتعبيرات الظلية الدقيقة التي
يخلقها فن الحفر العربي في حركة رقيقة لا مثيل لها . هذا
هو عالم التخيلات المطلقة ، ولكنه أيضا يمثل ازدهار فن
الزخرفة المتأنقة . هنا يصل التألق ذروته ، ويبلغ فن الزخرفة
أقصى درجات الروعة . فقد عمل الفنانون بموهبة طيبة حتى
بدا عملهم كأنه تم بغير عناء . ويشعر الزائر كأن البناء يرحب
به في سماحة وهدوء . وإذا ما حاول أن يتتبع المزج الدقيق
بين الخطوط التي تكاد تشكل نغما متناسقا ، فإنه ينسى أهو
أمام عمل من أعمال النحت أم أمام عمل من أعمال صائغ . كما
أن تداخل عروق الرخام بين فاتح وقاتم ، والعقود الحجرية
المزينة بالفستونات تبدو كأنها تبتسم لنا . ففي هذا العصر ،
اتخذت المقابر مظهرا اليفا وديعا ، وهو أمر غريب حقا . ومقابر
الخطفاء هذه ، كما تسمى - والتي لها من الشهرة ما طبق
الآفاق (في وقت مضى) - هذه الساحة الجنائزية والسهل
الفسيح الذي تنطقه القباب والمآذن ، لا تحس بها اثرا للحزن
على الإطلاق .

١٠ قصر السطان وساحة القلعة

لنصعد الى قمة جبل المقطم ، كما فعلنا في بداية هذا الكتاب ، ونقرأ مرة اخرى هذه الفقرة التي كتبها جوبينو :

يرى الانسان تحته أولا ميدانا فسيحا ، وفي الناحية المقابلة ، يرى مسجد السلطان حسن . وبعد ذلك عن يمين ويسار يرى المدينة ممتدة ، تخترقها آلاف الشوارع ، وتنتشر فيها المساجد والمباني الكبيرة ، ويجملها في مئات الأماكن مجموعات من الأشجار والحدائق . والمدينة غير مرحة ولا غريبة ولا جليلة بالمعنى الدقيق للكلمة ، نظرا لعدم وجود التناسق فيها على الإطلاق ؛ ولكنها كبيرة ، فسيحة ، مكشوفة ، مليئة بالحياة والدفء والحرية ، ولذلك فهي مليئة بالجمال . وباستطاعة الانسان ، بطبيعة الحال ، أن يجد مدنا أخرى تتوفر فيها بصورة أكبر مقاييس الكمال . إن تجد هنا شيئا تام الاستقامة ؛ ولكن إذا كان الانتظام غير متوفر ، فالظاهر العام جاد ونبيل ، رغم تنوعه ، كما أن هناك شعورا بالقوة . ورغم أنها ليست من عمل الحضارات القديمة ، إلا أنها ترجع الى عصور قديمة نسبيا . وهي

عصور لم يعوزها الايمان والفكر والشجاعة والثروة
وكذلك النشاط .

هذه نقطة ملاحظة ممتازة لتأمل هذه المدينة الجليظة . فاذا
بك امام مسرح من الاضواء ، تحده من ناحية الشمال والجنوب
مآذن المقابر الملكية لسلاطين المماليك . امامك مباشرة تجد
مسجد السلطان حسن واقفا في جراحة متميزة . ويزيد من
الشعور بفخامة هذا البناء الحجري الهائل انتشار المباني
مزدحمة ورائه . ويستوقف نظرك طويلا منظر الريف المسطح
خارج المدينة ، بعيدا عن النهر الذي تقف ورائه مجموعة
الاهرامات عند الأفق كسلسلة من البقع الصغيرة .

تساعدنا مدرسة السلطان حسن — ولعلها أجمل بنى
اسلامي — على فهم الهندسة العامة لبناء المعاهد التي خصصت
لتعليم المذاهب السنية الاربعة . ونظرة من خارج البناء ترينا
أن المدرسة تتكوّن من فناء أوسط أو صحن وأربعة أواوين
والايوان المواجه لمكة أكبر من الأواوين الأخرى . وهكذا يتخذ
التصميم الداخلي شكل الصليب ؛ وليس هناك ما يدعونا
الى أن نعزو ذلك الى تأثير مسيحي . من الخارج ، يبدو البناء
مربعا أو مستطيلا ، بسبب وجود غرف بين أضلاع الصليب
للمدرسين وبعض تلاميذ المذاهب الاربعة .

أن منظر البناء بقوته وضخامته وجدرانها العالية الصارمة ،

ليبدو وكأنه يتحدى القلعة الواقفة ازاءه . فكم من فتنة وكم من معركة دامية وقعت بين هذه الجدران . هذه مدرسة - في حقيقة الامر - خصصت لاغراض التعليم الديني الهادى ، ولكن بسبب موقعها لعبت دورا سياسيا . فعند حدوث قلاقل في القاهرة ، كان هدف الثوار الأول تحويل هذا المسجد الى معقل لهم . فالمنظر الخارجي يشبه حصنا مكعب الشكل ، يزيد من مظهر ارتفاعه فجوات عمودية بها نوافذ ضيقة ، وحافة بارزة تمتد في اعلى الجدران . ويتكوّن مدخل البناء من ممر ذي عطفتين ، يقود فجأة ودون أي تمهيد الى فناء واسع مكشوف ، تحيط بجوانبه الاربعة اواوين ضخمة ذات أسقف معقودة . والنغم السائد في هذا البناء هو الوقار من غير شك ، ولكن يخفف منه التناسق التام بين كتله .

يقع المكان الذي اختير لهذا البناء في مواجهة القلعة الحصينة التي تشرف على مدينة القاهرة ، ولعل المهندس قد استوحى منه من التحدي الناتج عن هذه المواجهة . فمن التحدي أن تشيد بناء صارم السميت كهذا في ظل عداوة واضحة من جدران القلعة . فقد حاول السلطان حسن أن يستغل كل شبر في القلعة ليجعلها تبدو كأنها تتحفر لتشب في كبرياء ووقار ، بينما يبدو المسجد العملاق كأنه قد عقد العزم على سحق القلعة . ومما زاد مظهره تميزا موقعه الممتاز ، ووجود الساحة التي تفصل بينه وبين غريمته . ونحن نلاحظ في هذا الجامع الحصن جمالا أولبيا ، يذكرنا الى حد

ما بكاتدرائية ألبى ، اذ به من الصفات ما يجذب الذوق الفني العام . لقد أتمت روعة البناء دقة المنطق عند التصميم ، فنتج عنهما عمل فني واضح المعالم بلغ حد الكمال ، بحيث أن أي تعليق يصبح غير ذي معنى . وهو يمثل قمة في فن العمارة سيتحرك بعده الفن المملوكي - بما فيه من سحر لا ينكر - في اتجاه واحد فقط ، نحو التخلف . ففي مصر ، هو أكمل المباني الإسلامية ، وأكثرها تناسقا ، وهو البناء الذي يستحق أن يقف جنبا الى جنب مع الاعمال المعجزة التي خلفتها الحضارة الفرعونية . ومما يجعلنا نزيد في تقديره ، الظروف التاريخية التي بني في ظلها . فهو ينقض الاعتقاد السائد بان وجود ظروف مستقرة منتظمة أمر لازم لعمل طويل مضمّن مثل هذا البناء الحجري الجريء الرائع . فقد استغرق بناؤه سبع سنوات من العمل والعناء ، ان صدقت العبارة التي قالها السلطان ذاته : « لولا أن يقال : ملك مصر عجز عن اتمام بناء بناه ، لتركت بناء هذا الجامع من كثرة ما صرف عليه » (١) . ويضاف الى ذلك العقبات السياسية التي أدت الى عزل السلطان . وانه لمن سخرية الاقدار ، أن الحاكم الذي بنى لنفسه مثل الفراعنة مقبرة خالدة مات مقتولا ولم يضم رفاته قبر .

الطاعون الذي حدث سنة ١٣٤٨ ، الذي قضى على ثلثي سكان فلورنسة ، تسبب في موت اعداد مفرغة في القاهرة .

(١) الخطط ٢ : ٣١٦ .

ولسنا بحاجة الى ان نذكر ان ثروات بأسرها آلت الى خزانة الدولة بسبب عدم وجود ورثة أحياء . فقد قيل ان الميراث في بعض الحالات انتقل بين أربعة أو خمسة ورثة متعاقبين في يوم واحد . كان ذلك في النصف الاول من حكم السلطان حسن ؛ وربما كانت الزيادة غير المتوقعة في الاموال سببا في ميله الى الاسراف .

من المحتمل أن السبب الذي دعا صلاح الدين الى بناء القلعة هو تهدة شعب قلق ومقاومة اي هجوم محتمل من جانب عدو أجنبي . « أما في عصر خلفائه » ، فيقول مارسيل كليرجيه :

اتخذت القلعة المظهر الاكيد للمدينة - القصر المحصنة . فاتصل البناءان تدريجا ؛ بينما تضاعفت المنشآت القضائية والادارية ، وزحفت على المنطقة الواقعة أسفل النشور الذي في الجبل ، وفتحت أبواب كثيرة في الاسوار . وأخيرا ، انقسمت الساحة الى عدد من الاجنحة : غرفة لتنفيذ الاحكام ، وحظائر هائلة ، وحمامات ، ومسجد ، وحدائق زودت بوفرة من الماء بطريقة ماهرة بالآبار والقنوات والسواقي . فجذبت اليها هذه المرافق عددا متزايدا من الناس ، وتكونت الاسواق والمتاجر لبيع المأكولات والاسلحة والمواعين المنزلية . ويصفها كازانوفنا بصدق بأنها كانت اشبه ببوتسدام ،

أو فرساي صغيرة ، تتخللها شوارع ضيقة منحنية
منحوتة في الصخر .

أعاد السلطان محمد بن قلاوون بناء غرفة السلطنة أو
العرش الفسيحة في القلعة . فشيّد فوقها قبة رائعة ، ووسع
مساحتها ، وزودها بأعمدة ممتازة من صعيد مصر ،
وكساها بالرخام ، ووضع في الوسط كرسي السلطنة المصنوع
من العاج والآبنوس . وزاد في ارتفاع الغرفة كثيرا ، وبنى
أمامها ميدانا فسيحا . وبالباب المؤدي الى الغرفة يوجد حاجز
من الحديد المشغول بمهارة ، يمنع الناس من الدخول . أما
السلطان نفسه ، فكان له باب يبقى عادة مغلقا ، وفي مناسبات
الاستقبال ، يفتح الباب حتى يرى من خلاله أو من خلال
الشبابيك ذات القضبان الجزء الأكبر من جيشه في الميدان .
وكان السلطان يعقد الاستقبالات عادة يومي الاثنين والخميس
من كل اسبوع .

وتروي لنا احدى الرحلات أنه :

في اتجاه منتصف مدينة القاهرة ، من الناحية
الشرقية ، فوق نتوء في الجبل ، توجد قلعة السلطان ،
وهي واسعة ، جميلة ، حسنة البناء ، تزينها المباني
العسكرية والقصور ومكاتب الادارة وغيرها من روائع
الدولة . ويقال ان قطرها يبلغ الميل ، وأنها تبعد عن
المدينة بمقدار مدى قذيفة المنجنيق . ويقام بها عشرة

آلاف فارس ، معينون لحراسة السلطان ، دون أن ندخل
في حسابنا أولئك الذين يقيمون في المدينة الآنفة
الذكر . وأساسات القلعة ، وكذلك سائر منشآتها ،
مبنية من حجر أبيض رخو . ولا يوجد بالقلعة ، بالرغم
من حجم الحامية العسكرية بها ، أي عيون للماء ،
وأسوارها - فيما يقال - تنهار بسهولة .

واليك وصف خليل الظاهري في منتصف القرن الخامس
عشر (١) :

وأما دار الملك الشريف التي بها تخت المملكة ،
المعروفة الآن بقلعة الجبل ، ليس لها نظير في الاتساع
والزخرفة والأبهة والعلو ، تشتمل على سور وخبندق
وأبراج وعدة أبواب من حديد ، وهي حصينة جدا ، وبها
من القصور والأواوين والمجالس والغرف والطباق
والأحواش والميادين والاصطبلات والجوامع والمدارس
والاسواق والحمامات ما يطول شرح ذكره . ولكن نأتي
بملخصه لما فيه من العظمة والأبهة والناموس الشريف .
أما قصر الأبلق ، فيه ثلاث قصور شريفة وخرجاه برسم
المواكب السلطانية . الجميع مفروش بالرخام الملون ،
والسقوف مدهونة بالذهب والتلازورد والنقوش
العجيبة . وأما الأيوان الأعظم ، فليس له نظير ، وهي

(١) زبدة كشف الممالك : ٢٦ - ٢٧ .

مكان بمفرده بظاهر القصر ، تعلوه قبة خضراء عالية جدا ، حسنة المنظر ، وبه مرتبة الملك ، وعمد كثيرة ، وهو مكان عجيب . وأما الجامع الكبير الذي بالقلعة ، فليس له نظير . قيل انه يصلي فيه خمسة آلاف نفر . وبه عمد عجيبة في الغلظ ، وبه منارتان . أما الدهيشة ، فهي من العجائب ، وعمارتها حسنة ، من خواص مجالس السلاطين . وأما القياح المخصصة بالأدر الشريفة فعديدة وأما طباق الممالك الشريفة السلطانية اثنتا عشرة طبقة ، كل طبقة منها قدر حارة تشتمل على عدة مساكن ، حتى انه يمكن السكنى في كل طبقة لألف مملوك . وأما الحوش الشريف ، فانه متسع جدا ، وبه بستان عظيم ، وبه بحرة معظمة . وأما الاصطبلات الشريفة ، فانها متسعة جدا برسم الخيول السلطانية . وأما الميدان الشريف ، المعروف بالاسود ، فمتسع جدا برسم المسائرة .

وبصر رحالة القرن السادس عشر على قلة القيمة العسكرية لهذه القلعة . فكتب جان تينو يقول :

يكاد يبلغ قصر السلطان في اتساعه مساحة مدينة اورليان . عند دخولنا اطلقت طلقتان . وكان هناك خمسون موسيقيا بالآت مختلفة . ومررنا بساحة بها نحو من خمسمائة مملوك في تشكيل عسكري ، في

ثياب طويلة بيضاء وقبعات مستديرة خضراء وسوداء .
ثم مررنا بساحة أخرى ، رأينا عند مدخلها بعض عدد
الحرب وآلات تحطيم الاسوار ، كما رأينا صانعي الاسلحة
ومثقفها ، وفي هذه الساحة نحو من ألفي مملوك أبهى
منظرا من الآخرين . وعلى رأس هذه الساحة ، فوق
حجر مرتفع مغطى بالسجاد الثمين ، جلس السلطان
القرقصاء . وأمامه على الأرض سجادة لا تقل مساحتها
عن عشرين قدما مربعا ، ملابسه من الحرير الاصفر ،
وعلى رأسه عمامة عالية مصنوعة من نسيج رفيع من
الهند ، ومشكلة على هيئة ست قمم ، اثنتان الى الامام ،
واثنتان الى اليمين ، واثنتان الى الشمال . وكان هذا
الاسلوب من العمامات ذات القمم العالية مستخدما منذ
عشرين عاما فقط في ذلك الوقت .

ويضيف تريفيزانو البندقي ، الذي استقبله حاكم مصر :

للقاهرة قلعة غير قوية ، ويبلغ محيطها نحوا من ثلاثة
اميال . وهي مشيدة على أرض مرتفعة من الصخر ،
وتشرف على المدينة بأسرها . وبداخلها قصر السلطان ،
وهو في غاية الجمال والامتناع . ولا يوجد في القاهرة
مكان آخر محصن . ومثل هذه القلعة لا تسمى حصنا
في بلادنا ، وانما يطلق عليها اسم قصر عظيم .

كان السلطان يجلس أثناء المقابلات الرسمية تحت مظلة

مطرزة بخيوط من الذهب . ويزين باب مخزن الاسلحة اعلام ورايات واسلحة مثل عدة الخيل والزرديات والبلط والسيوف . واكثر وصف تفصيلي لمقابلة في القلعة ما ذكره فيليتشى براتكاتشي الفلورنسي الذي حظي بمقابلة السلطان بيبرس سنة ١٤٢٢ ؛ قال :

قبل بزوغ الفجر بساعة ، حضر الينا ادلاؤنا واحضروا معهم خيلا ، وحضر معهم احد النبلاء المعينين لاستقبال السفراء ، وكذلك عدد من الموظفين الآخرين ، بعضهم مترجلين وبعضهم على ظهور الخيل ، وخرجنا قاصدين شطر قلعة السلطان الواقعة على مسافة ميلين فوق مكان مرتفع . ووصلنا عند مشرق الشمس ، ولكننا انتظرنا نحوا من ساعة خارج الابواب الاولى ، وكانت الشمس قد ارتفعت في السماء ، واخذ المماليك ، وهم النبلاء على مختلف درجاتهم ، يتوافدون على القلعة . وكانوا في اعداد كبيرة يلبسون زيهم التقليدي من التيل الابيض الذي يصل الى الارض تعلوه عباءة فضفاضة من الكتان الرفيع ذات اكمام محلاة بصفوف من التطريز الازرق تتكون من رسوم اختص بها هؤلاء القوم . وقد ارتدى جميعهم هذا الزي . وفي منتصف الساعة الثالثة ، سعدنا الى القلعة بواسطة طريق صاعد يبلغ اتساعه ثمانين ياردة ولكنه شديد الانحدار وشاق لصعود الخيل ، حتى وصلنا الى باب دخلنا منه الى فناء

كبير ، حيث جلسنا بين عدد كبير من المماليك وانتظرنا نصف ساعة . وبعد ذلك ، مررنا خلال باب آخر وصرنا في عدد من الممرات ذات القباب بين صفين من المماليك يواجه كل منهما الآخر حاملين الرماح في ايديهم ، حتى وصلنا الى باب آخر تقوم عليه الحراسة بالطريقة ذاتها . وبعد ان واصلنا السير خلال ممرات ذات قباب ، خرجنا الى فناء حيث شاهدنا مرة ثانية رجالا مسلحين بالرماح ومصطفين بالطريقة ذاتها . وهناك ، تم تفتيش ثيابنا بما فيها الملابس الداخلية للتأكد من عدم وجود اسلحة معنا . وأخيرا وصلنا الى حيث يقيم السلطان ، بعد ان صعدنا ثماني مجموعات من الدرج وقف على طولها رجال مسلحون بالرماح ، ورماح هؤلاء تنتهي برأس من الحديد متعدد السنان وهي تشبه ما نطلق عليه عندنا اسم halberd (وهو نوع من القوس ذات السنان المدببة) ، وقد عقدوا رماحهم فوق رؤوسنا اثناء مرورنا . وفي كل مكان من اماكن الحراسة هذه ، وجد نحو من اثني عشر رجلا من حاملي الرماح . والحجرة التي دخلناها ، حيث جلس الامير ، تنقسم مثل الكنيسة الى ثلاثة اروقة يفصل بينها اعمدة من الحجر . والرواق الاوسط اكبر من الرواقين الجانبيين . وتنفذ هذه الاروقة من الجانب الذي دخلنا منه ، ويغطي الفتحات شبكة مسدلة من اعلى الى اسفل . ورصفت ارضية الاروقة بالرخام المطعم ، كما غطي اكثر من نصف الارض

ببساط . وفي مواجهة المدخل ، ترتفع منصة تؤدي إليها درجات على الجانبين وقد جلس السلطان على ارض هذه المنصة . وليس لهذه المنصة حافة مرتفعة ، كما كان الدرج على الجانبين بغير سور ، وكان من السهل رؤية السلطان من كل مكان . وكان يرتدي ملابس من الكتان مثل الآخرين ، ويبلغ من العمر حوالي ثمان وثلاثين او اربعين سنة ، وله لحية بنية اللون ، ويقف خلفه مباشرة عدد كبير من المماليك ، يحمل احدهم سيفاً مشهوراً وجرابه في يده ، ويحمل آخر ابريقاً ، ويرفع ثالث عالياً فوق كتفه الايمن عصاً من الذهب الخالص يبلغ طولها ياردة واحدة وسمكها بوصة . ويقف عدد كبير من المماليك بالقرب منهم وعلى الدرج الجانبى وعند اسفل المنصة . وقد نظم هذا الجمع الكبير بطريقة تذكرنا بمناظر مواكب النصر التي ترى في الصور . وانتشر في كل مكان ، وخاصة على الدرجات اسفل العواميد ، موسيقيون يعزفون على الكمان والربابة والعود والآلات الخافتة الصوت والصاجات ، جميعاً في وقت واحد بصحبة مغنين ، محدثين اصواتاً عالية ، وقد يتفق النغم احياناً . ولا يمكنني ان اقدم وصفاً منظماً نظراً لأن عينيّ اعماهما البريق ، واصمت أذنيّ الاصوات ، وكنت ملزماً فوق ذلك بتقبيل كل درجة . وبالإضافة الى ذلك ، يمسك رجلان بكتف كل واحد منا ويدفعاننا ونحن منحنون كما لو كنا من دواب الحمل . وفي كل مرة ارادوا منا ان نقبل الارض ، كانوا يصيحون

صیحات عالیة فی لغتهم بشکل اصم آذاننا . وعلى هذا النحو ، ألزمونا بتقبیل الارض سبع او ثمانی مرات ، حتی اذا أصبحنا على مسافة خمس وعشرین یاردة من السلطان ، توقفنا وسکتت الاصوات . وطلب منا الا نطیل الحديث فی هذه المقابلة الاولى التي ظلت اثناءها ثلاثة فؤوس لامعة مشهرة ویلوح بها فوق رؤوسنا . ولم نکد نذكر لمترجمنا بضع کلمات تقدم بها الموضوع حتی قوطعنا بکلمات « کفی . . . کفی . . . » ، وبعد ان ألزمنا بتقبیل الارض ، سحبنا الى الراء نحو مدخل الغرفة ، وهناك ، بعد ان قبلنا الارض ، سمح لنا ان ندير ظهورنا للسلطان وان ننصرف . وهنا غادر السلطان الغرفة ایضا .

وهذا وصف اخر للقلعة کتبه بییر ییلون یمكننا ان نذكره ، فهو لا یقتصر على ذکر تفاصيل مماثلة فحسب ولكنه یقدم تحية اخيرة لسلاطین الممالیک :

ان مبانی قلعة القاهرة ، وحجراتها ، وابهاءها الجمیلة ، والرسوم الموجودة فیها ، لتقوم دلیلا على عظمة الجراکسة الذین حکموا مصر مدة لیست بالطویلة . فالجدران مرخمة بقدر ارتفاع قامة رجل ، وحول الابواب والنوافذ ؛ وهناك اطار یبلغ عرضه قدما مطعم على الطریقة الدمشقیة بالصدف والابنوس

والبلور والرخام والمرجان والزجاج الملون . وتقع القلعة على صخرة صلبة قطعت فيها درجات لتيسر الصعود . وعلى هذا ، فان موقع القلعة يتكون من ارض مرتفعة تكاد تكون مستديرة ؛ وهناك عدد من الابراج العالية المستديرة صنعت على الطريقة القديمة وليست من مواد بناء جيدة . وميدان القلعة كبير فسيح ، كما ان المباني جميلة مشرقة لأنه عند النظر من النوافذ هنا وهناك ، حيث المناظر الجميلة المكشوفة ، يمكن رؤية مصر بأسرها تقريبا . ولكن لا تعتبر قلعة القاهرة منيعة جدا اذا ما قورنت بما عندنا من حصون .

وقد أدركت الحكومة نفسها هذه الحقيقة ، فحين هددتها ثورة في سنة ١٥٠٠ ، قررت اعادة تنظيم الدفاع عن القلعة . فوضعت المدافع فوق الاسوار ، كما تم اصلاح الاسوار والقلاع ، واقيم باب على السلم المدرج الذي لا يزال موجودا ؛ وأحيط باب السلسلة ببرج بني من الحجر ، وفتحت فيه فتحات لرماة السهام وأبواب صغيرة . وسد السلطان الفتحات المؤدية الى الميدان وساحة العرب والحظائر بالقرب من منحدر المدخل . ثم أمر بهدم مدرسة السلطان حسن ، فبدىء العمل في جزء من الواجهة ، وحين مضت ثلاثة أيام دون انجاز شيء يذكر ، عدل عن المشروع . وقد انزعج الناس بشأن الاقدام على هدم مثل ذلك البناء الرائع الذي لا مثيل له في سائر أنحاء العالم ، كما أنه هدم في غير طائل . وفضلا عن

ذلك ، فقد ثبتت استحالة التنفيذ ، وكان العدول اكثر نبلا من الاعتراف بالاخفاق . وأمر السلطان باحضار العلف والفظائر والجبن وغيرها من مواد الغذاء الاساسية الى القلعة . فامتألت المخازن والمطابخ بكل ما كان ضروريا لمواجهة حصار شهرين . ودمر سلم مدرسة السلطان حسن . وأحضرت الى القلعة مواد حربية ، وخاصة قطع من الخشب لبناء سلاسل التسلق والمتاريس . وأخذت من مخزن السلاح السيوف والزرديات والدروع بأنواعها والقسي والسهام ووزعت بين الجنود .

اما مشكلة الماء ، فقد أعيد التفكير فيها بعد ذلك بقليل . ففي حوالي شهر نيسان (ابريل) من سنة ١٥٠٧ ، أمر السلطان بتدمير خليج مصر القديمة واعادة بنائه . فحفر بئر عند نقطة ابتدائه ووصل بينه وبين النيل بمجرى مائي ، ورفعت المياه الى المستوى المطلوب بواسطة مجموعة من السواقي . ورفعت القناة التي كانت تصل الى القلعة على عقود تعتمد على اعمدة . وقد اعتبرها اهل العصر معجزة كبرى ، ولكنهم ضاقوا بالاموال الطائلة التي انفقت على بنائها ، خاصة وان هذه الاموال استخدمت في جمعها اساليب العنف ومصادرة الاملاك . وتبدو هذه القناة عند النظر اليها من مكان مرتفع في حالتها الهالكة الراهنة ، « بحكم موقعها في سهل قاحل ، كهيكل عظمي لثعبان قد تفككت فقراته » .

ويوجد في القلعة عدد من السجون . فهناك الجب الذي

بني في نهاية القرن الثالث عشر ، وكان يسجن فيه الامراء .
وبعد ان استمر استخدامه اربعين سنة ، نزل اليه مفتش
المباني ليصلح عمارته ، فشهد امرا مهولا من الظلام وكثرة
الوطايط والروائح الكريهة التي شاعت في هذا السجن
الارضي . فأمر بردمه في الحال . ولكن يوجد سجن آخر
لا يقل عنه سوءا كان يسمى « ارقوانة » (اي بركة الوحل) ،
وكان يستخدم للمسجونين السياسيين او للتجار الذين خالفوا
القانون . بعض هؤلاء المسجونين وضعوا في الحديد وتركوا
هناك سنين طويلة . وبطبيعة الحال كان الهروب ممكنا ، ولكن
تحت خطر كبير . وليس لدينا سوى اوصاف متأخرة عن
هذه السجنون كتبها لنا الرحالة الاوروبيون .

يرى الانسان احبسا وسجونا من بينها ذلك السجن
الذي احتجز فيه يوسف النبي وحيث قام بتفسير
احلام زملائه الذين سجنوا معه ، وهو في الوقت
الحاضر عفن نتن حيث تساء معاملة المسجونين المساكين
المقيدين بالسلاسل والمشدودين بالحديد الى كتل من
الخشب ؛ واذا لم يمنحوا صدقات ، فسوف يكون
مآلهم الموت جالسين على ارض رطبة وعلى القاذورات
التي تتكوم في كل مكان .

من بين المباني الخارجية في قصر السلطان بالقلعة التي
زارها بعض الرجال ، حظائر السلطان التي لم تضم الخيل

الخاصة فحسب ولكن ضمت كذلك عددا من الحيوانات الغريبة الجميلة . فكان هناك ، اولا ، الفيلة . وفي ذلك يقول احد الرحالة : « رأينا ثلاثة منها ، وكل واحد مقيد من رقبته واقدامه الى عواميد وقوائم بواسطة سلاسل ضخمة من الحديد ، ورغم انها من غير شك حيوانات فظيعة وليست جميلة المنظر ، الا انها ، بسبب ضخامة حجمها وعلوها ، تبدو متمتعة بتلك القوة العظيمة التي يتحدث عنها الكتاب المقدس » .

ولكن لعل الزرافة كانت اكثر اثارة للعجب من غيرها من الحيوانات .

انها عظيمة الارتفاع بحيث ان رجلا طويلا لا يكاد يبلغ بأطراف اصابعه اعلى فخذها ، وهي حيوان جميل جدا يتميز بالركة والوداعة ، لا يخلو شعره من التجاعيد ، وجلده شديد الشبه بجلد الفزال . وتغطي جسم الزرافة بطريقة او اخرى بقع ملونة خفيفة ، ورقبتها ضعيفة طويلة وتحملها عاليا عند المشي . ويوجد فوق راسها قرنان صغيران ، وجبهتها مدببة في شكل الماس ، وقائمتاها الاماميتان اكثر ارتفاعا من الخلفيتين ، وبسبب هذه الخاصة ، يحسبها الناس وكأنها مشوهة التركيب ، وذيلها الذي لا يكاد يتحرك رفيع ويفطيه شعر قليل جدا عند الطرف .

ويحتمل ان السلطان احتفظ ايضا بحيوانات مفترسة ،
فقد قيل انه في يوم ٣٠ نيسان (ابريل) سنة ١٥١٥
اصطرعت فيلة كبيرة الحجم واسود وحيوانات اخرى متوحشة
في الميدان .



لو أن العالم الاسلامي عرف فكرة الـ « commune »
(والمقصود بها اغتصاب هيئة من الافراد لسلطة الحكم
الذاتي) لمثل بناء السلطان حسن المواجه لمركز الحكم تحدي
المدينة لسلطان الدولة . وعلى اي حال ، فان وجود هذا
البناء العتيد في هذا المكان شكل خطرا مستمرا . فنحن
نعرف انه لم يكن دائما بقعة هادئة آمنة ، اذ كان مسرحا لأشد
المغامرات السياسية دموية في تاريخ الممالك : ففيه ارتكبت
اغرب الجرائم واكثرها وحشية . ففي هذا العصر ، ساد من
القلق والاضطراب ما يبعث على الأسى ، حين تلاطمت على
بناء القلعة موجات من الغضب والسخط . فهذه الساحة
للعرض العسكري تشبه ميدان السنيوريا في فلورنسة
— اذا ما تفاضينا عن طبيعة اختلاف المكانين — من حيث انها
القلب النابض للحياة السياسية طيلة قرنين من حكم سلاطين
الممالك .

بين الحصنين ، الحصن الحقيقي ومسجد السلطان حسن ،
أقيمت الحفلات والموائد للسفراء في وقت السلم . فالمكان
فسيح حقا ، حيث يستطيع الناس ان يتمتعوا بالمشي . وكان

هذا الميدان المسطح لا يخلو من اعداد لا تنتهي من الناس بين راجل وفارس ، ولا من الجنود وسائر موظفي السلطان ، وفيه سوق لبيع الجمال والحمير والخيول .

والى الجنوب منه الميدان ، وهو مكان مباريات المبارزة ، حيث عرض المتبارزون اساليب مهارتهم في المراوغة ، التي اعجب بها الممالك أيما اعجاب . كما عقدت مباريات البول التي كانت تسمى لعبة الكرة ، في هذه الساحة الرملية . وقد كتب رحالة من ذلك العصر يقول :

احيانا يجنح السلطان مع سائر ضباطه الى التسلية . والتسلية التي يمارسونها هي ذاتها التي يقوم بها الرعاة في البلاد المسيحية الذين يلعبون بكرة وغضا منحنية . وهناك فرق واحد ، وهو أن النبلاء وسلطانهم لا يضربون الكرة الا من فوق ظهور الخيل ؛ وخولوها بأسلوبهم الخاص الى مباراة عسكرية ، لقياس قيمة الفرس وقوة راكبه وسرعة حركته وغيرها من الصفات العسكرية .

كانت الكرة توضع في وسط الملعب ، ويرسم خطان متوازيان : خط عند كل طرف . ويقسم الراكبون الى فريقين . ويحمل كل لاعب مضربا ذا يد طويلة ، ويحاول ان يضرب الكرة وراء الخط المواجه . وقيل ايضا انه « وجد عند نهاية الملعب قصر فسيح مرتفع ، تستطيع منه نساء السلطان وسائر النبلاء مشاهدة اللاعبين ، وخاصة السلطان

نفسه ، دون الاختلاط بالجمهور الكبير من النظارة . وكلما جاء دور السلطان ليضرب الكرة ، يصفق الجميع ويباركون ، وتصدع أصوات الابواق مرات عديدة ، وتسمع دقات خافتة عميقة من الطبول بين الصياح والتهليل .

وفي هذا الميدان أيضا ، أظهر الممالك مهارتهم كرماة : فالرمية هي الرياضة الوطنية بين الممالك الاتراك . فكانت حماسة توضع داخل قفص من الذهب أو الفضة ، ويطلق المتبارون سهامهم أثناء ركوبهم بأقصى سرعة ، محاولين إصابة الحمامة .

شاهد جياكومينو الفيروني التدريبات العسكرية اليومية للممالك ، وقال :

يجتمع الجنود كل صباح أمام باب القلعة . وجميعهم مسلحون بالقسي ، ويركبون خيلا صغيرة ؛ ولم أر بينها أبدا فرسا حربيا . وأجسام الفرسان ضعيفة الحماية ، ولا يغطي رؤوسهم سوى خوذة صغيرة من الحديد . وقليلون منهم فقط يلبسون الدروع ، أما الآخرون ، فيلبسون وقاء من الجلد فقط . وليس لأحدهم أي وقاية للذراع الذي يحمل القوس ، ولا للأفخاذ والارجل . وهم يستخدمون ركابا قصيرا ، وعندما يريدون الرمي بالقسي ، يقفون عاليا عليه . ومن هذا الوضع يرمون السهام . أما خيل السلطان ، فقد رأيتها

جميعها تلبس اغطية مطرزة بخيوط الذهب والخير .
وحسب قول رحالة آخر من القرن الرابع عشر :

يركب جميع الفرسان على سروج منخفضة وركابات
قصيرة ، كما تفعل النساء . وفي مؤخر كل سرج توجد
حلقة يثبت فيها بطريقة عسكرية عصا أو هراوة لوقاية
الفارس وحمايته . وجميع الفرسان بغير استثناء
مسلحون بسيف مقوس ، كما ان اكثرهم رماة مهرة ،
وخاصة الاتراك منهم الذين يستخدمون اقواسا مصنوعة
من قرون محدبة ، وسهاما ذات رأس كراس الحربة ،
ورأس السهم مثبت في جسم السهم كما يثبت السلاح
في مقبض السكين .

وقد وصلتنا معلومات مشابهة من نهاية القرن الخامس
عشر تقول : « في كل يوم ، أو على الاقل ثلاث مرات في
الاسبوع ، يخرج ممالك القصر الى أسفل الجبل ، ليقوموا
بتدريباتهم العسكرية . وتشتمل هذه التدريبات على تسلق
المضايق والمنحدرات ، وبذلك يدربون خيولهم على الحركة
في السهول والجبال » .

وقد بلغت القلعة اوجها في عصر السلطان الغوري في
بداية القرن السادس عشر ، اذ أمر هذا الحاكم بأن يرفع
مستوى الارض في الميدان بمقدار اربعة اقدام ، ثم سويت

وغطيت بالحصى الصغيرة . وكذلك بنيت مقصورة وغرفة
لتستخدم كدار للمحكمة . وفي الطرف الغربي ، شيدت
شرفة ذات مظلات جميلة صغيرة على الجانبين وبركة من
الماء . كما زرعت أشجار الفواكه واحواض الازهار وشجيرات
النباتات العطرية . فهذا السلطان الذي أولع بزراعة الاشجار
كان يحب ايضا منظر احواض الزهور . وكان يذهب الى
ذلك المكان كل يوم ، ليس فقط لأنه مكان اجتماعاته الرسمية
ولكن لأنه كان يحب المشي فيه .

ولنقرأ الوصف الذي أورده تريفيزانو ، سفير دوقية مدينة
البندقية :

هو ميدان يمتد اسفل الاسوار وتتم فيه تمرينات
الفروسية الماهرة . وهذا الميدان الكبير يبلغ ضعف حجم
ساحة القديس مرقس ، وهو مستطيل الشكل . وحديقة
السلطان اوسع من الميدان ، وفي وسطها تقوم على
مستوى أعلى بدرجة واحدة من مستوى الارض شرفة
مشيدة على اعمدة ، تغطيها النباتات الخضراء ، معلق
على جانبها وخلفها مظلات من القماش للحماية من حرارة
الشمس ، وعلى كل عمود معلق قفص فيه طائر صغير
يفرد . وتمتلئ الحديقة بأشجار الرمان والكمثرى
والتين والعنب والاس وغيرها من الاشجار المختلفة .

وفي شهر أيار (مايو) من سنة ١٥٠٩ (١) :

اقام السلطان احتفالا في الميدان ، ونصب به خيمة كبيرة مستديرة ، وملا البحرة التي انشأها هناك من ماء النيل بواسطة المجراة التي انشأها ، ثم رسم بجمع كل ورد في القاهرة ووضع في تلك البحرة ، وجمع قراء البلد قاطبة والوعاظ ، وعلق أحمالا بها قناديل ، وفرش حول البحرة الفرش الفاخرة ، وعزم على القضاة الاربعة وسائر الامراء من كبير وصغير وأرباب الوظائف من المباشرين واعيان الناس قاطبة ومد (السلطان) تلك الليلة أسمطة حافلة ، فمد في السماط أربعمائة صحن صيني ، ورسم بأن تعمل المأمونية الحموية (ما يعرف بالمارزبان وهو من عجين اللوز) ، وكان من الأوز والدجاج والغنم ما لا ينحصر ، ومن اللحم ألف وخمسمائة رطل ، ومن الدجاج ألف طير ، ومن الأوز خمسمائة طير ، ومن الغنم المعاليف خمسون معلوفا ، ومن الرمسان الرضع أربعون رميسا ، حتى قيل صرف على ذلك السماط فوق الألف دينار بما فيه من حلوى وفاكهة وسكر وغير ذلك .

وفي اليوم العاشر من نيسان (ابريل) سنة ١٥١٠ ، في

(١) بدائع الزهور ٤ : ١٥١ .

عيد رأس السنة الهجرية ، نزل السلطان الى الميدان لتقبل تهاني كبار ضباطه . وقدم لكل واحد منهم وردة . ويضيف المؤرخ الذي اورد لنا هذا الخبر قوله(١) : « فقبلوا له الارض الامراء المقدمون لأجل الورد ، حتى عد ذلك من النوادر » .

في سنة ١٥١١ ، أينعت الشجيرات التي غرسها السلطان بالميدان ، وأخرجت ما شتله به من الازهار ما بين ورد وياسمين وبان وزنبق وسوسان وغير ذلك من الازهار الغريبة . وفي ذلك يقول ابن اياس (٢) :

ولقد عاينت به (يعني الميدان) وردا أبيض زكي الرائحة ، وهو غير أنواع الورد التي بمصر ، وقد نقل من الشام ، وكان يطرح في أوان الصيف والنيل في قوة الزيادة ، وهو نوع غريب لم يوجد بمصر . فكان السلطان يضع له دكة كبيرة مطعمة بالعاج والآبنوس ويفرش فوقها مقعدا مخملا بنطع ويجلس عليه ، وتظله فروع الياسمين ، ويقف حوله المماليك الحسان بأيديهم المدبات ، ينشون عليه . ويعلق في الاشجار أقفاص فيها طيور مسموع ما بين هزارات ومطوق وبلابل وشحارير وقماري وفواخت وغير ذلك من طيور المسموع . ويطلق بين الاشجار دجاج حبشي وبط صيني وحجل وغير

(١) بدائع الزهور ٤ : ١٧٧ .

(٢) المصدر نفسه ٤ : ١٧٢ .

ذلك من الطيور المختلفة . وقارة يجلس على البحرة التي طولها اربعون ذراعا وتمتلئ كل يوم من ماء النيل بسواقي نقالة من المجرة تجري ليلا ونهارا . فيجلس على سرير هناك في غالب أيام الجمعة ولا يدخل عليه من الأمراء أحد الا من يختاره .

هذا هو المكان الذي اقام فيه السلطان حفلات رائعة للسفراء الذين كانوا يمرون بالبلاد . وفي بداية القرن السادس عشر ، ارسل عدد من الحكام سفارات الى سلطان مصر . ويذكر المؤرخون أنه في سنة ١٥١٢ ، وجد في القاهرة نحو اربعة عشر قاصدا (سفيرا) في وقت واحد . فمن ذلك قاصد شاه اسماعيل الصوفي ، وقاصد ملك الكرج (جورجيا) ، وقاصد ابن رمضان أمير التركمان (كيليكية) ، وقاصد من عند ابن عثمان ملك الروم ، وقاصد يوسف بن الصوفي خليل أمير التركمان ، وقاصد صاحب تونس ملك المغرب ، وقاصد من مكة ، وقاصد الملك محمود (البنغال) ، وقاصد ابن درغل أمير التركمان ، وقاصد من عند نائب حلب ، وقاصد من عند حسين الذي توجه (في تجريدة) الى الهند ، وقاصد ملك الفرنج الفرنسية (فرنسة) ، وقاصد البنادقة (البندقية) ، وقاصد علي دولات (سليكية) ، وغير ذلك قصاد من عند جماعة من النواب (١) .

(١) انظر بدائع الزهور ٤ : ٢٦٨ - ٢٦٩ .

عرفت دولة سلاطين المماليك نهايتها في الواقع فيما يمكن ان يسمى ساحة الاعدام ، وهو الباب الجنوبي للقاهرة الفاطمية ، المسمى بباب زويلة .

ففي اليوم الرابع عشر من شهر نيسان (ابريل) سنة ١٥١٧ ، البس السلطان السابق طومان باي رداء ذا اكمام طويلة وقلنسوة ، وكان مقيدا بالسلاسل ومحمولا فوق جمل ، ثم عبر المدينة من شمالها الى جنوبها . وعند باب زويلة ، انزل عن دابته وفك وثاقه واحاط به الجنود العثمانيون الذين حملوا سيوفا مشهورة . وعندما ايقن انه سوف يشنق ، وقف امام الباب وصاح : « اقراوا الفاتحة لي ثلاث مرات ! » ثم مد يده وقرأ الفاتحة ثلاث مرات . ثم استدار نحو الجلاد وقال : « قم بعملك ! » فوضع الحبل حول عنقه وشد الى اعلى . فتمزق الحبل ووقع طومان باي اسفل الباب . ويقال ان الحبل تمزق مرتين ووقع منه الرجل الى الارض . وفي آخر الامر ، شنق عاري الرأس وجسده مغطى بأسمال حمراء ، وقدماه مقيدتان بأشرطة من قماش ازرق . وعند موته ، علت صيحة عظيمة من الجمهور الحزين المنكسر .

كان من المتوقع ان يقع هذا الاعدام . ولكن لسوء الحظ ،
لم يتوقف السلطان سليم عند هذا الحد ؛ فبعد ذلك بعدة
اشهر ، شهد حفلة من حفلات خيال الظل في جزيرة
الروضة ، وفيها عرض الفنانون باب زويلة وطومان باي ممثلا
بدمية عند وقت شنقه . ووجد السلطان العثماني المنظر مسليا
عندما تمزق الحبل مرتين . واعطى الفنان مائتي دينار وقال
له : « عندما نذهب الى استانبول ، احضر معنا حتى يستطيع
ابني ان يرى هذه التمثيلية ! » .

مجلد بتواریخ حکام مصر

٦٤٠ — ٨٦٨	الحكام من قبل الخلفاء
٨٦٨ — ٩٠٥	الدولة الطولونية
٩٠٥ — ٩٣٩	عودة الحكام من قبل الخلفاء
٩٣٩ — ٩٦٩	الدولة الاخشيدية
٩٦٩ — ١١٧٢	الدولة الفاطمية
١١٧٢ — ١٢٥٠	الدولة الايوبية
١٢٥٠ — ١٥١٧	سلاطين المماليك
١٥١٧	الفتح العثماني لمصر

* * *

مراجع مختارة

الكتب العربية :

ابن اياس : بدائع الزهور في وقائع الدهور ، تحقيق محمد مصطفى ، الأجزاء ٣ و ٤ و ٥ ، القاهرة ، ١٩٦٠ - ١٩٦٣ .

ابن بطوطة : الرحلة ، بيروت ، ١٩٦٠ .

ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، القاهرة ، ١٩٦٣ .

ابن جبير : الرحلة المسماة تذكرة بالاخبار عن اتفاقات الأسفار ، لندن ، ١٩٠٧ ؛ بيروت ، ١٩٥٩ .

ابن حوقل : صورة الأرض ، بيروت ، ١٩٥٧ ؟

ابن خلدون : المقدمة ، بيروت ، ١٩٦١ .

_____ : التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا ، تحقيق محمد بن تاويت الطنجي ، القاهرة ، وعنه نقلت ط . بيروت ، ١٩٥٩ .

أحمد فكري : مساجد القاهرة ومدارسها : المدخل (١٩٦١) ، والجزء الاول : العصر الفاطمي (١٩٦٥) ، القاهرة .
الادريسي : المغرب وارض السودان ومصر والاندلس ، المأخوذ عن كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق ، لندن ، ١٨٦٤ .

خليل الدهيري الظاهري : زبدة كشف الممالك وبيان الطرق
والمسالك ، باريس ، ١٨٩٤ .

دي بور : تاريخ الفلسفة في الاسلام ، ترجمة الدكتور محمد
عبد الهادي ابو ريدة ، القاهرة .

ساويروس بن المقفع الاشمونى : تاريخ بطاركة الكنيسة
القبطية بالاسكندرية ، وهو الجزء الاول من مجموعة
Patrologia Orientalis ، باريس ، ١٩٠٣ .

سيدة اسماعيل كاشف : مصر في فجر الاسلام ، القاهرة ،
١٩٤٧ .

شحاته عيسى ابراهيم : القاهرة ، القاهرة ، ١٩٥٩ .

الشهرستاني : الملل والنحل ، القاهرة ، ١٩٦١ .

عبد الرحمن زكي : القاهرة تاريخها وآثارها (٩٦٩ -
١٨٢٥ م) من جوهر القائد الى الجبرتي المؤرخ ، القاهرة ،
١٩٦٦ .

عبد اللطيف البغدادي : الافادة والاعتبار في الامور المشاهدة
والحوادث المعاينة بارض مصر ، لندن ، ١٩٦٥ .

العياشي : رحلة ابي سالم عبدالله بن محمد بن ابي بكر
العياشي ، فاس ، ١٣١٦ هـ .

المسعودي : التنبيه والاشراف ، لندن ، ١٨٩٣ .

المسعودي : مروج الذهب ومعادن الجوهر ، تحقيق

محمد محيي الدين عبد الحميد ، اربعة اجزاء ، القاهرة ،

١٩٥٨ .

المقدسي : أحسن التقاسيم في معرفة الاقاليم ، لندن ،

١٨٧٧ .

المقري : نفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب ، تحقيق

محمد محيي الدين عبد الحميد ، القاهرة ، ١٩٤٩ .

المقريزي : المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ،

جزءان ، بولاق ، ١٢٧٠ هـ .

_____ : السلوك لمعرفة دول الملوك ، ثلاثة اقسام ،

تحقيق د. محمد مصطفى زيادة ، ١٩٣٤ - ١٩٤١ .

ناصر خسرو : سفرنامه ، نقله الى العربية د. يحيى

الخشاب ، القاهرة ، ١٩٤٥ .

الكتب الاجنبية :

Affagart, Geffin. Relation de Terre Sainte. Redigé par J.

Chavanon. Paris, V. Lecoffre, 1902.

Angiure, Ogier d'. Le saint voyage de Jérusalem. Redigé

par François Bonnardot et Auguste Longnon. Paris, Firmin-Didot, 1878.

Baumgarten, Martin von. Peregrinatio in Egyptum. Nu-remberg, 1594.

Belon, Pierre. Les observations en Grèce, Asie, Egypte, Arabie. Paris, 1555.

Breydenbach, Bernhard von. Les saintes pérégrinations.

Texte et traduction par F. Larrivaz. Le Caire, 1904.

Casanova, Paul. « Histoire et description de la Citadelle du Caire ». *Mémoires de la Mission archéologique française du Caire*. Tome VI, Le Caire, 1897.

Clerget, Marcel. *Le Caire*. Le Caire, E. et R. Schindler, 1934.

Dopp, P.H. « Le Caire vu par les voyageurs occidentaux du moyen âge ». *Bulletin de la Société royale de géographie d'Égypte*. Tome XXIII, 117-49; Tome XXIV, 115-62. Le Caire, 1950-51.

Franz, Julius. *Kairo*. Leipzig, E. A. Seemann, 1903.

Hauteœur, Louis, et Gaston Wiet. *Les mosquées du Caire*. Paris, Ernest Leroux, 1932.

Issa, Ahmed Bey. *Histoire des Bimaristans*. Le Caire, 1928.

Lanc, Edward William. *An account of the Manners and Customs of the Modern Egyptians*. 2 vols. London, 1836-37.

Lane - Poole, Stanley. *Cairo : History, Monuments, Social Life*. London, J.S. Virtue and Co., 1892.

———. *A History of Egypt in the Middle Ages*. London, Methuen and Co., 1901.

———. *Saladin and the Fall of the Kingdom of Jerusalem*. London, 1898.

———. *The Story of Cairo*. London, J.M. Dent and Co. 1902.

Leo Africanus. *Description de l'Afrique*. Traduction par A. Epaulard. Paris, A. Maisonneuve, 1956.

Levi-Provençal, Y. E. Garcia Gomez. *Una Cronica Anonima de Abd Al-Rahman III Al Nasir*. Madrid — Granada, 1950.

Margoliouth, David Samuel. *Cairo, Jerusalem, and Damascus*. London, 1917.

Migeon, Gaston. *Le Caire*. Paris, H. Laurens, 1906.

Piloti, Emmanuel. **L'Egypte au commencement du quinzième siècle.** Redigé par P.H. Dopp. Le Caire, 1950.

Ravaisse, P. «Essai sur l'histoire et la topographie du Caire». **Mémoires de la Mission archéologique française du Caire.** Tomes I, III. Le Caire, 1886-89.

Repertoire Chronologique d'Epigraphie Arabe. Sous la direction de E. Combe, J. Sauvaget et Gaston Wiet. 16 Tomes. Publications de l'Institut français d'archéologie orientale, Le Caire, 1931 - 1964.

Rhoné, Arthur. **L'Egypte à petites journées.** Paris, Société générale d'éditions, 1910.

Russell, Dorothy. **Medieval Cairo and the Monasteries of the Wadi Natrun.** London, 1962.

Salmon, Georges. «Etudes sur la topographie du Caire». **Mémoires de l'Institut français d'archéologie orientale.** Tome VII. Le Caire, 1902.

Sladen, Douglas B. W. **Oriental Cairo.** London, 1911.

Thenaud, Jean, **Le voyage d'Outremer.** Redigé par Charles Schefer. Paris, Ernest Leroux, 1884.

Wiet, Gaston. **L'Egypte arabe. Histoire de la nation égyptienne.** Dirigée par Gabriel Hanotaux. Tome IV. Paris, 1937.

Zand, Kamal Haffuth, John A. and Ivy E. Videan. **The Eastern Key.** London, 1965.

الفهرست

أ

- أسية ١٠١
أسية الصغرى ١٦٣
الأمر بالله ٦٣
ابن أبي أصيبعة ٢٠٢
أحمد بن طولون ١٧ ، ١٨ ، ٢٠ ، ٢١ ،
٢٥ ، ٦٥ ، ٢٠١
الأخشيدي محمد بن طغج ٢٣
الأخشيديون ٢١ ، ٢٢ ، ٢٥ ، ١٥٥ ،
٢٠٢
الأدرسي ٧٠
الأربطة ، انظر : الخوانق
أزبك ١٨٨
الأزبكية ١٨٨ - ١٨٩ ، ١٩١
الأسبلة ٢٠٩ - ٢١٠
استانبول ٢٥٠
الاسكندرية ١٥ ، ٢٠ ، ١٠١ ، ١٠٢ ،
١٠٣ ، ١٠٥ ، ١٧٣
إسماعيل الصوفي (ملك الكرج) ٢٤٥
الإسماعيلية ٤٨
الأسواق ٨٢ ، ١٢٩ ، ١٣٠ ، ١٣١ ،
١٢٨ ، ١٤٥ ، ١٥١ - ١٥٢ ، ١٥٩ ،
١٦٤ ، ١٦٥ ، ١٦٧ ، ١٧٤ ، ١٩٥ ،
١٩٨ ، ١٩٩ ، ٢١٤ ، والتعليم : ٢٧
سوق الأجناد ٨٨
سوق الأطعمة ١٥٨
سوق الأقمشة ١٤٥
سوق باب الفتوح ١٥٣
سوق البزازين ١٥٥ - ١٥٦
سوق الحلّابين ١٦٢
سوق الدجاجين ١٥٧
سوق السروجيين ١٦٠
سوق السلاح ١٥٩
سوق الشماعين ١٥٥
- سوق الصناديقين ١٥٩
سوق العبيد ١٥٦ - ١٥٧
سوق العصفري ١٩٩
سوق العنبر ١٩٩
سوق الفرائين ١٦١
سوق القناديل ٦٨
سوق الكفتيين ١٦١ - ١٦٢
سوق الرحلين ١٥٣
سوق النجارين ١٦١
الاشعري ٩٠ ، ٩١
الاشعرية ٨٩
الاضاءة ٢٩ ، ١٢٩ ، ١٧٤ ، ١٨٩ -
١٩٠
الاضرحة ٥٤ ، ١٤٥ ، ؛ الاضرحة
الشيعة : ٥٥ ؛ اضرحة الماليك :
٢١٦
ضريح السلطان الفوري ١٩٩
ضريح السلطان قلاوون ١٩٩ ، ٢٠٣
ضريح السيدة نفيسة ٦٣ ، ١١٧ ،
١٤٦
ضريح سيدنا الحسين ١٤٦
ضريح الشافعي ٩٠ ، ٩٨
ضريح الملك الصالح أيوب ١٥٨
الاعياد والاحتفالات ٤٨ - ٥٠ ، ١٤٥ ،
١٧٢ ، ١٧٤ - ١٧٦ ، ١٨٠ ، ١٨٤
- ١٨٥ ، ١٨٧ ؛ اعياد السنة : ٤٨ ؛
اعیاد الشيعة : ٤٨ ؛ اعياد
المسيحيين : ٤٨ ؛ انظر ايضا :
اللاهني
عيد رأس السنة الهجرية ٢٤٤
عيد رأس السنة القبطية (عيد
النوروز) ١٨٤ ، ١٨٥
عيد الفطاس ٢٣

عيد وفاء النيل (عيد الشهيد) ٤٨ ،	الاندلس ٥٥
١٨٥ — ١٨٧	انكونا ١٠٤
افريقية ١٠١	الاهرام ٢٢٢
الاقباط ٢٤	اورليان ٢٢٨
افليدس ٦٠	اوروية ٦٠ ، ١١٢ ، ١٤٠ ، ١٦٢ ، ١٦٦
« الف ليلة وليلة » ١٣٧ ، ١٤٥ ،	الاولياء ٥٤ ، ٥٥
١٥٧ ، ١٩٧	ابن اياس : نص : ٢٤٤
بنو امية ١٦	ايطالية ١٦٧
انتويرب ١٦٤	الايوبيون ٧٧ ، ١٥٨

ب

باب زويلة ٣٧ ، ٥٠ ، ٦٣ ، ٨١ ، ٩٨ ،	بركة الازبكية ١٨٨ ، ١٨٩
٩٩ ، ١٢٧ ، ١٣٠ ، ١٦٢ ، ١٦٦ ،	بركة الفيل ٦٤ ، ٨٧ ، ١٠٠
١٦٧ ، ١٧٧ ، ١٩٩ ، ٢٤٩ ، ٢٥٠	بريدنيانخ ٩٩ ؛ نصوص : ١٢٤ ، ١٢٩ ،
باب سان دنيس (في باريس) ٩٩	٢٠١ ، ٢١٦
باب سان مارتان (في باريس) ٩٩	البصرة ٢١ ، ٦٥ ، ٦٦
باب الفتوح ٥٠ ، ٥٢ ، ١٠٠ ، ١١٧ ،	ابن بطوطة ١٢٠ ؛ نصوص : ١٠٣ —
١٥٢ ، ١٥٣ — ١٥٤ ، ١٩٨	١٠٤ ، ١٢٠ ، ١٧٣ ، ٢٠٦ — ٢٠٧ ،
باب اللوق ٩٨ ، ١٠٠ ، ١٨١	٢١٤
باب النصر ٥٠ ، ١٠٠ ، ١٥٥ ، ١٦٦ ،	ابن بطلان ٦١ — ٦٢
١٧٧	بعلبك ١٦٧
بابلون ١٢١	بغداد ١١ ، ١٥ ، ٢٢ ، ٣١ ، ٣٦ ،
بادوة ١٦٣	٣٧ ، ٣٨ ، ٥٦ ، ٦٥ ، ٦٦ ، ١٠٦
باريس ٩٩ ، ١٢٠ ، ١٢٣ ، ١٦٢ ،	بلزك : نص : ١٠٧
١٦٤ ، ١٧٤	البلعمي ٥٥
باومجارتن : نص : ٢١٤	البندقية ١٠٤ ، ١٢٢ ، ١٣٤ ، ١٦٧ ،
البحث العلمي ٥٦	١٨٧ ، ٢١٥ ، ٢٤٢ ، ٢٤٥
البحر الابيض المتوسط (ايضا : بحر	البنغال ٢٤٥
الاسكندرية ، بحر الروم) ٢٢ ،	بواسونيير ٩٩
٨٥ ، ١٠١ ، ١٠٣ ، ١١١	بوتسدام ٢٢٥
البحر الاحمر (ايضا : بحر الحجاز)	بولاق ٨٠ ، ٩٨ ، ٩٩ ، ١٠٤
٨٥ ، ١٠٣ ، ١٦٤	بيبرس (السلطان) ٢٣٠ ، ٢٣١ ،
بدر الجمالي (الوزير) ٥٠ ، ٦٢ ، ٦٣	٢٢٢ ، ٢٣٣
بديع الزمان الهمداني ٥٥	بيت الذهب ١٩ — ٢٠
ابو البركات ابن الموفق الخبوشاني ٨٩	بيت المقدس ١٣٩

بيروت ١٠٢	البيمارستانات ، انظر : المستشفيات
البيروني ٥٥	بين القصرين ٨٦ ، ١٥٧ - ١٥٨ ، ١٦٦
بيلوتي ، عمانوئيل : نصوص : ١٠١ -	البيوت ، المنازل ٤٠ ، ٧٩ ، ٩٨ ،
١٠٢ ، ٢١٥	١١٧ ، ١٢٢ ، ١٢٣ ، ١٢٤ ، ١٢٥ ،
بيلون ، بيار ٩٩ ؛ نصوص : ١٠٤ ،	١٢٦ ، ١٢٨ ، ١٢٧ ، ١٣٨ ، ١٤٠ -
١٧٤ ، ١٨٢ ، ٢٣٢ - ٢٣٤	١٤٤ ، ١٤٥ ، ١٧٤

ت

« تاريخ بطاركة الاسكندرية »	تعليم الحساب ٢٧
(ساويرس الاثموني) ٢٤	تعليم الخط ٢٥ ، ٢٧
التجارة ٦٨ ، ٦٩ ، ٨٥ ، ٨٧ ، ١٠١ ،	تعليم الرياضيات ٢٧ ، ٥٦
١٠٩ ، ١٦٣ ، ١٦٤ - ١٦٥ ، ١٩٦ ،	تعليم السيرة النبوية ٢٧
١٩٨ ، ١٩٩	تعليم الشعر ٢٥ ، ٢٧ ، ٢٨ ، ٥٦
« تراجيديات » (دوبينييه) ٢١٤	تعليم الطب ٥٦
التركمان ٢٤٥	تعليم العلوم الطبيعية ٥٦
تريفيزانو البندقلي ١٢٨ ، ١٢٧ ؛	تعليم الفقه ٨٣
استقباله بمصر ٢٢٩ ؛ نصوص :	تعليم الفلسفة ٥٦
١٤٧ ، ١٨٦ ، ٢٢٩ ، ٢٤٢	تعليم الفلك ٢٧ ، ٥٦
تسكانية ١٢١	تعليم الفنون ٥٦
التشريع الاسلامي ٣٠ ، ٣١	تعليم القانون ٢٧
التعليم ٢٣ - ٣٠ ؛ اهدافه : ٢٤ ،	تعليم القراءة ٢٦ - ٢٧
٢٥ ، ٢٦ ؛ مستواه : ١٠٦ ؛	تعليم القرآن ٢٥ ، ٢٦ ، ٢٧ ، ٨٣
مشكلاته : ٢٣ ؛ نظامه وطريقته :	تعليم الكتابة ٢٦ ، ٢٧
٢٥ ، ٢٦ ، ٩١ ؛ التعليم الابتدائي :	تعليم اللغة العربية ٢٨
٢٧ - ٢٨ ؛ التعليم الاعلى : ٢٨ ؛	تعليم المساحة ٥٦
التعليم الديني : ١٠٩ ؛ التعليم	تعليم المفردات ٢٧
والذاكرة : ٢٦ ، ٢٧	تعليم النحو ٢٧ ، ٥٦ ، ٨٣
تعليم الاحياء ٥٦	تونس ٢٤٥
تعليم التاريخ ٢٧ ، ١٠٦ ؛ تاريخ	تيمورلنك ١٩٨
ما قبل الاسلام : ٢٧	تينو ، جان : نصوص : ١٤٢ ، ٢٢٨ -
تعليم الحديث ٢٥ ، ٢٦	٢٢٩

ج

الجامع الازهر ٢٧ ، ٢٨ ، ٥٢ - ٥٣	جامع اشبيلية ٨٢ ، ٨٣
٥٦ ، ١٦١ ، ١٩٩	جامع مراکش ٨٢

- الحيوانات ١٠٠ ، ٢١٣ ، ٢١٥ ، ٢١٦
 جبل سيناء ١٠٢ ، ١٦٥
 جبل القطم ١٨ ، ٦٤ ، ٧٥ ، ٩٧ : جوبينو : نصوص : ١١٢ ، ١٤٣ ، ٢٢١ ، ٢٢٢
 ابن جبر ٥٤ ، ٧٧ ، ٩١ ، ٩٢ : جوتشي دي دينو : نص : ١٢١
 نصوص : ٢٥ ، ٧٧ ، ٧٨ ، ٧٨ : جومر (القائد) ١٧ ، ٢٥ ، ٣٦ ، ٣٨ ، ٨٠ ، ٩٠ ، ٩٢ ، ٢٠٢ - ٢٠٣ ، ٢١٣
 « الجداول الحاكمة » (ابن يونس) : جياكومينو الفيروني : نص : ٢٤٠ - ٢٤١
 الجزيرة (الروضة) ٢٣ ، ٦٤ ، ٦٥ : جيحون ٦٩
 ٦٩ ، ٨٤ ، ٨٨ ، ١٨٧ ، ٢٥٠ : الجيزة ٦٤ ، ٦٥ ، ٦٩ ، ٧٥ ، ٨٤

ح

- الحاكم بأمر الله ٢٩ ، ٥٨ ، ٥٩ ، ٦٠ : حسن (السلطان) ٢٢٣
 ٦١ : ابو الحسن الوزان الفاسي ، انظر :
 الحبة ٦٨ ، ١٠١ ، ١٦٣ ، ١٦٤ : ليو الافريقي
 الحجاز ١٧٨ : الحسين بن علي ٥٤
 الحج والحجاج ٥٤ ، ١٠١ ، ١٤٥ : الحسينية ١٠٠ ، ١٥١
 ١٥٣ : الحشوية ٨٩
 حديقة الخليفة الفاطمي ٦٣ - ٦٤ : حلب ٥٥ ، ٢٤٥
 حديقة خمارويه ١٩ : بنو حمدان ٥٥
 حديقة كافور ٣٥ : الحمامات العامة ٤٠ ، ١٢٧ ، ١٢٨ ،
 الحرائق ١٢٨ : ١٤٤ ، ١٦٦ ، ١٨١ ، ٢٠٠ - ٢٠١
 الحريري ٥٥ : ابن حوقل ٨٤ : نص : ٦٤

خ

- الخانات ١٩٦ ، ١٩٨ ، ١٩٩ : ٨٩ ، ١٠٠ ، ١٤٥ ، ١٨٦ ، ١٨٧ ،
 ١٨٨ ، ٢٣٥ : خان الخليلي ١٥٦ ، ١٦٧ : خليل الظاهري : نص : ٢٢٧
 ١٩٧ : خان منصور : خمارويه ١٨ ، ١٩
 خزائن الفاطميين ٤٦ - ٤٧ : الخوارج ٣٠
 ابن خلدون ١٠٧ ، ١٢٠ ، ١٨١ : الخوانق ٢٠٥ ، ٢٠٦ ، ٢٠٨ ، ٢٠٩ ،
 نصوص : ١٠٥ ، ١٠٦ ، ٢٠٨ : ٢١٠ ، ٢١٤ - ٢١٥ : الخليج ٣٥ ، ٣٧ ، ٣٨ ، ٨٠ ، ٨٦

د

- دا برتينورو ١٢٨
دار الحكمة (ايضا : دار العلم) ٥٨ : دمشق ١١ ، ١٥ ، ٦٦ ، ١٦٣ ، ١٧٣
٥٩
دار الوكالة ١٩٦
دانجلور (سنيور) : نص : ١١٩
ابن دوجل (امير التركمان) ٢٤٥
دمياط ١٠٢ ، ١٠٣ ، ١٠٥
دميان ، الكاردينال بيير : نص : ٢٠٨
دوينيه ، اجريبا ٢١٤

ذ

ذو النون المصري ٣١ - ٣٢

ر

- الرازي ، ابو بكر ٦٢
راس الرجاء الصالح ٩
الرحالة ١٣٤ ، ١٣٦ ، ١٣٩ ، ١٤١ ،
١٤٣ ، ١٥٧ ، ١٦٣ ؛ الرحالة
الاوروبيون : ١١ ، ٩٧ ، ١٠١ ،
١١٩ ، ١٢٢ ، ١٢٣ ، ١٣٩ ، ١٤٢ ،
١٥٦ ، ١٨٦ ، ٢١٤ ، ٢٣٦ ؛ رحالة
القرن السادس عشر : ٢٢٨
« رسالة في البصريات » (ابن الهيثم)
٦٠ ، ٦١
رسل بيزنطة ١٩
رسل الفرنجة ٤٣ ، ٤٤ ، ٤٥
ابن رشد ٥٥
ابن رضوان (الطبيب) ٦١ ، ٦٢ ،
٦٦ ؛ نصوص : ٦٤ ، ٦٧
ابن رمضان (امير التركمان) ٢٤٥
الرميلة ١٠٠
الرهبان الايطاليون ٢٠٨
الرودي ٥٥
الروضة ، انظر : الجزيرة
الروم ٢٤٥
رومة ١٢٤ ، ١٢٦ ، ١٣٤ ، ١٦٣

ز

- زنجبار ٦٨
ابن زهر ٥٥
الزوايا ، انظر : الخوانق
زين العابدين ٥٤

س

ساحة القديس مرقس (في البندقية)	سليم الفاتح (السلطان) ٢٥٠
٢٤٢	السنة ٢٧ ، ٩٠ ، ٩١
سارية ٢١٢	سنكا ١٢٦
السامانيون ٥٥	سورية ٥٥ ، ٦١ ، ٩٢ ، ١٠٢
سامرا ١٨	سيجولي ، سيمون : نصوص : ١٢١ ،
سان دنيس ٩٩	١٦٤ - ١٦٥
ساويروس الاثموني ٢٤	سيميونس ، سيمون : نصوص :
ابن سعيد ٨٠ ، ٩٢ ، ١٠٢ : نصوص :	١٢٠ ، ١٢٤
٨١ ، ٨١ - ٨٥ ، ٨٥ - ٨٩	السين ١٠٤
سليكية ٢٤٥	ابن سينا ٥٥

ش

شاتوبريان : نص : ١١١	الشوارع ٣٩ ، ٨٦ ، ١١٧ ، ١١٩ ،
الشافعي ٣٠ ، ٣١ ، ٨٩ ، ٩٠	١٢٢ ، ١٢٣ ، ١٢٤ ، ١٢٥ ، ١٢٦ ،
الشام ١٩٩ ، ٢٤٤	١٢٧ ، ١٢٩ ، ١٣٠ ، ١٣١ ، ١٣٢ ،
شاو (الوزير) ٤٣ ، ٤٥ ، ٧١	١٣٥ ، ١٣٧ ، ١٣٨ ، ١٤٠ ، ١٥٤
شمال افريقية ٣٠ ، ٣٥ ، ٣٧ ، ٥٣ ،	شارع تحت الربع ١٢٢
١٦٢	الشيعة ٣٠ ، ٥٨

ص

الصحابة ٨٢	الصناعات والصناع ٦٨ ، ٨٥ ، ٨٨ ،
الصعيد ١٠٣ ، ٢٢٦	١٥٦ ، ١٥٩ ، ١٦٠ ، ١٦١ ، ١٦٢ ،
صلاح الدين يوسف بن ايوب ١٧ ،	١٦٣ ، ١٦٥ ، ١٦٧ ، ١٦٨ ،
٧٥ ، ٧٦ ، ٧٧ ، ٨٩ ، ٩١ ، ٢٠٢ ،	الصوفيون ٣١ ، ٢٠٥ ، ٢٠٦ ، ٢٠٧ ،
٢٢٥ ، ٢٠٢	٢٠٨ ، ٢٠٩
الصليبيون ٩١ ، ١١١	الصين ١٠١

ط

الطور ١٠٢ ، ١٦٥	طومان باي ٢٤٩ ، ٢٥٠
ينو طولون ١٧ ، ١٨ ، ٢١	

ع

علم الطبيعة ٦١	العباسيون ١٦ ، ٢٠ ، ٢٧
علم الفلك الكوني ٦٠	عبد الرحمن الثالث (الخليفة الاموي
علم القراءات ٢٦	بالاندلس) ٣٧ هـ
علم الكيمياء : تأليف فيه ٥٧	عبد اللطيف البغدادي ٧٨ ، ٩٢ ، ٩٣ ؛
علم اللغة العربية ٥٥ ، ٥٨	نصوص : ٧٩ ، ٢٠٠ - ٢٠١
علم اللوجاريثمات ٦٠	العبيديون ، انظر : الفاطميون
علم المناخ ٦١	العراق ١٩ ، ٣٠ ، ٥٠ ، ٥٦ ، ٦٠ ،
علم النحو ٥٨	٧٧
العلويون ٥٤	المسكر ١٧ ، ١٨ ، ٣٥ ، ٧٥ ؛
علي دولات (الاسرة) ١٧٧ ، ٢٤٥	اختطاطها : ١٦
عمر الخيام ٥٥	ابو الملاء العربي ٥٥
عمرو بن العاص ١٦	العلم والعلوم : مستواها : ١٠٦
عمار بن علي ٦١	علم البصريات : تأليف فيه ٩٣
	علم حساب المثلثات ٦٠

غ

٢٤٥ ، ٢٤٤ ، ٢٤٣ ، ٢٤٢ ، ٢٤١	الغزالي ٥٥
	الغوري (السلطان) ١٦٠ ، ١٦٦ ،

ف

الفردوسي ٥٥	الفارابي ٥٥
الفرنجة ٧١ ، ١١٠	فارس ٣٠ ، ٥٥
فرنسة ١١١ ، ٢٤٥	ابن الفارض ٩٤
فرواسار : نص : ١٧٣	الفاطميون ١٧ ، ٢١ ، ٣٥ ، ٣٧ ، ٤٦ ،
فريدريك الثاني ٩٣	٤٨ ، ٥٢ ، ٥٤ ، ٥٥ ، ٥٦ ، ٥٧ ،
فريسكوبالدي ١٠٤ ، ١٢١ ، ١٣٧ ،	٧٥ ، ٧٧ ، ٨٠ ، ٨٥ ، ٩١ ، ٩٩ ،
١٥٤ ؛ نص : ١٤٦	١١٣ ، ١٥٥ ، ١٥٨ ، ١٧٤ ، ٢٠٢
الفسطاط ١٧ ، ٢٣ ، ٢٤ ، ٢٥ ، ٣١ ،	الفتح العربي لمصر ٩ ، ١٥ ، ٢٤
٢٥ ، ٢٩ ، ٤٠ ، ٦٢ ، ٦٣ ، ٦٤ ،	ابو فراس الحمداني ٥٥

٦٥ ، ٦٩ ، ٧٥ ، ٧٨ ، ٨٠ ، ٨١ ، ٨٢ ، ٨٤ ، ٨٥ ، ٨٦ ، ٨٨ ، ٨٩ ، ٩٨ ، ١٢٠ ، ١٥١ ، ١٦٢ ، ١٧٩ ، ١٨٧ ، ٢٠١ ؛ اختطاطها : ١٥ ، ١٦ ؛ أهلها : ٧٠ ، ٨٤ ، ٨٥ ؛ تسميتها : ١٥ - ١٦ ؛ الحالة الصحية : ٦٧ ؛ خرابها : ٧١ ، ٧٢ ؛ عمارتها ١٩٦ ؛ وصفها : ٦٤ ، ٦٥ ، ٦٦ ، ٦٨ ، ٧٠ ، ٨٢ ، فلسطين ١٥٨

فلوير : نص : ١٢١
فلورنسة ١٢٢ ، ١٦٣ ، ٢٢٤ ، ٢٣٨
الفتادق ١٦٧ ، ١٩٦ - ١٩٧ ، ١٩٩ ؛
فتادق المنسوجات : ١٦٧ ؛ فندق
دار التفاح ١٩٨
فولتير : نص : ١٩٥
فيليتشي برانكاتشي الفلورنسي :
استقباله بالقلعة : ٢٣٠ - ٢٣٣ ؛
نص : ٢٣٠ - ٢٣٣

ق

القاهرة ٩ ، ١٠ ، ١١ ، ١٥ ، ١٦ ، ٢١ ، ٢٥ ، ٢٩ ، ٤٨ ، ٥٤ ، ٥٩ ، ٦٢ ، ٦٣ ، ٦٤ ، ٧٥ ، ٧٦ ، ٧٧ ، ٧٨ ، ٨١ ، ٨٢ ، ٨٥ ، ٨٦ ، ٨٨ ، ٨٩ ، ٩٤ ، ٩٧ ، ٩٩ ، ١٠٢ ، ١٠٤ ، ١٠٦ ، ١٠٧ ، ١٠٨ ، ١١١ ، ١١٧ ، ١١٩ ، ١٢٠ ، ١٢١ ، ١٢٤ ، ١٢٥ ، ١٢٨ ، ١٢٩ ، ١٣١ ، ١٣٦ ، ١٣٧ ، ١٤٥ ، ١٦٢ ، ١٦٤ ، ١٦٥ ، ١٦٦ ، ١٦٩ ، ١٧٩ ، ١٨١ ، ١٨٢ ، ١٨٤ ، ١٨٦ ، ١٨٧ ، ١٨٨ ، ١٩٦ ، ٢٠٣ ، ٢١٤ ، ٢١٥ ، ٢١٦ ، ٢٢٣ ، ٢٢٤ ، ٢٢٦ ، ٢٢٩ ، ٢٢٩ ، ٢٤٣ ، ٢٤٥ ، ٢٤٩ ؛ الاحوال الجوية : ١٣١ ؛ اختطاطها : ١٧ ، ٣٦ ، ٣٧ ، ٣٨ ، ٦٦ ؛ اسوارها : ٣٥ ، ٣٦ ، ٥٠ ، ٥٢ ، ٦٦ ، ٧٥ ، ٨٧ ، ٩٨ ، ٩٩ ؛ أهلها : ٨٤ ، ١١٢ ، ١١٣ ، ١٢١ ، ١٣٢ ، ١٣٣ - ١٣٤ ، ١٥٣ ، ١٦٣ ، ٢١٤ ، ٢١٥ ؛ تسميتها : ٣٦ ؛ تقسيمها : ٢٨ ، ٩٨ ؛ ثروتها : ١٦٣ ؛ الحياة فيها : ١١٣ ؛ عدد سكانها : ١٢٠ ، ١٢١ ، ١٢٢ ؛

عظمتها : ١٠٥ ؛ عمارتها : ١٩٦ ؛ مساحتها : ١٢١ ، ١٢٢ ؛ موقعها : ٢٥ ؛ نموها : ١٦ - ١٧ ، ٧٩ - ٨٠ ، ٩٩ ، ١١١ ؛ وصفها : ٤٠ - ٤١ ، ٦٦ ، ٨٥ ، ٨٧ ، ٩٧ - ٩٨ ، ١١٧ ، ٢٢١
قايتباي ٢١٦
ابن قايتباي (المخبول) ١٢٨
قيور الشهداء (موضع) ٢١٣
القرافة ٩٨ ، ٢١٣ ، ٢١٤
القرافي ٩٣
قرطبة ١١ ، ٣٧ ، ٣٨ ، ٥٦ ، ١٠٦
القصة ١٥١
قصر الخليفة الفاطمي ٤١ ، ٤٢ - ٤٣ ، ٤٣ - ٤٧ ، ٤٩ ، ٥٦ ، ٥٧ ، ٧٦ ، ٨٥
قصر اللؤلؤة ١٨٤
القطائع ٦٥ ، ٧٥ ؛ اختطاطها ١٧ - ١٨
قلاوون (السلطان) ١٥٨
القلعة ، قلعة الجبل ١١ ، ١٧ ، ٧٦ ، ٨٤ ، ٨٧ ، ٩٨ ، ٩٩ ، ١٠٠ ، ١٣٦ ، ١٦٢ ، ١٧٣ ، ١٧٧ ، ١٧٨ ، ١٧٩ ، ١٨٤ ، ٢١٣ ، ٢١٦ ، ٢٢٣ ، ٢٢٥ -

٢٢٨ ، ٢٤٠ ، ٢٤١ - ٢٤٢ ؛
 الإضافات عليها : ٢٢٦ ؛ أقسامها :
 ٢٢٥ ؛ بناؤها : ٧٥ ، ٧٨ ؛ الدفاع
 عنها : ٢٣٤ ؛ دلالتها : ٧٦ - ٧٧ ؛
 مناعتها : ٢٢٧ ، ٢٢٨ ، ٢٢٩ ،
 ٢٣٤ ؛ موقعها : ٧٥ ، ٢٢٦ ، ٢٣٤ ؛
 الهدف منها : ٢٢٥ ؛ وصفها : ٢٢٦ -
 ٢٢٩ ، ٢٢٣ - ٢٢٤ ؛ ومسجد
 السلطان حسن : ٢٢٨
 القلعة القديمة ٣٥
 قناة القاهرة ، انظر : الخليج
 القياس ١٦٤ ، ١٩٦ ، ١٩٩

ك

كائدرائية البي ٢٢٤
 كازانوف ٢٢٥
 كافور ٣٥
 كتاب في البصريات (اقليدس) ٦٠ -
 ٦١
 الكتاب العرب ٤٦ ، ٥٠ ، ١٠٧ ، ١٢٢ ،
 ١٢٣ ، ١٨١ ، ١٨٤ ، ١٨٩
 كربلاء ٥٤
 الكرج (جورجيا) ٢٤٥
 ابن كلس ٥٦
 كليرجيه ، مارسيل : نصوص : ١٠٠ ،
 ٢٢٥
 الكندي ٦١
 الكوفة ٢١ ، ٦٥
 كيليكية ٢٤٥

ل

لبنان ٤٩
 اللغة العربية : انتشارها بين الاقباط :
 ٢٤ ؛ تعليمها : ٢٩ ؛ العلم : ٥٨
 اللغة الفارسية ٥٥
 اللغة القبطية ٢٤
 اللغة اليونانية ٢٤
 لويس التاسع (القديس) ١٥٨
 ليو الأفريقي ١٩١ ؛ نصوص : ١٦٥ -
 ١٦٨ ، ١٦٨ - ١٦٩ ، ١٨٦ - ١٨٧
 ليون ١٢٣ ، ١٦٤

م

الماء ٢٩ ، ٤٠ - ٤١ ، ٦٦ ، ١٢٧ -
 ١٣٨ ، ٢٣٥
 مارسيه ، وليام : نصوص : ٢٣ - ٢٤ ،
 ١٠٨
 ماريل : نص : ١٥٢
 المأمون (وزير الفاطميين) ٦٣
 مباني السلطان الغوري ١٦٠ - ١٦١
 مباني السلطان قلاوون ١٥٨
 مباني السلطان محمد بن قلاوون ١٥٨
 المنبي ٢٢ ، ٥٥
 المحمل ١٤٥ ، ١٧٨ - ١٧٩
 محمد (الرسول) ٢٠٩

- محمد بن طنج ، انظر : الاخشيدي
 محمد بن قلاوون (السلطان) ١٥٨ ، ٢٢٦
 محمود (ملك البنغال) ٢٤٥
 المحيط الهندي (ايضا : بحر الصين)
 ١٦٤ ، ٢٢
 المختارة (دار الاخشيدي) ٢٣
 المدارس الاسلامية ٢٨ ، ٨٩ ، ٩١ ، ٩٢ ، ١٠٦ ، ١٦٦ ، ٢٠٩ ، ٢١٠ ، ٢١٤
 مدرسة السلطان برقوق ١٥٨
 مدرسة السلطان حسن ٢٢٢ -
 ٢٢٤ ، ٢٣٤ ، ٢٣٥
 مدرسة السلطان الفوري ١٦٦
 مدرسة الملك الصالح ايوب ٣٧
 المدينة ١٥
 المساجد ٢٥ ، ٢٧ ، ٢٨ ، ٥٠ ، ٥١ ، ٨٢ ، ١٠٦ ، ١٠٧ ، ١١٨ ، ١١٩ ، ١٢٩ ، ١٣٠ ، ١٦٦ ، ٢٠٩ ، ٢١٠ ، ٢١٣ ، ٢١٤ ، ٢١٦ ، والكنيسة :
 ٥٣ - ٥٤
 مسجد ابن طولون ٢٠ - ٢١ ، ٩٨ ، ١٢٦ ، ١٥٢ ، ٢٠١
 المسجد الاقصر ٣٥ ، ٣٧ ، ٥٢ ، ١٥٣ ، ١٥٧ ، ١٥٥
 مسجد الحاكم ٣٧ ، ٥٢ ، ١٥٢ ، ١٩٩
 مسجد سامرا ٢١
 مسجد السلطان حسن ١١ ، ٢٢١ ، ٢٢٢ ، ٢٢٣ ، ٢٢٤ ، والقلمة :
 ٢٢٨
 مسجد عمرو بن العاص ٦٨
 مسجد الفسطاط الكبير ٢٩
 مسجد الملك المؤيد ١٦٢
 المستشفيات ٢٠١ - ٢٠٥
 مستشفى احمد بن طولون ٢٠٢
 مستشفى صلاح الدين ٢٠٢ - ٢٠٣
 مستشفى قلاوون ٢٠٣ - ٢٠٥
 المستنصر (الخليفة الفاطمي) ٦٢
 السعودي ٢١ ؛ نصوص : ٢١ - ٢٢ ، ٢٢ - ٢٣
 المسيحيون في مصر ٢٢ ، ٢٣ ، ٢٤ ، ٧٥ ؛ والفاطميون : ٤٨
 الشهيد النفيسي ١٥١
 مصر (البلاد) ٩ ، ١٠ ، ١٥ ، ١٦ ، ١٧ ، ٢١ ، ٢٣ ، ٢٤ ، ٣٥ ، ٣٧ ، ٤٨ ، ٥٠ ، ٥٣ ، ٥٦ ، ٥٩ ، ٦٠ ، ٦١ ، ٦٤ ، ٦٦ ، ٧٥ ، ١٠٦ ، ١٠٨ ، ١١٠ ، ١١١ ، ١١٤ ، ١٣٦ ، ١٣٩ ، ١٥٣ ، ١٦٤ ، ١٦٦ ، ١٨١ ، ١٨٧ ، ١٩٥ ، ١٩٦ ، ١٩٨ ، ٢٠١ ، ٢٠٥ ، ٢٠٦ ، ٢٠٨ ، ٢٢٤ ، ٢٢٣ ، ٢٢٤ ، ٢٤٤ ، ٢٤٥ ؛ اهلها : ١٠٨ - ١٠٩ ، ١٢٥
 مصر (المدينة) ، انظر : الفسطاط
 مصر القديمة ، انظر : الفسطاط
 الطرية ٩٩ ، ١٢٨
 المعابد المصرية القديمة ٥٣
 المعتزلة ٣٠
 المعز لدين الله ١٧
 المغرب ١٧ ، ٥٥ ، ٨٦ ، ١٠٧ ، ٢٤٥ ؛
 الفارسية : ٨٨ ، ٩٢
 المغول ١١١
 مقابر الخلفاء ، مقابر السلاطين ٩٨ ، ٢١٦ ، ٢١٧ ، ٢٢٢
 مقبرة قايتباي ٢١٧
 مقبرة توت عنخ آمون ١٠
 المقدسي ٦٦
 « المقدمة » (ابن خلدون) ١٠٧
 المقريري ٧٥ ، ١٠٧ ، ١٠٨ ، ١٦٥ ، ١٨٥ ، ١٩٩ ؛ نصوص : ١١٠ ، ١٦٢
 المقس ٨٧
 المكتبة (في قصر الخليفة الفاطمي)
 ٥٦ ، ٥٧
 مكة ١٠١ ، ١٠٢ ، ٢٤٥

الملامي ١٨٠ - ١٨٤ ، ١٨٧ ، ١٩١
 الملك الكامل محمد بن العادل ابي بكر
 ابن ابوب ١٧ ، ٩٣
 الملك الناصر ١٧٣
 الماليك ١١ ، ٧٧ ، ١٠٠ ، ١٠٦ ،
 ١٠٧ ، ١٠٨ ، ١٠٩ ، ١١٠ ، ١١١ ،
 ١١٢ ، ١١٣ ، ١٥٥ ، ١٦٢ ، ١٨٨ ،
 ٢١٦ ، ٢٢٨ ، ٢٣٠ ، ٢٣١ ، ٢٣٢ ،
 ٢٣٣ ، ٢٣٨ ، ٢٣٩ ، ٢٤٠ ، ٢٤١ ،
 ٢٤٤ ، ٢٤٩ ؛ الماليك البحرية :
 ١٦٧
 ميدان السنيوريا (في فلورنسة) ٢٣٨
 ميدان القلعة ٢٢١ ، ٢٢٦ ، ٢٢٨ ،
 ٢٣٤ ، ٢٣٩ ، ٢٤٠ ، ٢٤١ ، ٢٤٢ ،
 ٢٤٣ ، ٢٤٤
 ميشليه ، جول ٥٤
 ميلانو ١٦٣
 ابن ميمون ٩٣
 ميورقة ١٦٧

ن

نابولي ١٣٤
 ناصر خسرو ٢٩ ، ٥٩ ، ٦٣ ، ٦٧ ؛
 نصوص : ٣٠ ، ٤٢ ، ٤٣ - ٤٢
 ٦٨ - ٧٠
 النساء ١٤٤ - ١٤٧ ، ١٦١ ؛ ملايسهن :
 ١٤٥ ، ١٤٦ ، ١٤٧
 النصراني ، انظر : المسيحيون
 ابن النفيس ٩٣ - ٩٤
 نيسابور ٦٦
 النيل ٢٣ ، ٢٨ ، ٣٩ ، ٤١ ، ٦٠ ،
 ٦٤ ، ٦٧ ، ٦٩ ، ٨٠ ، ٨٤ ، ٨٦ ،
 ٨٧ ، ٩٧ ، ٩٨ ، ١٠١ ، ١٠٢ ،
 ١٠٣ ، ١٠٤ ، ١٠٥ ، ١٣٢ ، ١٣٧ ،
 ١٣٨ ، ١٤٢ ، ١٨٥ ، ١٨٧ ، ١٨٨ ،
 ١٨٩ ، ١٩٠ ، ٢٤٤ ، ٢٤٥ ؛ الملاحه
 فيه : ١٠٢ - ١٠٥

هـ

الهند ١٠١ ، ١٠٢ ، ١٦٣ ، ٢٤٥
 هولنده ١٦٧
 ابن الهيثم ٦٠ - ٦١

و

الوكالات ١٩٦ ، ١٩٩
 وكالة باب الجوانية ١٩٩
 وكالة قوصون (ايضا : خان
 قوصون) ١٩٨ ، ١٩٩
 وليام الصوري ٤٣

ي

يافا ١٠٢
 يوسف (النبي) ٢٣٦
 يوسف بن الصوفي خليل ٢٤٥
 ابن يونس ٥٩ - ٦٠

فهرست المحتويات

٧	المسهمون في هذا الكتاب
٩	المقدمة
١٣	١ - العواصم الاسلامية الاولى
٣٣	٢ - القاهرة الفاطميين
٧٣	٣ - صلاح الدين
	٤ - سلاطين المماليك : الحالة العامة والحياة الاجتماعية
٩٥	
١١٥	٥ - الشوارع والمنازل
١٤٩	٦ - الاضرحة والاسواق
١٧١	٧ - الاعياد والافراح
١٩٣	٨ - المنشآت المدنية
٢١١	٩ - الجبانات العظيمة
٢١٩	١٠ - قصر السلطان وساحة القلعة
٢٤٧	١١ - الخاتمة
٢٥١	مجمل بتواريخ حكام مصر
٢٥٣	مراجع مختارة
٢٥٩	الفهرست
٥١	خريطة القاهرة : الشوارع والابنية الرئيسية

ف. ب. (۱۸۴)

۱۹۶۸

سلسلة مراكز الحضارة

مركز اسلامي عظيم ، ازدهر فيه فن العمارة الذي لا تزال آثاره باقية الى يومنا هذا تردد أناشيد المجد الغابر. ولقد كانت المدينة منذ انشائها عاصمة سياسية ، وأصبحت في عهد المماليك مدينة عالمية ، برغم احتفاظها بطابعها الاسلامي ، وصارت ، بسبب من نشاطها التجاري ، قبلة الرحالة الاوروبيين والتجار من أرجاء المعمور.

ويقدم لنا هذا الكتاب صورة آسرة عن القاهرة الفاطميين ، وقاهرة صلاح الدين ، وقاهرة المماليك. وقد ازدهرت المدينة خلال هذه العهود المختلفة. ونحن هنا نرى السكان في شوارعهم ، وبيوتهم ، وجوامعهم ، واسواقهم. كما اننا نعيش معهم في ايام احتفالاتهم الصاخبة وأماكن لهوهم البديعة. لقد كانت مؤسساتهم المدنية رائعة ، كما انهم بنوا مقابر عظيمة ، بالاضافة الى القصور الملكية والقلعة المعروفة.

الكتب التي صدرت من هذه السلسلة :

دمشق في عصر المماليك	شيراز مدينة الاولياء والشعراء
تأليف وترجمة : الدكتور نقولا زياده	تأليف : آرثر آربري ترجمة : الدكتور سامي مكارم
أثينا في عهد بركليس	طيبة في عهد أمنحوتب الثالث
تأليف : تشارلز ألكسندر روبنسن ترجمة : الدكتور أنيس فريجة	تأليف : اليزابث رايفشتال ترجمة : ابراهيم رزق
فاس في عصر بني مرين	فلورنسه في عصر دانتي
تأليف : روجيه لو تورو ترجمة : الدكتور نقولا زياده	تأليف : بول ج. رجبز ترجمة : الدكتور محمود ابراهيم

انطاكيه في عهد ثيودوسيوس الكبير

تأليف : جلانفيل داوني
ترجمة : الدكتور ألبرت بطرس

الناشر : مكتبة لبنان - بيروت

الثنى : ٣٥٠ ق.ل.